

قصّة الأدب في مصر

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعقيد بجامعة الأزهر

الجزء الأول

دار الجيّد
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٢م - ١٩٩٢م

تمهيد

هذا الكتاب « قصة الأدب في مصر » يصدر في عدة أجزاء ، ويتناول وصف الحياة الأدبية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم ، في كثير من الإحاطة والتفصيل ودقة البحث ، والعناية بفهم المؤثرات العامة التي أثرت في الأدب المصري : شعره ونثره ، في مختلف العصور والأجيال .

ولإني لني غنى عن أن أنوه بمجد أدبي مثل هذا الجهد ، أو أن أصف عملا عليا متميزاً مثل هذا العمل ، الذي يمثل موسوعة جامعة في تاريخ الأدب في مصر منذ أقدم العصور حتى اليوم ؛ وأكتفي في هذه الكلمة بأن أدعو في صدق وإخلاص إلى العناية بترائنا الفكرى والعقل والقوى عامة ، وبترائنا الأدبي خاصة ، وأن ينشأ في دار الكتب المصرية قسم مستقل لتراثنا الأدبي المصرى القديم والحديث ، وأن ينشأ كذلك في شتى كليات اللغة والأدب في مصر أقسام تعنى بدراسات الأدب المصرى وبحوثه وتراثه ، لأنه مظهر القومية المصرية عبر الأجيال والقرون .

وأتمنى أن أرى اليوم الذى تصدر فيه موسوعة ضخمة يسهم فيها كل قادر على البحث والدراسة من علماء مصر وأدبائها ، وتحيط بتاريخنا العقلى والآدبى ، وبشقى أعلام مصر القديمة والحديثة فى استيعاب ودقة وإحاطة ؛ وكم يعلى من مكانة مصر وهياتها الأدبية أن تعمل جامعة على نشر آثار مصر الأدبية القديمة والحديثة ؟ فى ذلك نشر لمفاخر مصر وتاريخها ، وبعث للنهضة الفكرية فيها ، وعمل على زيادة إيماننا : بأنفسنا ، بتاريخنا ، بمصر الخالدة الباقية على وجه الزمان ؛ مصر التى حملت مشاعل النور والحضارة منذ أصاب الإغبياء أثينا وروما ، ثم حملت لواء الثقافة الإسلامية والعربية ، منذ إنشاء الأزهر فيها ؛ ثم صارت الملاذ الفكرى للعالم العربى والإسلامى عندما سقطت بغداد صريعة مضرجة بالدماء عام ٦٥٦ هـ ، وبعد ما خرت الأندلس العربية عام ٨٩٧ هـ صريعة أمام جيوش الاسبان البربرية المتعصبة .

إن تاريخ مصر الفكرى والثقافى والأدبى والروحى هو تاريخ العرب جميعاً ،
وهو تاريخ حافل بالآثر وألوان الجهاد والكفاح ، من أجل مستقبل الإنسانية ،
وأداء رسالة الإنسان الحر على الأرض الطاهرة ، التى غذاها النيل بمائه المتدفق ،
ونفخت فيها الحياة والقوة رفات آبائنا وأجدادنا ، الذين علمونا معنى الحرية
والقومية والمدنية ؟

المؤلف



الجزء الأول

الفتح العربي لمصر

مصر هبة النيل :

مصر كما قال هيرودوت : «هدية من النيل» ، والنيل بين جنادل أسوان والبحر الأبيض المتوسط ينقسم إلى جزأين يمتاز أحدهما عن الآخر تماما . يجرى الجزء الأول منه في صدع في الهضبة الأفريقية والثاني في سهل من الطين من صنعه ، فانقسمت مصر بذلك قسمين مختلفين : مصر العليا ومصر السفلى ؛ الصعيد والدلتا . أما مصر السفلى فدلتا تكونت في البحر الأبيض في آلاف من السنين ، وغربي الدلتا تمتد الصحراء الأفريقية وبها بالقرب من مصر سلسلة من الواحات . ويسمى هذا الغرب (ليبيا) ، ومنها غزا مصر في مختلف العصور أقوام شتى أخرجتهم من موطنهم السنون المجيدة .

وشرقي الدلتا صحراء جرداء ولكنها لم تمنع عن مصر غارات المغيرين ، ففيها مسالك ودروب توصل لآسيا .

ويحف بالصعيد من الجانبين حافتا الهضبة ، ويختلف عرضه بينهما ؛ وجنوبي طيبة يضيق إلى ميلين ، وعند أسوان وحلفا تعترض النهر أحجار شديدة الصلابة هي الجنادل .

وليس الصعيد بمعزل عن الأرض شرقية وغربية ، فكلتا الحافتين تشقها في عرضها وديان عدة ، ومن أشهرها وادي الحمامات ويمتد إلى البحر الأحمر من النيل عند قفط ، ويلاحظ اقتراب النيل هناك من البحر الأحمر . ويمتد في المنطقة نفسها مسلك آخر نحو الواحة الخارجة ، وبذلك كانت هذه المنطقة ذات شأن خاص في تاريخ مصر القديمة .

وهكذا خلقت مصر . كل ما فيها متوقف على فيضان النيل ، يترقب أهلها ارتفاع كل عام منذ آلاف السنين .

وقد سكن مصر قبل التاريخ أقوام بدأنا نعرف الكثير عنهم من الصور المرسومة على الخزف التي وجدت في مقابرهم . والظاهر أنهم كانوا صيادين يقتاتون

عما تناله رماحهم ونصيبه سهامهم ؛ ولم يظهر في تلك الصور أنهم زاووا الزراعة أو توجهت إليها أفكارهم ، وكان لهم في النيل قوارب تسير إما بالمجاديف وإما بالقلاع . أما مساكنهم فكانت أكواخاً أقاموها على الأرض المرتفعة التي لا يعلوها الماء ، وقد وجدوا لهم أعلاماً اتخذوها على قواربهم ، وقالوا إنهم كانوا قبائل لكل منها علمها وموطنها الخاص بها ؛ وسموه باسم معبودهم ، وإن أقسام مصر القديمة أصلها تلك المواطن .

ولابد من أن سكنى هذه القبائل في واد طويل كوادى النيل أدت إلى ارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً تجارياً ، ولابد أيضاً من أن الارتباط التجارى سهل تبادل الأفكار وتعلم الناس بعضهم من بعض . والثابت أيضاً أنهم اتصلوا بالبلاد خارج مجرى النيل ؛ وقد اجتمعت لمصر كل أسباب الحضارة ، ومن ثم قامت الحضارة المصرية في وادى النيل نفسه .

ولكن من المؤرخين من يزعم أن أهم عناصر تلك الحضارة قد جلبه من الخارج أقوام أغاروا عليها . ويدعون أنهم أسويون ، لغتهم سامية ، دخلوا مصر من شرق الدلتا ، أو من طريق وادى الحمامات إلى النيل . ويستدلون على ذلك بدخول تراكيب سامية في اللغة المصرية ؛ وبتغييرات شتى طرأت دفعة واحدة على عبادات المصريين وطرق دفنهم موتاهم . ويشكر ذلك القول مؤرخون آخرون : فيقولون بأنهم يحدون كل عناصر الحضارة المصرية المعروفة قبل التاريخ في العصر الذى وصفنا حالة أهله ، ويرون أن دراسة أجناس سكان الوادى قبل التاريخ فيها تفسير لقيام الحضارة التاريخية .

مصر خلال عصور التاريخ :

ولقد عاشت مصر القديمة خلال عصور التاريخ في ظلال حضارة زاهية ، نجد آثارها في الأهرام وفي المعابد ، وفي مختلف الآثار المصرية العديدة ، ومرت بعهود الدولة القديمة^(١) والدولة الوسطى^(٢) (٣٢٠٠ - ١٨٠٠ ق م) ، ثم الدولة الحديثة التي بلغت مصر في عهدها قمة مجدها السياسى والحربى ، وبلغت منتهى ما بلغت من

(١) من الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة .

(٢) من الأسرة الحادية عشر وما تلاها من دول شهدت مصر فيها غزو الهكسوس لها ، وحياتهم فيها ، إلى أن طردهم منها آمس وأسس هو وخلفاؤه الدولة الحديثة في مصر .

حضارة شهدتها مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٨٠٠ - ١١٠٧ ق م) .
ثم ما تلا ذلك من حكم السكينة إلى أن تغلب عليها الملوك الليبيون في الشمال
(٩٤٥ - ٦١٢ ق م) ، والملوك النوبيون في الجنوب (٧٢٢ - ٦٦١ ق م) ،
ثم عصر الحكم الفرسى لمصر الذى بدأ بغزو قبيل لها عام ٥٢٥ ق م ، وانتهى بقضاء
الإسكندر الأكبر المقدوني عليه عام ٣٣٣ ق م ، ثم دولة البطالسة التى خلف حكمها
الإسكندر الأكبر فى مصر وأعادوا لها رفاهيتها ومجدها ، وإن كانوا حكاما لا يتصلون
بالشعب المصرى بصلة الدم أو العقيدة ، وكان المصريون أيام البطالسة يحتفظون
بميراثهم من حضاراتهم القديمة ، فلم يكن للحضارة الإغريقية سبيل لإلهم ، فكانت
معاهد الإسكندرية دوراً أجنبية فى أرض مصرية ، ثم الحكم الرومانى الذى خلف
حكم البطالسة فى مصر على يد اكتافىوس خليفة قيصر ، إذ هزم اكتافىوس الأسطول
المصرى فى واقعة أكتيوم عام ٣١ م ، واقتنى أثراً نطونيو وكليوباترة آخر ملكة على
مصر من البطالسة ، وقد انتحر الإثنان قبل وقوعهما فى قبضة الغازى المنتصر ،
وبذلك دخلت مصر فى حكم الرومان ، وقد ظلت الامبراطورية الرومانية الوثنية
تحكم حوض البحر الأبيض المتوسط قروناً عديدة ، وفى عهد القيصر قسطنطين
أسست مدينة القسطنطينية سنة ٣٣٠ م ، وقد اتخذها القيصر عاصمة لدولته ، ثم
رفع عن المسيحيين العذاب الذى أنزله أسلافه بهم ، واعتنق المسيحية ، وجعلها
دين الدولة الرسمى عام ٣١٢ م .

مصر ولاية رومانية :

بدأت علاقة الرومان بمصر أيام البطالسة وقت أن كانت روما تكافح
قرطاجنة ، وكانت تلك العلاقات ودية ، ثم خرجت روما من الحرب البونية ظافرة ،
وضعف البطالسة فدخلت مصر فى حماية الرومان ، يدفعون عنها أعداءها الآتين
من ناحية الشرق ، ويسيطرون على علاقاتها الخارجية ويتدخلون فيما يقوم بين أفراد
أسرة البطالسة من نزاع . كل ذلك عملاً بالسياسة التى تقدم وصفها والتى كانت
تفضل السيطرة على أمم الشرق على حكمهم .

وقد كان من نتائج ذلك أن ملوك مصر البطالسة لم يكن لهم بد من الاشتباك فى
حرب الأحزاب فى روما .

وفى عام ٣١ م أصبحت مصر ولاية رومانية خاضعة لحكم الرومان ، وقد

استمر هذا الحكم إلى أن فتح العرب مصر في عام ٦٤١ م .

كان هذا الحكم حكماً عسكرياً محضاً ، حكم دولة غالبية أمة مغلوبة ، فلم تكن مصر في أثنائه مركزاً للحضارة الرومانية ، كما كانت أيام البطالسة مركزاً للحضارة الإغريقية . ولم يك حكم مصر بواسطة ولاية أجنبية باسم قياصرة بعيدين مما يمنع زوال الحضارة المصرية القديمة ، فلم يكن لمصر أثر في نمو الحضارة الرومانية ، ولا هي تركت الاحتفاظ بحضارتها القديمة ، وقد اهتم بعض القياصرة بحكم البلاد حكماً عادلاً وبالغناية بتجاريتها وغسیر ذلك من موارد ثروتها : فأعاد تراجل الخليج بين النيل والبحر الأحمر وأصلح دقلديانوس من مالية البلاد ، وآثر أهل الإسكندرية على غيرهم ، فأقاموا عموداً تذكراً له هو عمود السوارى المعروف ، وفي عهد هذا القيصر وأمثاله عنى الرومان بدفع المتبربرين من عرب ونوبة وسكان الصحارى شرقى وادى النيل عن حدود مصر . وأقام القياصرة أيضاً بعض المباني أو شيدوا أجزاء جديدة من معابد قديمة . ومن أشهر عمائر الرومان حصن بابليون وهو بناء قديم يقال إنه من صنع الفرس ولا تزال بعض أبراجه قائمة بمصر القديمة . ولم تكن الأمور دائماً سائرة على هذا المنوال ، بل قاست مصر كثيراً أيام القياصرة الضعاف . فكانت تقوم عندئذ الفتن الكبيرة بين الأجناس المختلفة الساكنة في مصر وعلى الأخص في الاسكندرية بين اليهود والإغريق ، أو يحاول عندئذ ذوو الاطماع من القواد الرومان الاستقلال بمصر ، أو يحاول عندئذ المصريون رفع النير عن أعناقهم . وكل ذلك يؤدى إلى سفك الدماء والفوضى وفقر البلاد . وكان المتبربرون يتمزقون فرص الفوضى للاغارة على حدود البلاد ، فتمكنت مثلا مملكة تدمر الواقعة في الصحراء بين سوريا والفرات أيام ملكتها زنوبيا (١) من تهديد

(١) هكذا يرد اسمها في المراجع الإفرنجية ، وهى فى المصادر العربية تعرف باسم زينب ، وكان زوجها أذينة ملك تدمر ، وكان يخضع لنفوذ روما ، كما كانت تحاول فارس إخضاع تدمر لنفوذها لوقوعها على حدودها الغربية . ولما قتل الملك أذينة خلفته زينب أو ريليانوس ، وقد حاول الامبراطور إزلالها وفتح تدمر وإخضاعها لحكم روما المباشر لخارب زنوبيا واتهم على جيشها فى معركة : أنطاكية وحصص ، ثم دخل جيشها تدمر واحتل المدينة ، وظل يقاتل ويدفع عنه الحصار ، وهربت زنوبيا من المدينة مولية شطر الفرات ولكنها أسرت واستسلمت تدمر ، وأرسلت زنوبيا هي وأولادها أسيرة إلى روما .

مصر ، ومن حكمها عامين .

وكان أهم ما حدث في أثناء العهد الروماني انتشار المسيحية في مصر ولا يعلم بالضبط متى بدأ ذلك . والظاهر أن أول انتشارها كان بين اليهود المقيمين في الاسكندرية ثم بين الإغريق ثم بين المصريين .

وقد اعتنق المصريون كلهم المسيحية ، وكانوا على استعداد لذلك : فالعبادات الوثنية القديمة كانت قد فقدت سلطانها على عقولهم ، ووجدوا في الدين الجديد عقيدة الحياة الآخرة ، وهي من أهم عقائدهم القديمة ، وكانوا شعباً مستعبداً له في تعليم المسيحية الاجتماعي صلو .

وقد كان هناك اختلاف بين الكنيسة الإغريقية والكنيسة المصرية حيث كثرت في الأولى الآراء الفلسفية وحب الجدل ، أما الثانية فتغلب عليها روح الزهد والتأمل . فكثرت من المصريين من انزوى عن مساوىء العالم وشروبه ، وآوى إلى الكهوف والصوامع ، وقامت في مصر الأديرة الكثيرة ، والظاهر أن من المصريين من أثر الرهينة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية . . وقامت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية حتى أيام قسطنطين ، وكان أسوأ الاضطهاد ما وقع أيام دقلديانوس ، فقد قتل بأمره عدد كبير من المسيحيين في مصر . ويسمى الأقباط عصره بعصر الشهداء ، وجعلوا أول حكمه (سنة ٢٨٤ م) مبدأ لتاريخهم .

ولقد ساءت الحالة في مصر على توالي الزمن ، فصارت البلاد في فقر مدقع لا تقوى على دفع ما فرضته الحكومة عليها من الضرائب ، واشتد النزاع بين الطوائف الدينية المختلفة ، واختل الأمن في قراها وعلى حدودها ، وقد كره المصريون الحكم الروماني الاستبدادي المخرب ، وعلى الرغم من فتح الفرس لمدينة الإسكندرية عام ٦١٧ م ، فقد أجلاهم عنها الامبراطور هرقل ، وانسحبوا منها ، وعاد إليها الرومان سنة ٦٢٨ م .

وكان الإسلام قد أضاء بنوره الجزيرة العربية وفارس والشام ، وسرعان ما امتدت يده المضيئة إلى مصر هادية محررة ، حيث دخلت مصر تحت الحكم الإسلامي عام ٦٤٠ هـ - ٦٤٠ م .

الجيش الإسلامي في مصر :

كانت مصر حين الفتح الإسلامي كما تحدثنا المصادر العربية تحت حكم المقوقس ،

ويبدو أنه هو البطريق قيرس الذي عينه الامبراطور هرقل حاكماً على مدينة الإسكندرية ، وكان قبل تعيينه في مصر حاكماً أو أسقفاً في مدينة فاز إحدى مدن القوقاس ، فلقب في مصر « قوقويس أو القوقاسي » ، وكان بطريق الإسكندرية يتمتع بمركز ممتاز بالنسبة لحكام جميع المدن المصرية ، لأنه كان مكافئاً بحجابه الضرائب مع أعباء وظيفته الأصلية .

وفي عام ١٨ هـ كما يروى السيوطي في حسن المحاضرة^(١) : قدم عمر بن الخطاب الجابية فقام إليه عمرو بن العاص فغلبه فقال : يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر ، وحرصه عليها ، وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم عن القتال والحرب ؛ فتخوف عمر على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمر يعظم أمرها عنده ، ويخبره بما لها ، ويهون عليه فتحها حتى ركن إلى ذلك عمر ، فعقد له على أربعة آلاف كلهم من عك ، وسار عمرو إلى رفح ، ومنها إلى الفرما ، حيث هزم الجيش الإسلامي جيشاً كثيفاً بعث به المقوقس ليصد العرب ، وكان مؤلفاً من خيرة كتائب الجيش الروماني في مصر ، ثم توالى المعارك في بلبس وسواها من قرى مصر ، إلى أن وصل جيش المسلمين إلى حصن بابلون الذي احتتمت به الحامية الرومانية ومعها المقوقس وحاصر عمرو الحصن إلى أن فتح ببسالة الزبير وجيش عمرو ، بعد حصار دام سبعة أشهر ، ثم فتحت الاسكندرية بعد نضال طويل مات هرقل في أثنائه عام ٢٠ هـ ، فكسر الله بموته شوكة الروم ، ولم تفتح الإسكندرية إلا بعد أن حاصرها الجيش الإسلامي خمسة أشهر قبل موت هرقل وتسعة أشهر بعده . وبعد قليل دانت مصر كلها بالطاعة للحكم الإسلامي ، وبني عمرو ومسجده الجامع عام ٢١ هـ ، واتخذ الأماكن التي نزل بها جيشه معسكراً عاماً ، وبني حوله مدينة القسطنطينية يتوسطها المسجد الجامع . وأخذ يرفع الظلم عن كاهل المصريين ، ويعاملهم بالعدل والرحمة والإنصاف ، وبشر بينهم الإسلام وكتابه الحكيم .

وتروى المصادر الإسلامية التاريخية أنه لما وصل عمرو بن العاص إلى حصن « باب اليون » ، وأبطأ عليه فتحه — كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده ، فأمدّه بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف قائد عظيم ، وأرسل إليه :

(١) ١ : ٤٦ المرجع المذكور .

« إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ؛ منهم أربعة يقوم كل منهم مقام ألف :
للزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد .
واعلم أن معك اثني عشر ألفاً ، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة . » وحاصر عمرو
الحصن سبعة أشهر حتى فتحه ، ثم ذهب إلى الإسكندرية لقتال من تجمع بها
من الروم ؛ وحاصرها أربعة عشر شهراً ، ولما تأخر خبر فتح مصر عن أمير
المؤمنين عمر ، كتب إلى قائده يقول : « أما بعد ، فقد عجبت لتباطؤكم عن فتح
مصر ، إنكم لتقاتلونهم منذ سنتين . وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا
ما أحب عدوكم . إن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيائهم . وقد
كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلبتك أن الرجل منهم يقوم مقام ألف رجل ،
على ما كنت أعرف — إلا أن يكون غيرهم ما غيرهم . فإن أذاك كتابي فاخطب
الناس ، وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك
الأربعة في صدور الناس . ومر الناس جميعاً أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل
واحد . وليسكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ،
ووقت الإجابة . وليعج الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم . » فلما أتى
عمرأ الكتاب ، جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر ، ثم دعا أولئك النفر ، وقدمهم
أمام الناس ، وأمر الجميع أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله تعالى ،
ويسألوه النصر على عدوهم ، ففعلوا ، وأمدهم الله بتأييده ونصره ، وفتحت
الإسكندرية في يومهم هذا ، وكان مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة النبوية .
وأرسل عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب بشيراً
بالفتح ، فقال معاوية لعمرو : « ألا تكتب معي ؟ » فقال عمرو : « وما أصنع
بالكتاب ! أأست رجلاً عربياً ، يبلغ الرسالة ، وما رأيت وحضرت ؟ » . قال
معاوية بن خديج : « بعثني عمرو بن العاص إلى عمر ابن الخطاب بشيراً بفتح
الإسكندرية ، فقدمت المدينة وقت الظهيرة ، فأنتخت راحتي بباب المسجد ثم دخلته .
فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)
فأنتى شاحبا ، على ثياب السفر ، فأنتنى وقالت : « من أنت ؟ » فقلت : « أنا
معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص » . فانصرفت عني ، ثم أقبلت تشد .
أسمع حفيف إزارها على ساقها ، حتى دنت مني ، ثم قالت : « قم فأجب أمير المؤمنين ،
فتبعها ، فلما دخلت إذ بعمر يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ،

فقال : « ما عندك ؟ » قلت : « خير يا أمير المؤمنين . فتح الله الإسكندرية » .
فخرج معي إلى المسجد ، وقال للوذن : « أذن : « الصلاة جامعة » . فاجتمع الناس ،
ثم قال لي : « قم فأخبر أصحابك » . فقممت فأخبرتهم ، ثم صلي ودخل منزله واستقبل
القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس وقال : « يا جارية ! هل من طعام ؟ » فأنت بخبز
وزيت ، فقال : « كل » . فأكلت حياء ثم قال : « كل فإن المسافر يحب الطعام ،
فلو كنت آكلًا لأكلت معك » ، فأكلت على حياء ، ثم قال « يا جارية هل من تمر ؟ »
فأنت بتمر في طبق ، فقال : « كل » ، فأكلت على حياء ، ثم قال : « ماذا قلت
يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ » قال : « قلت : أمير المؤمنين نائم » . قال : « وبئس
ما قلت : أو بئس ما ظننت ؛ لأن نمت النهار لأضيعن الرعية ؛ وأئن نمت الليل
لأضيعن نفسي . فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟ » .

وقد عاش عمرو بن العاص تسعين عامًا (٤٧ ق هـ - ٤٣ هـ) ، ومات بمصر
ودفن بالمقطم بناحية الفج (١) .

كما مات ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص في رواية في مصر ودفن بداره عن
أكثر من مائة عام ، فكان ميلاده قبل الهجرة بستة وثلاثين عامًا ومات عام ٦٥
أو ٦٨ أو ٧٧ هـ (٢) .

هجرة العرب إلى مصر :

وقد هاجر إلى مصر نحو المائة والخسين صحابيًا (٣) ، ونشأت بها طبقة من
مشاهير التابعين الذين رووا الحديث (٤) ، وأتباع التابعين (٥) .

كما هاجر إليها كثير من القبائل العربية ، ومنها قبائل من بني سليم ومن قيس
نزلوا بمصر عام ١٠٩ هـ في عهد الدولة الأموية ، وأمير مصر إذ ذاك الوليد
ابن رفاعه الفهمي القيسي ، ولم يكن بمصر قبل ذلك أحد من قيس إلا من فهم
وعدون ، وجاء ثلاثة آلاف من قيس ونزلوا في أرض الخوف الشرق ، ثم قدم
مائة أهل بيت من فروع قيس فنزلوا ببلييس ثم أضيف إليهم ٥٠٠ أهل بيت من

(١) ٩٤ ج ١ حسن المحاضرة . (٢) ٩٠ ج ١ المرجع .

(٣) ٧٢ : ١ حسن المحاضرة للسيوطي . (٤) ١٠٥ : ١ المرجع .

(٥) ١١٢ : ١ المرجع .

البادية فكانوا على مثل ذلك ، وبعد سنة قدم ١٥٠٠ أهل بيت من قيس . ومات مروان عام ١٣٢ هـ ، وبمصر ثلاثة آلاف بيت من قيس ، ثم توالدوا ، وقدم عليهم من قدم من البادية فأحصوا في ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا ٥٢٠٠ ما بين صغير وكبير (١) ، وكذلك هاجر إليها قضاة (٢) والأزد (٣) ، وسواهم (٤) .

أمراء مصر الإسلامية :

كان أول أمير على مصر هو القائد الفاتح عمرو بن العاص الذي ظل والياً على مصر حتى عام ٤٣ هـ — ٦٦٤ م ، وهو عمرو بن العاص بن وائل القرشي . كان لسنياً بادي الحجة ، قائلاً لم يقل بغير تفكير ، ولم يعمل بغير تدبير ، وكان شديد الحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرفع طرفه إليه ، وكان للعضلات حللاً ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته . بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني » . فلما أتاه قال له : « إني أريد أن أبعثك على جيشي فيسلك الله ويغنمك » . وأرغب لك من المال رغبة صالحة » . فقال : « يا رسول الله ، ما أسلت من أجل المال ، بل أملت رغبة في الإسلام » . فقال : « يا عمرو ؟ نعم المال الصالح للرجل الصالح » . نظر إلى دولة الروم وملككتها نظرة اخترق حجابها المستور ، وأدرك أن قد آن وقت استباحة هذه المدن ، وخضد شوكة هذه الدولة عن مصر . فلما كانت سنة ثمان عشرة ، وقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه « الجالية » قام إليه عمرو ، وخلا به ، وقال له فيما قال : « أئذن لي أن أسير إلى مصر » . وحرضه عليها ، قال : « إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين ، وعوناً لهم . وهي أكثر البلاد أموالاً ، وأعجزها عن القتال والحرب » . فتخوف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل به عمرو يعظم أمرها ، وينبه خاطره الشريف إلى مزارعها ومنافعها ، ومحصول أرضها ، وبرها وخيرها ، وفيضان نيلها ، وحال أهلها — حتى ركن لذلك ، وعقد له على ثلاثة آلاف وخمسة مائة أو أربعة آلاف رجل ، وقال

(١) ٦٤ - ٦٦ البيان والإعراب عما بمصر من الأعراب للمقريزي .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧ . (٣) خطط المقريزي ٢ : ٧٨ .

(٤) ١٦ - ٢٥ في الأدب المصري - محمد كامل حسين .

« سر وأنا مستخير الله في مسيرك » ، فسار وافتتحها . ولم يخزنه الرأى في شيء مما قال ؛ كأنما نشأ الرجل بين أهل هذا المصر وربى فيه . وكان نظره في ذلك — على الغيب — أنقب وأصدق من نظر كثير من حكومات اليوم على الشهادة — والكثرة الأرضية أبسط من كلف . فكلم قدروا قوة خصومهم وأخطأوا ! ولم وطشوا بلادهم فضلوا حتى دفعوا في حروب أنهكتهم ، وكانوا قد ظنوها في أول أمرها لعباً ولهاوياً ! وقد وصف عمرو مصر لعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وصفاً بليغاً فقال : « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء . طولها شهر ؛ وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر . يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجز عجاجه ، وتعظمت أمواجه — لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب ، وصغار المراكب فإذا تكاملت تلك كذلك ، نكص على عقبيه ، كأول ما بدأ في شدته ، وطما في حدته . فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابييه ؛ ثم يندرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب . حتى إذا أشرق الزرع وأشرف ، سقاه من فوفه الندى ، وغذاه من تحته الثرى . فعند ذلك يدر حلابه ، ويفنى ذبابه . فيبينا هي — يا أمير المؤمنين — درة بيضاء ، إذ هي عثيرة سوداء ، وإذ هي زبرجدة خضراء . فتعالى الله الفعال لما يشاء ! » .

وكان عمرو مع هذه الدنيا المقبلة ، والسعادة الحادمة ، والسلطنة القاهرة النافذة — أسبق الناس إلى حق ، وأبعد الناس عن باطل : فلم يعهد عليه في أثناء ولايته عليها نقضه لعهد ، ولا خفره لذمة ، ولا نظره لما في أيدي الناس من الأموال والثمرات والعروض ؛ ولم يستأثر لنفسه بخير دون من يعول ويرعى . ثم أزال عن أهل مصر كثيراً من البدع ؛ وأذاقهم حلاوة الدين ، وحسبك بعروس النيل وبدعة الجبر من بدعة ، وبإزالتها من حسنة ؛ وحسبك من مناقبه الإسلامية الغراء رضائه بالحق على نفسه ، وإذعانه له !

قيل : أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، عائد بك من الظلم » . قال : « عدت بمعاذ » . فقال : « سأبقت ابن عمرو بن العاص فسبقتك ، لجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين » . فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ، وأن يقدم ابنه معه . فقدا ، فقال عمر :

« أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب » . فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر :
« اضرب ابن الأكرمين » . ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو » . فقال :
« يا أمير المؤمنين ، إنما ابنه الذى ضربني ، وقد اشتفيت منه » . فقال عمر لعمر :
« بسم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » . وناهيك بهذه المنقبة
الإسلامية من أمير المؤمنين وعامله رضى الله عنهما ، وحسبك هذه الكلمة الطيبة خير
شرعة يستقي منها جميع الحكام معاني الحرية ، والمساواة ، والإخاء والعدل ، والإحسان .
وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً : اثنان منهم : ليا
الحكم مرتين ، وواحد منهم ثلاث مرات . وقد حكم أحدهم البلاد نائباً عن ابن الزبير ،
ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان خمسة من هؤلاء من بيت بنى أمية ، ومن
ولاهها عبد العزيز بن مروان ، وعبد الله بن عبد الملك ، الذى وليها عام
٨٦ هـ - ٦٨٦ م (١) . وكان آخر الأمراء عليها عبد الملك بن مروان مولى لحكم
الذى ولي مصر سنة ١٣٢ هـ (٢) .

وفى أثناء الحكم العباسى تولى مصر أربعة وستون والياً ، أولهم : صالح بن
على بن عبد الله بن عباس .
وقد نهض هؤلاء جميعاً بإدارة مصر إدارة حازمة رشيدة دستورها مبادئ
الإسلام الحنيف ، وشعارها الحق والعدالة والمساواة والحرية ، فزاد سكانها (٣)
وانتشر فيها الرخاء ..

(١) وقد أصدر عام ٨٦ هـ أمراً باستعمال اللغة العربية فى المعاملات الرسمية ،
وبذلك أخذ سكان مصر يتعلمون اللغة العربية وينصرفون عن القبطية .
(٢) ٢ : ٧ حسن المحاضرة .

(٣) كان سكان مصر ، كما يقدره بعض الباحثين ، يبلغ حوالى سنة ١٢٠٠ قبل
الميلاد بين ستة ملايين وثمانية . وقد زار ديودور الصقلى مصر بين سنين ٦٠ و٧٥
قبل الميلاد وقدر أهلها بتسعة ملايين ، وروى المؤرخ اليهودى يوسيفوس - الذى
عاش فى منتصف القرن الأول بعد الميلاد - أن سكان مصر فى عصره زهاء
٧٨٠٠٠٠ . وأما فى العهد الإسلامى فقد روى أن الوليد بن رفاعه - أحد
الولاة فى القرن الثانى الهجرى - طوف فى أرجاء مصر تسعة أشهر ومعه الكتاب
والحساب : فأحصى القرى عشرة آلاف ، لا يقل مؤدو الجزية فى كل قرية عن =

الفكر المصرى بين عهدين

الفكر المصرى فى القديم والحديث :

ذاع فى مصر قبل الفتح وبعده بقليل الأدب الإغريق والثقافة الإغريقية ، وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية ، وذلك لنفوذ الإغريق فى عهد البطالسة وما تلاه من عهود .

ولم يكن للأدب واللغة والثقافة الرومانية تأثير يذكر على الرغم من نفوذ الرومان السياسى والإدارى ، وقد نظم شعراء مصر شعرهم باليونانية ومنهم : أخيلوس ناتيوس من شعراء القرن الرابع الميلادى ، وسيروس الأخمى .

ومع ذلك فقد عرف فيها الأدب السريانى واللغة السريانية ، بهجرة كثير من علماء السريان إلى مصر حيث نشروا أديهم .

وكان رجال الدين المسيحى فى مصر يكتبون مقالاتهم باللغة القبطية التى صارت لغة الدين عند الأقباط ، وبطل استعمال اليونانية فى الكنائس ، ومع

== خمسمائة . ومعنى هذا أن البالغين من غير المسلمين كانوا زهاء خمسة ملايين ، والمسلمون كانوا أقل ، فيمكن تقدير السكان جميعا بين أربعة وعشر وثمانية عشر مليونا . والظاهر أن العصور الإسلامية الأولى كانت عصور رخاء ، وأن عدد المصريين فيها قد بلغ عشرة ملايين أو زاد . ولا ريب أن سكان مصر فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) قد نقصوا كثيرا ، إذ تحولت عنها طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وزالت دولتها المستقلة ، وخضعت للدولة العثمانية . وفى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) قدر جومارد أحد علماء الحملة الفرنسية - سكان مصر بمليونين ونصف مليون . وفى عهد محمد على سنة ١٨٢١ م دل الإحصاء على أن السكان مليونان ونصف مليون أيضاً ، ولكن إحصاء سنة ١٨٤٦ م جعلهم أربعة ملايين ونصفاً ، وفى آخر عهد اسماعيل كان المصريون زهاء ستة ملايين .

ذلك لم تكن هناك آداب مشهورة قد كتبت بالقبطية ، وكان بعض العرب يعرفون القبطية ويتفاهمون مع الأقباط في مصر بها ، ومن هؤلاء القاضي خير بن نعيم ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م الذي كان يعرف القبطية (١) .

ولقد كانت مصر قبل الفتح مركزاً من مراكز التفكير في الشرق ، والشرق هو الذي كان مصدر الإلهام للغرب في الفلسفة في العصور القديمة ، فالفلسفة اليونانية كانت مقتبسة من بلاد الشرق كما ذهب إلى ذلك ابن النديم (٢) وابن خلدون (٣) ، إن الأمة الفارسية القديمة عرفت الفلسفة في فكرة نضال الخير والشر والنور والظلام التي أذاعها زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد ؛ وكذلك كان الكلدانيون القدماء أنبج الأمم في معرفة هيئات الأفلاك وحركات النجوم ورصدها ، وكان للهنود القدماء فلسفة معروفة ، منها رأيهم في تناسخ الأرواح ورأيهم في العالم وحدونه وأنه معلول لله تعالى ، وكان بمصر في القديم كما يقول صاعد الاندلسي علماء بضروب الفلسفة من العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية وخاصة علم الطلسمات والكيمياء والمراىي المحرقة ، وفي عهد الاستعمار الروماني القديم للشرق انتشرت الديانة المسيحية في زبوعه ، وكانت أنطاكية من أهم مراكز المسيحية ، وذاعت كذلك الثقافة والحضارة الرومانية ، وكذلك هاجت الخلافات الدينية بين فرق المسيحية ، وانتقل شرر هذا الخلاف إلى بلدان الشرق واستمر فيها لهيبه ؛ وكان من أسباب هذا الخلاف انقسام الكنيسة المسيحية بعد انقسام امبراطورية الرومان إلى دولتين شرقية وغربية ، فقد انقسمت الكنيسة كذلك إلى كنيسة شرقية وغربية ، واختلف رجال الدين المسيحي في فهم حقيقة المسيح : هل طبيعته لاهوتية أو ناسوتية ؟ أو أن الطبيعتين قد امتزجتا فيه ؟ وانقسموا من أجل ذلك إلى فرق عديدة ، منها : اليعاقبة الذين فروا من اضطهاد الدولة الرومانية الشرقية فهجروا اللاتينية وتكلموا السريانية والقبطية ، ومن هذه الفرق أيضاً النساطرة الذين حاربت مبادئ الكنيسة المسيحية بقرار من مؤتمر ديني عقد عام ٤٣١ م في مدينة أفسسوس بآسيا الصغرى ، فنزل كثير منهم في الإسكندرية واتخذوها مركزاً لنشر مذهبهم والدعوة

(١) ٥٨ الكندي .

(٢) الفهرست ص ٣٣٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٤ .

له . وكذلك أقام آخرون في الرها^(١) حيث جددوا في مدرستها مذهبهم ، وأخذوا ينشرون الدعاية له ، ولما رأى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية أن مدرسة الرها أصبحت مباءة للنساطرة أمر بإغلاقها سنة ٤٣٩ م أو سنة ٨٩٠ في رأى دى بور ، والفرقة الثالثة هي فرقة الملكانية التي وقفت وسطا بين رأى اليعاقبة ومذهب النساطرة ، فهم يميزون في المسيح بين الطبيعتين : الإلهية والبشرية .

هذا الخلاف الدينى أدى إلى قيام المدارس في الرها ونصيبين ، وإلى ترجمة كتب الفلسفة اليونانية للدفاع بها عن مذاهب المسيحية ، وكذلك قامت مدرسة حران التي تأثرت بالأفلاطونية الجديدة وبالمذهب الفيثاغورى الجديد ، كما قامت مدرسة جنديسابور ملثقي الثقافات اليونانية والفارسية والهندية والسريانية . ومن أشهر المدارس القديمة مدرسة الإسكندرية ، والإسكندرية مدينة قديمة أسسها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ق م ، واتخذها البطالسة بعده عاصمة لهم ، فبنوا فيها كثيرا من المدارس والمكتبات والآثار ، حيث صارت من أهم مراكز الحضارة الإغريقية في الشرق ، ولما أخذ الرومان مصر عام ٣٠ ق م من أيدي البطالسة ظلت الإسكندرية مستقر الحضارة وموئل الثقافة ومنازل الفنون ، كما أصبحت مجمع الطوائف المسيحية ومذاهب الفلسفة ، وامتزجت فيها الثقافة المصرية القديمة بالفلسفة الإغريقية ، ونبغ فيها كثير من الفلاسفة والعلماء والأدباء والفنانين ، وتجمعت الحركة الفكرية في دارى الفنون والكتب ، فاشتغل العلماء بتصحيح المؤلفات اليونانية القديمة وترجمتها ، وبالتأليف في كل فن ؛ فظهر فيهم إقليدس الرياضى ، وأفلوطين الفيلسوف مؤسس مذهب الأفلاطونية الحديثة^(٢) ، ويوحنا

(١) مدينة في الجزيرة أسس بها أساتذة مدرسة نصيبين - حين تسليم الروم هذه المدينة للفرس سنة ٣٦٢ م - مدرسة جديدة عام ٥٧٣ م سميت مدرسة الرها ، والمدينة كذلك مركزا للكنيسة التي يتكلم رجالها السريانية .

(٢) أفلوطين المصرى (٢٠٥ - ٢٦٩ م) . ولد في أسيوط وتعلم في الإسكندرية وسافر في حملة حربية إلى فارس كما سافر إلى روما ، وهو زعيم الأفلاطونية الحديثة التي اقتبسها من فلسفة اليونان ووزجها بصوفية الشرق حاملا على المذاهب المادية ، وقد كان أفلوطين صوفيا ذاق لذة الاتصال بالله والاستغراق في وحدانيته ، وساد هذا المذهب بعد وفاة أفلوطين في أنحاء الإمبراطورية الرومانية حتى عهد جستنيان

اللفوى ، وسواهم . ومن مدرسة الإسكندرية شعت أضواء الثقافة على بلاد الشرق ، وقد استمرت مدرسة الإسكندرية كذلك إلى أن اعتورها الهرم والشيخوخة لفساد الحكومة ، ولاضطهاد الرومانيين للفكر ، ولمنافسة مدارس عديدة لها في الشرق ، وللظلم السياسى والاضطهاد الدينى ، وكانت تعنى مدرسة الاسكندرية من بين ما تعنى به بالفلك والسحر والطلاسم .. ولما فتحت مصر عام ١٨٢٠م انصل المسلمون بعلومها وكتبها اتصالا وثيقا ، وقد ظلت مدرسة الإسكندرية محافظة على تعاليمها في ظلال حكم الإسلام ، وإن كان قد نالها شئ من الضعف . وفي ظلال هذه الحركات العقلية والخلافات الدينية انبثق نور الإسلام على الشرق ، وجمعه كله تحت لواء واحد وعقيدة واحدة وفكرة نبيلة تستمد قوتها من مثل الحياة العليا .

كانت مصر تعيش في ظلال ماضيها المادى الوثنى في نطاق محدود من التفكير العقلى ، فلما دانت بشريعة الإسلام اتسع أفق التفكير أمام أبنائها ، وقامت مدارس دينية وفكرية تدعو إلى التحرر والبحث والكشف عن أصول جديدة تكون أساسا للبناء العقلى المتحرر ، وكان من أثر ذلك نشأة طبقة من المجتهدين : كالليث بن سعد المتوفى عام ١٧٥هـ^(١) وسواه ، وقد نمت الحركة العلمية في القسطنطينية وكثرت الحلقات في مسجد عمرو الذى كان مركزا علميا لنشر الدين الإسلامى ، وكبرت هذه الحركة العلمية وازدهرت ، وأمَّ هذا المسجد كثير من العلماء الأعلام والأئمة المجتهدين ، ممن أفادوا العالم الإسلامى ، وأدوا له خدمة صادقة في ميادين الدين والشريعة واللغة والعلوم ، ومن أشهر هؤلاء : عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن طهية ، ثم الليث بن سعد ، وقد كان للامام محمد بن إدريس الشافعى بمسجد عمرو زاوية يدرس فيها مذهبه ، ويدون آراءه ، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الذين دونوا مذهبه ، ونشروا علمه : كالربيع بن سليمان ، والمازنى ، والبويطى ، وغيرهم . وكان أبو تمام يسقى الماء في جامع عمرو ، وفيه كانت دراسته الأولى .

(٥٢٧ - ٥٦٥ م) الذى أمر عام ٥٢٩ م بإغلاق المدارس الفلسفية في أثينا وباضطهاد رجالها واضطهدت معها الأفلاطونية الحديثة ؛ ولقد تأثر اليعاقبة بهذا المذهب فحاولوا التصوف والرهبة ومالوا الحياة الأديرة ، ويسمى الشهرستانى الأفلاطونية الحديثة مذهب الإسكندرانيين .

(١) ١٢٠ : ١ حسن المحاضرة .

وقد انتشر مذهب الشافعى فى مصر على أيدى الشافعى وتلاميذه ، ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكي الذى كان أول من أدخله إلى مصر عثمان بن الحكم الجذامى^(١) كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفى فيها على يدى القاضى إسماعيل ابن سميع الكندى^(٢) الذى ولاه العباسيون قضاء مصر عام ١٦٤ هـ فعمل على نشر مذهب أبى حنيفة فيها ، وكرهه المصريون لذلك كرها شديدا . ويذكر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة كثيرا ممن كانوا بمصر من حفاظ الحديث ونقاده ، ومن المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفاظ ، كما يذكر من كان بها من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، أما الحنابلة فكانوا قلائيا فيها ، ولم يسمع السيوطى كما يقول بخبرهم إلا فى القرن السابع وما بعده^(٣) ، كما يذكر من كان بها من أئمة القراءات ومن الصلحاء والزهاد والصوفية وأئمة النحو واللغة^(٤) وأرباب المعقولات وعلوم الأوائل والحكام والأطباء والمنجمين^(٥) ، وقد ظل التدريس فى الجامع العتيق مدة طويلة . خضعت مصر - أول ما خضعت للحكم الإسلامى - للخلفاء الراشدين ، ثم لدولة بنى أمية ، ثم لدولة بنى العباس ، وكان كل خليفة يختار لها من يثق به ويأمنه على مصالح البلاد والعباد .

العرب حماة الثقافة :

فى ظلال الفتح الإسلامى استمرت مدرسة الإسكندرية تؤدى مهمتها وتحافظ على تعاليمها ، ويفيد منها العرب ، ويتصلون بعلمائها ، ويستعينون بهم . . . ولم يحاول أمراء مصر وولايتهم إغلاق هذه المدرسة بحال من الأحوال ؛ وإن كانت المدرسة قد أصيبت بضعف ، وأخذت مكانتها العلمية فى الانهيار ، كما سارت الآداب القبطية والإغريقية إلى الاضمحلال .

وقد حاول بعض المؤرخين أن ينسب إلى عمرو بن العاص إحراق مكتبة الإسكندرية القديمة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكن المحققين من الباحثين من عرب ومستشرقين ؛ وفى مقدمتهم بتر نفوا ذلك نفيا قاطعا ، وكذلك ذهب إلى نفي هذه الحرافة جيرون وغوستاف لوبون ، وتاريخ العرب الفكرى والثقافى

(١) ١٩٠ : ١ حسن المحاضرة .

(٢) ١٩٦ : المرجع . (٣) ٢٠٥ : المرجع .

(٤) ٢٢٨ : المرجع . (٥) ٢٣٢ : المرجع .

ينبى عنهم ذلك ، فقد كانوا منذ نشأ الإسلام حماة الثقافة ورسلى العلم ورواد المعرفة والمشجعين على البحث العلمى فى كل مكان حلوا فيه .

ولقد كان للإسكندرية تاريخ مجيد يتصل بالفنون والأدب والعقل البشرى من عدة نواح . ذلك أنه عندما قام البطالسة ملوكا على مصر بعد وفاة الإسكندر وجعلوا الإسكندرية قاعدة ملكهم أخذوا فى تشجيع العلم والأدب . وكان لأولهم ومؤسس دولتهم أكبر الفضل وأجل الأثر فى ذلك . فإنه بعد أن توطدت أركان عرشه فى مصر وتفرغ لسياسة الدولة وتمكين رعاياه من اجتناء ثمار السلم بعد الحروب الطويلة التى قام بها عقب وفاة الإسكندر المقدونى ، شاء أن يجعل من الإسكندرية مدينة تطاول فى الثمالة القائمة فيها أئتنا عاصمة الفلسفة والأدب والفنون . فحصد العلوم والمعارف ، وأكرم الذين كانوا يشتغلون فى ترقيتها وابتنى دور العلم وأجرى عليها الأرزاق . وتابعه خلفه فى ذلك وهو بطليموس (فيلادلف) أى المحب لإخوته ، وهو لقب أطلق عليه تهما لأنه كان يبغض إخوته وسائر أعضاء أسرته .

وقد شاعت العلوم والفنون فى مدينة الإسكندرية وقصدها العلماء والشعراء والفلاسفة من بلاد اليونان وأصبح للإسكندريين مذهب خاص فى الفن والفلسفة والشعر عرف بهم . وقد قام هذا المذهب على أنقاض المذاهب اليونانية ، وكان ينقصه ميزتا الإبداع والخلق اللتان كانتا لاصقتين بالتفكير اليونانى ، فاقتصر فن النحت على الزخرفة والهرجة ، واقتصر الشعر على اللفظ وأنواع البديع ، واقتصر الأدب على أبحاث اللغة والنحو ، وأصبحت الفلسفة جدلا عتيا ، ويسمون هذا المذهب (الأفلاطونية الجديدة) . قال المؤرخ جييون : « هم أهل فكر وعمل - يريد رجال الأفلاطونية الجديدة - ، غير أنهم زادوا الأمور تعقيدا ؛ لأنهم لم يفقهوا أمرا فى الفلسفة . فلقد أقلعوا عن درس علوم الأخلاق والطبيعة والرياضة ، وراحوا يبحثون فى التفاصيل الجدلية فيما وراء الطبيعة » .

ومهما تكن قيمة هذا الطور من ناحية التفكير فقد كان ظاهرة جديدة بالاهتمام من ظواهر الذكاء والعقل المصرى . ومهما تكن قيمة رجاله فلا ينكر مفكر أنه قام فهم أعلام كبار ، كان لهم الأثر البعيد فى تطور الشعر والفلسفة وبعض أنواع العلوم : كالجغرافيا والفلك ؛ وما ساعد على نمو العلم والفلسفة ونشر الثقافة العامة والخاصة قيام دور العلم ومعاهده ، وإنشاء المكتبات التى جمعت وحوت أنفس نتاج الفكر البشرى . ومن هذه المكتبات (مكتبة الإسكندرية) التى كان لها شأن

يذكر في التاريخ :

ليست مكتبة الإسكندرية أقدم المكتبات المعروفة في التاريخ القديم . فقد روى بعضهم أن الفراعنة من قبل ذلك أنشأوا دوراً للكتب ، كما أن الباحثين كشفوا بمدينة نينوى داراً للكتب كانت جامعة منظمة . فمكتبة الإسكندرية وإن لم تكن أقدم دور الكتب كانت ولا شك أعظمها ثروة وأدقها نظاماً ؛ وروى بعضهم أن بطليموس الأول المسمى (ديمتريوس) هو الذي أسسها وجمع فيها ما تقي ألف كتاب ؛ على أن هذه الرواية تحتاج إلى براهين تدعها . وقال آخرون إن بطليموس الثاني د فيلادلف ، اتباع مجموعة كتب أرسطو وكانت ذات قيمة تضم ما أتبع للفيلسوف الكبير جمعه من كتب العلم والفلسفة والفنون . وقيل أيضاً إن (تيوفرست) حفظ هذه المجموعة ، ثم أهداها ابنه (نيله) إلى ملك مصر ، وأنه عند وفاة هذا الملك كان يوجد في مكتبة (بروكيوم) ٤٠٠.٠٠٠ كتاب وفي مكتبة (سيرابيوم) ٤٢٨٠٠ كتاب . وهي أرقام مبالغ فيها ، وكانت في الإسكندرية أيامئذ مكتبتان ؛ إحداهما المعروفة بمكتبة (بروكيوم) وهي الأصل والثانية المعروفة بمكتبة (سيرابيوم) وهي الفرع ، وكانت الأولى توجد في المتحف الذي أسس بجوار قصر الملك ، وكان هذا القصر قائماً وقتئذ في مكان يقرب من محطة الرمل اليوم . وقد أنشئت هذه المكتبة لخدمة العلماء الذين كانوا في المتحف ؛ ذلك لأن هذا المتحف كان أشبه بمجمع علمي يسكن داره الرحبة جماعة من العلماء والفلاسفة والأدباء الذين وقفوا حياتهم على البحث والتدقيق ؛ ولما ضاقت هذه المكتبة بما فيها من جهة ، وتعددت فيها نسخ الكتاب الواحد من جهة أخرى ، أنشأوا مكتبة ثانية كانت فرعاً للأولى في (السيرابيوم) وهو هيكل شيد لعبادة الإله المصري (سيرابيس) ، وكان هذا الهيكل قائماً في الجنوب الغربي من المدينة على التل الذي يقوم عليه اليوم عمود السوراري .

وبعد وفاة بطليموس (فيلادلف) سلك خلفاؤه على نهجه في العناية بجميع الكتب . وقد ذكر بعض المؤرخين أن البطالسة لم يتورعوا عن استعمال شتى الأساليب المحرمة للوصول إلى غايتهم وزيادة ثروة مكتبتهم العلمية ؛ من ذلك أن بطليموس الثالث الملقب « أفرجيت » أي المحسن أمر بأن على كل من يأتي الإسكندرية من العلماء أن يقدم كتبه إلى المكتبة فيحتفظ بالأصل فيها ويعطى له نسخة منها على ورق بردي عادي . ومن ذلك أنه طلب إلى مدينة أثينا القصص التمثيلية التي ألفها

(سوفوكليس) و (أوريديس) و (أسكيلوس) لكي ينسخها ويعيدها إليها . واستودعها خمسة عشر مثقالا من الفضة تأميناً عليها . ولما صارت هذه القصص لديه احتفظ بالأصل وأرجع إلى الاثنين نسخاً منها ، راعياً إياهم بالاحتفاظ بالمال الذين استودعهم تأميناً عليها . ورأى ملك آخر من البطالسة أن ملك (برغامه) يزاحمه في اقتناء الكتب ونسخها ، فأصدر أمره بمنع تصدير ورق البردى إليه ، فاضطر تجار تلك المملكة إلى اختراع ورق آخر هو المعروف اليوم بورق الرق ؛ على أن البطالسة لم يكتفوا باقتناء الكتب اليونانية بل إنهم عنوا كذلك بنقل كتب اللغات الأخرى إلى اليونانية ، وأشهر هذه المترجمات نقل التوراة من اللغة العبرية إلى اليونانية بأمر بطليموس فيلادلف . وحكاية هذه الترجمة مشهورة تلخص في اتفاق اثنين وسبعين من العلماء في ترجماتهم المختلفة التي قاموا بها في وقت واحد كل بمفرده . وقد وصف (رينان) هذه القصة بأنها (حكاية حمقاء) ويرجع بعضهم نقل التوراة إلى اليونانية إلى ما بعد عهد هذا الملك . وبما زاد في ثروة مكتبة الإسكندرية أن الفاتح الروماني (مارك أنطونيوس) عندما انتصر على (برغامه) انتزع منها مكتبتها الكبيرة التي كانت تحوى مائتي ألف كتاب وأهداها إلى الملكة المصرية كليوباترا صديقته ، وهكذا أصبحت مكتبة الاسكندرية من أشهر مكتبات العالم بفضل عناية البطالسة والعلماء الذين تولوا إدارتها . وقد حفظ التاريخ أسماء الثلاثة الأولين منهم ، وهم : (زينودوتوس) و (كاليماكوس) و (برانوثينوس) على أن هذه المكتبة الشهيرة لم تحفظ دائماً بمثل هذا التعمد فقد أصيبت بشكبات عديدة ؛ وأول هذه الشكبات ما يروى من أن (يوليوس قيصر) عندما جاء الإسكندرية فاتحاً واستقر فيها بين أبهة الملك وأسر هوى كليوباترا ، ثار به الإسكندريون مرة وحاصروه في (بروكيوم) يخاف أن يستولى الثائرون على مراكبه البحرية فيستعملونها في محاربته فأمر بإحراقها . ويقال إن اللهب اتصل بالمكتبة فأحرق أربعاًة ألف كتاب ، وهذه الشكبة مشكوك فيها كثيراً لأن أول ماورد ذكرها كان في كتب الخطابة ، وأما المؤرخون المعاصرون فلم يذكروها . كذلك لا نجد لها أثراً في خطابات شيشرون وكتبه وهو الأديب الكبير المحب للتأليف والولوع باقتناء أشهر المصنفات ، وكذلك لا نجد لهذا الخبر أثراً في مذكرات قيصر ، فلو كانت الشكبة فادحة كما قيل لعرض لها في هذه المذكرات التي كتبها وحاول أن يبرئ نفسه من تبعاتها ، وقد ذكر قيصر أن الإسكندرية كانت في شكل بنائها

وطريقته غير قابلة لسريان النار فيها . وبعد ، فلعل النار لم تصب غير خزائن كتب مهملة لا قيمة لها كانت على شاطئ البحر . على أن الدمار أخذ يلحق بهذه المكتبة ويفعل فيها فعله الرائع بعد أن استتب الأمر للرومان في مصر وخاصة في أواخر القرن الثاني للمسيح وما بعده . فليس مستبعدا على روما أن تغتصب من هذه المكتبة أثمن كتبها ؛ كما أنه من الصعب أن نقول إن المكتبة لم تصب بأذى في عهد اضطهادات (كركلا) الفظيعة ، وفي عام ٣٢٧ هـ أمر الإمبراطور (أورليانوس) بهدم (براكسيوم) فهدم علماء المتحف إلى هيكل (سيرايوم) واعتصموا فيه ، فكان آخر موئل للعلم في الإسكندرية ونزح بعضهم إلى القسطنطينية . وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن مكتبة (براكسيوم) وهي الأصل قد هدمت في القرن الثالث . وكان انتشار المسيحية ضربة قاضية على مكتبة الإسكندرية . ففي عام ٣٩١ استصدر البطريرك (تيوفيل) أمر أمن الإمبراطور بأن يقضى على عبادة الأوثان في الإسكندرية قضاء مبرما لتقوم النصرانية مقامها . فوجه حملة خاصة إلى (سيرايوم) لأن هذا الهيكل كان آخر موئل لعبادة الأصنام فاستولى عليه وأحرقه وحطم صنم (سيرايس) الذي كان منصوبا فيه . على أن مباني الهيكل لم تهدم جميعها ، فصار عسيرا أن نصدق أنه كان بالإسكندرية مكتبة كبيرة بعد أواخر القرن الرابع . ويقول الأستاذ برتشيا إن ما قاله (اوروز) عام ١٦٤ من أنه رأى خزائن كتب الهيكل فارغة من الكتب يدل - مهما اختلفوا في تفسير هذا القول - على أنه لم يكن في الإسكندرية وقتئذ مكتبة عامة هامة . وليس معنى هذا أن الإسكندرية خلت بعد ذلك من الكتب ، لأن من المحتمل أنه كان فيها مكاتب خاصة عديدة عند بعض ذوى المكانة والثراء أو في الأديرة أو في مدارس اللاهوتيين والفلاسفة ، وقد ظلت هذه المدارس عامرة زاهية إلى أواخر القرن الخامس .

فتح المسلمون الإسكندرية عام ٦٤٠ م - ٦٤٠ هـ - في عهد عمر بن الخطاب ، ففتحها عمرو ابن العاص بعد قتال وممانعة بعد فتح مصر ، ويقول ابن العبري بل إنه فتح مصر عنوة وفتح الإسكندرية صلحا . والإشاعة المتداولة هي أن ابن العاص بعد فتح الإسكندرية رغب إليه (يوحنا القرامطيق) أن يعطيه كتب الفلاسفة التي بدار الكتب ، فقال عمرو إلى إجابة رغبته ثم خشى أن لا يأذن له أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فحرر له يخبره بهذا الطلب ، فكتب إليه أمير المؤمنين : وإن كانت تحتوى هذه الكتب ما في القرآن فليس لنا حاجة بها وإلا فلا فائدة لنا فيها . وعلى كلا

الحالين يذبحى حرقها . فأعطيت هذه الكتب لحمامات الإسكندرية فاستعملت في وقودها أشهراً متوالية .

ونجد المؤرخين الحديثين على اختلاف في تصديق هذه الرواية وفيها . ويزعم بعضهم أن أول من روى هذا الحادث المؤلم أبو الفرج الملقب المعروف بابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) وهو من رجال القرن السابع للهجرة . ويشكر بعض الباحثين رواية أبي الفرج لأنه نصراني ، وأنه أراد منها النيل من الإسلام ، وأن أبا الفرج من والدي يهودى واعتنق النصرانية ، فشب ابنه على هذه الديانة ودخل الكهنوت ورقى في مدارجه حتى صار أسقفاً ، ويقولون كذلك إن الرواية مدسوسة عليه لأن التاريخ الذى وضعه باللغة السريانية - وتاريخه العربى ترجمة له ، قام بها المؤلف بعد حين من كتابة تاريخه بالسريانية - إن هذا التاريخ خلو من ذكر حادثة حريق المكتبة ويقول محمد مسعود في كتابه « المنحة الدهرية في تخطيط مدينة الإسكندرية » : إنه يظهر أن كتاب عمر بن الخطاب لم يرسل إلى عمرو بن العاص بل أرسل إلى سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنه لما فتحت أرض فارس ووجدت فيها كتب كثيرة كتب هذا القائد إلى عمر بن الخطاب ليستأذن في شأنها وتقليها للسليين ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه أن اطرحوها في الماء فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن كان ضللاً فقد كفانا الله ، فطرحوها في الماء والنار ، ويرد الذين يؤيدون خبر حريق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر بن الخطاب بأن أبا الفرج الملقب ليس أول من ذكر خبر حريقها وأنه تقدمه مؤرخون مسلمون ذكروا ذلك .

وأول من ذكر خبر حريق مكتبة الإسكندرية الرحالة عبد اللطيف البغدادي في « كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » أو كتاب « الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار » كما ورد في كتب أخرى . وقد زار البغدادي مصر في أواخر القرن السادس وتوفي عام ٦٢٩ للهجرة ، وقد ذكر في كتابه ما شاهده في مصر من الآثار ، وألم بالكثير من أحوالها الاجتماعية ، وهذا ما قاله في صدد المكتبة : ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور . ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها . وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده . وأنه دار العلم ، بناها الإسكندر حين بنى مدينته . وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو

ابن العاص يأذن عمر رضى الله عنه . ويأتى بعد عبد الطيف البغدادي القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي المتوفى عام ٦٤٢ للهجرة ، وقد ولد بمدينة قفط بصعيد مصر ، وتفق في العلم وقام ببيت المقدس ثم جاء حلب وتولى القضاء فيها على عهد الملك الظاهر وكان صدراً محتشياً جمع من الكتب مالا يوصف ، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار . ولم يكن يحب من الدنيا سواها . وله حكايات غريبة في غرامه بالمكتبة ، ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته للناصر صاحب حلب . ومن أهم مؤلفات القفطي كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) وهو معجم تاريخي للفلاسفة والأطباء والعلماء الطبيعيين وأصحاب الرياضيات واللغة من العرب وغيرهم ، مرتب على الحروف الأبجدية ، وقد روى في ترجمة يحيى النحوى وهو يوحنا الغراماطيق الذي ذكرناه وبعض الأفرنج يسميه (يوحنا فيلوبونوس) قال : وعاش يحيى النحوى إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده بما جرى له مع الإنصارى ، فأكرمه عمرو ورأى له موضعاً وسمع كلامه في إبطال التثايت فأعجبه ، وسمع كلامه أيضاً في انقضاء الدهر فتن به . وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية ، التي لم يكن للعرب بها أنسة ما هاله . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلأزمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوماً : إنك قد أحطت بمجواصل الإسكندرية وختمت كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به فأمر بالإفراج عنه ، فقال له عمرو : وما الذي تحتاج إليه ؟ قال : (كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الخوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها) فقال له (ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟) فقال له يحيى : (إن بطولو مادم فيلادلس من ملوك الإسكندرية لما ملك حجب إليه العلم والعلماء ، وخص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولى أمرها رجلاً يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمباغة في أثمانها وترغيب تجارها ففعل ، واجتمع من ذلك في مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزمية أترى بقى في الأرض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقى في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل

وعند الروم . فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على النحصيل ، فلم يزل على ذلك إلى أن مات . وهذه المكتبة لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا ؛ فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لا يمكننى أن أمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » ، وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذى ذكر واستأذنه ما الذى يصنعه فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله فى كتاب الله عنها غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة إلينا فتقدم بإعدامها » ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حامات الإسكندرية وأحرقها فى مواقعها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذوا نسبها فذكروا أنها استنفدت فى ستة أشهر ، فسمع ما جرى وأعجب . . فعيد اللطيف البغدادى والقفطى لإذن رويأخبر حريق مكتبة الإسكندرية قبل أبى الفرج الملقب ، وقد اختصر الأول وأسبب الثانى وكانا متعاصرين ، وجاء بعدهما أبو الفرج المتوفى عام ٦٨٤ للهجرة فإذا روايته لا تختلف كثيراً عن رواية القفطى بل لعله نقلها عنه ، ولا عجب فقد عاش كلاهما فى إقليم واحد . وفى رواية أبى الفرج مواضع منقولة بالحرف عن القفطى وقد ذكر فى تاريخه أنه كان فى عهد الفتح الإسلامى بالإسكندرية شخص « اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف عندنا بفراماطيقوس أى النحوى . وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى يعقوبية ويشيد عقيدة ساورى ثم رجع عما يعتقد فى الثلاث » إلى أن قال : « وعاش يحيى الفرماطيقى إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به ، وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ، ثم قال له يحيى يوماً : « إنك قد أحطت بمحو اصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا تعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به » ، فقال له عمرو : « وما الذى تحتاج إليه ؟ » قال : « كتب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية » فقال له عمرو : « هذا لا يمكننى أن أمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » ، فكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله فى كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها » . فشرع

عمرو بن العاص في تفريقها على حمائم الإسكندرية وإحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب . هذه هي النصوص التاريخية الأولى التي ورد فيها ذكر حريق مكتبة الإسكندرية . والغريب في أمرها أن كل مؤرخ من هؤلاء الثلاثة يذكرها بطريقة تقريرية لا تدع شكاً في ذهن القارئ . ولكن لا نعلم عن أى المصادر أخذ عبد اللطيف البغدادي وابن الفقي وكلاهما من رجال القرن السادس للهجرة ؟ فهذا ما نجهله ، لأن مؤرخي الفتوحات الإسلامية وهم عديدون لم يذكروا شيئاً من هذا القبيل . أتراهما نقلها عن إشاعة كانت متداولة في مصر أيامئذ ؟ يقول جرجي زيدان : « والغالب أن المؤرخين ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفة فهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ؛ أو لعل لذلك سبباً آخر .

فلم يكن في عهد فتح الإسكندرية مكتبة عامة كبيرة فيها من الكتب ما يكفي مواقد حمائم المدينة ستة شهور كاملة ، أضف إلى هذا أن بعض مؤرخي الإفرنج يقرر أن (يوحنا فليوبونوس) أو (يحيى النحوى) توفي قبل أن يفتح العرب الإسكندرية . وهذا الرأي يضعف رواية القفطي وأبي الفرج ، ويجعل بعض المؤرخين أمثال (بتلر) الإنجليزي يعتقدون أن رواية أبي الفرج خرافة خالية تماماً من أى أساس تاريخي ، على أن هذه الرواية لا تزال متداولة ، وقد يزعم البعض أنه ربما أعيد في الإسكندرية جمع المكتبة بعد أن دمرها البطريق تيوفيل ؛ وهذا على بعده عن المعقول قد يكون جائزاً . لذلك نضطر إلى القول إن مسألة حرق مكتبة الإسكندرية على ما يتبين من بعدها عن الحقيقة واضطراب الدلائل على صحتها بل قيام الدلائل جميعها على نفيها — إن هذه المسألة لا تزال قائمة تدخل بعض الشك إلى النفوس حتى تكتشف نصوص ووثائق تدل على نفيها أو إثباتها سواء كانت هذه النصوص خاصة بإعادة تأليف المكتبة بعد حرقها في القرن الثالث للمسيح ، أو خاصة بالفتح العربي واردة على لسان مؤرخي هذا الفتح الذين شهدوه أو كتبوا تاريخه بعد ذلك بقليل .

اللغة العربية وآدابها في مصر

بعد الفتح الإسلامي

اللغة العربية لغة الشعب العربي في مصر :

صباح الفتح الإسلامي مصر بصيغة عربية ظاهرة ، ازدادت على مر الأيام ظهوراً بكثرة هجرة العرب إليها ، وبإقبال أهل مصر على تعلم اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، وبإسلام الكثير منهم ، وإقبالهم على القرآن الكريم حفظاً ودراسة وتفهماً . ولقد كانت اللغة اليونانية في مصر أيام البطالسة هي السائدة بين دور الدراسة والعلم ، وإن كان الشعب المصري وخاصة في الجنوب ينفر منها ويحاربها ، وكان الولاة الرومانيون يتخذون اللغة اليونانية لغة رسمية لهم ، ولكن اللغة المصرية حافظت على منزلتها بين طبقات الشعب ، وبذلك كان هناك في العصر الروماني لغتان : لغة الشعب وهي اللغة المصرية ، ولغة الفاتحين الحاكمين وهي اللغة اليونانية . وإبان الحركات الوطنية في مصر كانت كراهية المصريين لكل ما هو أجنبي عنهم في ازدياد ، ومن ثم منع المصريون اللغة اليونانية من الأديرة والكنائس واستبدلوها باللغة القبطية^(١) .

وكانت اللغة المستعملة في دواوين مصر هي اليونانية كما ذكرنا ، أو القبطية كما ذكر الكندي^(٢) وسواه ، وفي عهد والي مصر الأمير عبد الله بن عبد الملك بن مروان حولت الدواوين إلى العربية ، وكان ذلك سنة ٨٧ هـ ، وبذلك أصبحت العربية هي لغة الدواوين الرسمية في مصر .

ومن ثم أخذ المصريون يتعلمون اللغة العربية ، وروى أن القسيس بنيامين قد تعلم اللغة العربية وأتقنها ، وشرح بها الإنجيل ، وكان العرب يخرجون من رباطهم في الربيع ويتصلون بالمصريين في الريف ، مما كان من أسباب انتشار اللغة

(١) ٢ : ٨٨ تاريخ الأمة القبطية .

(٢) ٥٨ ولادة مصر للكندي .

العربية وذيوعها ، وقد كتب القديس شنودة مؤلفاته بالقبطية ، ثم كتبها بالعربية حتى يتسنى للأقباط أن يقرأوها ، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية صارت تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية^(١) ، وبعد القرن العاشر الميلادي كانت كتب الأقباط الدينية تكتب باللغة العربية ، وإن كانت اللغة القبطية ظلت معروفة إلى عهد المقرئى . وروى أن البطريق يوسف حينما حوكم عام ٨٥٠ م خاطب الجمهور باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب وفهم العرب منه كلامه .

ومهما كان فإن العربية أصبحت هى لغة الشعب والدولة ، وانزوت اللغة القبطية فأصبحت لا تستعمل إلا على ألسنة عدد قليل من الأقباط في الأديرة والكنائس ودور العبادة ، وقد زار الخليفة المأمون مصر عام ٢١٦ هـ وطاف بقراها ، وحدث الشعب المصرى في كل مكان .

انتشار الثقافة العربية في مصر :

وقد شجع ولاية مصر العلماء على نشر الثقافة العربية في كل مكان من أرض مصر ، وأنشئت المساجد ، وأصبحت حلقاتها دوراً للثقافة يتصدرها العلماء المسلمون لينشروا بين الشعب مبادئ الإسلام وأحكامه وشرائعه ، وكانت القسطنطينية مركزاً للثقافة العربية الإسلامية ، وخاصة في حلقات مسجدها الجامع ومسجد عمرو بن العاص ، ثم أسست حلوان وصارت مقر الولاية ، وقصدها الأدباء والشعراء من كل فج .

ومن علماء مصر في هذه الفترة الخافضة من تاريخها : أبو عبيدة بن مخرم المغافرى وقد أخذ عنه علم القراءات ورش عثمان بن سعيد المصرى (١١٠ — ١٩٧ هـ) ، ونافع المتوفى عام ١٢٠ هـ وقد بعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن^(٢) وعبد الله بن عمرو بن العاص (٣٦ق هـ — ٧٧ هـ) ، وعبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب الجامع في الحديث (١٢٤ — ٢٠٠ هـ) ، والليث بن سعد بن عبد الرحمن القهينى المصرى (٩٤ — ١٧٥ هـ) وهو أحد المجتهدين الأعلام وصاحب

(١) ص ٣١ في الأدب المصرى — محمد كامل حسين .

(٢) ١ : ١١٩ حسن المحاضرة .

مذهب من المذاهب المشهورة^(١) ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن هبة الحضرمي الغافقي (٩٦ إلى نحو ١٦٠ هـ) ، وقد زار مصر الإمام الشافعي عام ١٩٥ هـ وسنه خمس وأربعون سنة وأقام بها إلى أن مات عام ٢٠٤ هـ^(٢) . ومن علماء مصر كذلك البويطي أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشي وهو تلميذ الشافعي وخليفته في حلقة وحل إلى بغداد وسجن بها في فتنة خلق القرآن ، ومات فيها في السجن عام ٢٣١ هـ^(٣) ، وسعيد بن كثير المصري قاضي الديار المصرية ، روى عن مالك والليث ، وكان فقيهاً نسبة أخبارياً شاعراً كثير الإطلاع (١٤٦ - ٢٢٦ هـ) ، ويونس بن عبد الأعلى الإمام الفقيه المحدث المقرئ تلميذ الشافعي وورش (١٧٠ - ٢٦٤ هـ^(٤)) والطحاوي المحدث وقد انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر (٢٣٩ - ٣٢١ هـ) ، وذو النون المصري^(٥) الفقيه الزاهد وقد توفي عام ٢٤٥ هـ - ٨٥٠ م . ويقول ذو النون - وهو ثوبان بن إبراهيم المصري الأخيبي المتوفى عام ٢٤٥ هـ وهو مولى نوبن - في التصوف الإلهي :

أموت وما مانت إليك صبايتي
ولا قضيت من صدق حبك أوطاري
منأى المنى كل المنى أنت لى منى
وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبى
وموضع شكواى ومكنون إضمارى
تحمل قلبي فيك مالا أبته
وإن طال سقمى فيك أو طال إضرارى
وبين ضلوعى منك لومك قد بدا
ولم يبد بادية لأهلى ولا جارى
وبى منك فى الأحشاء داء مخامر

(١) ١٢٠ ج ١ المرجع .

(٢) ١٢١ : ١ : المرجع .

(٣) ١٢٣ : ١ : المرجع .

(٤) ٤١٨ : ٢ : ابن خلكان .

(٥) الشعرائى ١ ج ٧٧ - ٧٩ .

فقد هد منى الركن وانبت أسرارى
ألست دليل الركب إن هم تحيروا
ومنفذ من أشقى على جرف هار
أنرت الهدى للبهتدين ولم يكن
من النور فى أيديهم عشر معشار
أنلنى بعفو منك أحيسا بقربه

وغثنى بيسر منك يطرد إعسارى
ومن العلماء كذلك إسحاق بن الفرات تلميذ الليث بن سعد وتوفى عام ٢٠٤ هـ ،
وقال عنه الشافعى : مارأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس ، وكذلك اسحاق بن
بكر المتوفى عام ٢١٨ هـ ، وكان يجلس فى حلقة الليث ويفى بقوله .
وقد كان النزاع بين أتباع المذهب المالكي وأتباع المذهب الشافعى شديدا ،
وكانت السيادة من قبل لمذهب مالك ، فلما وفد الشافعى إلى مصر انتشر مذهبه ،
مناوئا المذهب المالكي فى السيطرة الروحية على الشعب ، وكان الجدل بين أصحاب
المذهبين شديدا ، وداعيا إلى تحرر العقل المصرى من إسار التقليد والجمود ، وكان
أول قاض شافعى ولى قضاء مصر أبو زرعة محمد بن عثمان الثقفى الذى تولى القضاء
عام ٢٨٤ هـ ، وكان أول قاض حنفى تولى قضاء مصر إسماعيل بن اليسع الكندى
وذلك سنة ١٦٤ هـ وقد كرهه المصريون كرها شديدا ، وطلب الليث بن سعد من
الخليفة عزله ، ومن قضاة مصر الأحناف بكار بن قتيبة (٢١٠ - ٢٧٠ هـ) وقد ولد
بالبصرة ومات بمصر .

ومن أشهر علماء مصر كذلك الوليد بن محمد التميمى النحوى المشهور بولاد ،
وقد ولد بالبصرة وتلمذ على الخليل ومات بمصر سنة ٢٦٣ هـ ، ومحمد بن ولاد
التميمى النحوى المتوفى سنة ٢٩٨ هـ عن خمسين عاما ، وأحمد بن جعفر الدينورى
النحوى المتوفى عام ٢٨٩ هـ ، وأبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل
النحوى المتوفى ٣٢٧ هـ

وكان علماء مصر يرحلون إلى الحجاز والعراق والشام فى طلب العلم ، كما كان علماء
العالم الإسلامى يقدون على مصر ويستمعون إلى محاضرات علمائها ، ومن قدم الى
مصر ابن هشام صاحب السيرة الذى توفى بمصر عام ٢١٨ هـ ، وكذلك أبو العباس
الناشئ الأكبر ، ومحمد بن موسى الواسطى اللغوى المفسر وقد توفى بمصر سنة ٣٢٢ هـ ،
ويرى صاحب معجم الأدباء أن المصريين ما كانوا يعرفون شيئا من شعر الطرماح

ابن حكيم حتى قدم ابن جرير الطبري مصر فسأله علي بن سراج المصري أن يملئ شعر الطرماح ففعل وأخذ يملئه ويفسر غريبه^(١) ومن العلوم التي ألف فيها علماء مصر في ذلك العصر التاريخ ، وساعد على ذلك وجود عدد من الإخباريين بمصر منهم : محمد بن اسحاق صاحب السيرة ، وعبد الملك بن هشام راويه ، ومحمد بن أبي الليث ، كما وفد عليها ابن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، وكذلك المسعودي ، وقد نبغ في التاريخ : ابن عبد الحكم المصري مؤلف كتاب فتوح مصر ، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (١٦٥ - ٢٥٦هـ) ، ووالده عبد الله بن عبد الحكم (١٥٥ - ٢١٤هـ) كان رئيساً للمالية بمصر ؛ ومن مؤرخي مصر الكندي وابن يونس وعمار بن وسيعه المصري المتوفي سنة ٢٨٩ هـ ، وابن الداية صاحب كتاب المسكافة .

الأدب العربي في مصر :

كما انتقل الغلباء إلى مصر ، منذ بدء الفتح الإسلامي ، حتى نشأ علماء إسلاميون مصريون في شتى ألوان الثقافة ، كذلك انتقل إليها شعراء من الجزيرة العربية ، ومن أوائهم أبو العيال الخفاجي الذي هاجر^(٢) هو وابن عمه بدر بن عامر إلى مصر في خلافة عمر وأقاما بها ، وكان أبو العيال شاعراً فصيحاً مقدماً ، أدرك الجاهلية والإسلام ، وعد من المخضرمين وعمر إلى خلافة معاوية وتوفي نحو عام ٤٦ هـ في مصر ، وسمى أبا العيال لقوله :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ومن الشعراء الذين هاجروا إلى مصر نصيب بن رباح الشاعر الأموي المشهور حيث قدم على عبد العزيز بن مروان وإلى مصر ومدحه في قصره في حلوان ، وكذلك أيمن بن خريم الذي مدح عبد العزيز بن مروان كذلك ، وجميل بن معمر العذري ، وكثير ، وابن قيس الرقيات ، وسواهم .

وهكذا انتقل الأدب العربي إلى مصر ، لأن الأدب ظل للعربي يلزمه أينما كان ، والعربي يصدق في كل مكان حل فيه شعرا موزونا ، أو نثراً مسجوعاً .

(١) ٦ : ٤٣٣ معجم الأدباء .

(٢) راجع ترجمته في الأغاني ص ١٦٦ - ١٦٨ : ٢٠ .

(م ٣ - أدب)

النثر الأدبي في ظل الولاة المسلمين

النثر قرين الشعر ، وهو وسيلة العربى إلى البيان والبلاغة ، وأداته في الحجاج والمفاخرة ، وحسبه عند الجدال والحجاج والمنافرة والمناظرة ، ومن ثم وجدنا النثر الأدبى أول ألوان الأدب في مصر ظهوراً فظهر في رسائل الولاة وبلاغاتهم ، وفي حجاج العرب ومفاخراتهم في مجالس الولاة ، وعلى ألسنة القصاص والمؤدين والبلاء والمؤلفين ، بل كان لبعض الولاة كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل^(١) ، وقد نبه شأن النثر وعرفت منزلته ، وشجع عليه الولاة والأشراف .

وأول نثر مأثور في هذا العهد البعيد هو رسالة عمرو^(٢) بن العاص التي بعث بها إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف فيها أرض مصر بعد الفتح وصفاً دقيقاً ، وجاء فيها : « ورد كتاب أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، يسألني عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، بدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمدد عيون الأرض ويتنايبها ، حتى إذا ما اصلختم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كائنهم في الخيال ورق الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته ، ونكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته ، وطأ في درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرقون بطون الأرض ، ويبيذرون بها الحب ، ويرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فثاله منهم بغير جدهم ، فإذا أصدق الزرع وأشرق سقاء الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر — يا أمير المؤمنين —

(١) ٣٦٨ : ٣ المقرئى .

(٢) ٣٢ : ١ النجوم الزاهرة .

لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقصاء ، فتبارك الله الخلاق لما يشاء . والذي يصلح هذه البلاد وينميتها ، ويقر قاطناتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل .

والرسالة بأسلوبها المسجوع وصنعتها الفنية المعقدة ، وبما تشمل عليه من خصائص بيانية ، قد تكون في رأى العقل أقرب إلى الوضع منها إلى الحقيقة .

وبعث عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر برسالة^(١) دافع فيها عن نفسه ونفى عنه الخيانة ، وجاء فيها : من عمرو بن العاص إلى عبد الله أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين ، يذكر فيه ما فشا لى ، وإنه يعرفنى قبل ذلك لا مال ، وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى بأرض السمر فيه رخيص ، وإنى أعالج من الحرقة والزراعة ما يعالج أهله . وفى رزق أمير المؤمنين سعة ، والله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك ، ولعمري إن عندك من تدم معيشته ولا تدم له ، فأنى كان ذلك ؟ ولم يفتح قفلك ، ولم تشركك في عملك . ولا شك أن رسائل عمرو هذه كانت أول ما ظهر من صور الأدب العربى في مصر .

وهناك رسائل أخرى كثيرة تبودلت بين الخليفة عمر وواليه عمرو بن العاص لا داعى لذكرها في هذا المقام^(٢).

صور أدبية

كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : سلام عليك فإنى أحمد إليك الله

(١) ١ : ٢٦ العقد الفريد .

(٢) راجع ٦٤ : ١ حسن المحاضرة .

الذى لا إله إلا هو - أما بعد : فقد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إلى ببيان الطرف ، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتماك كتابي هذا فاحمل الخراج وإنما هو فيه المسلمين ، وعندى من تعلم قوم محصورون ، والسلام .

فكتب إليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فقد أتمانى كتاب أمير المؤمنين يستبطن فى الخراج ، ويزعم أنى أعند عن الحق ، وأنك عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم ، فنصير إلى ما لا غنى بهم عنه ، والسلام .

- ٢ -

ولما ولى على رضى الله عنه الأشتر النخعى مصر كتب إليه رسالة مطولة كانت دستوراً عظيماً للحكم ، وجاء من هذه الرسالة :

وتفقد أمرا الخراج بما يصلح أهله فإن فى إصلاحه وصلاحتهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلاً .. وهى رسالة طويلة ، وقد قتل الأشتر قبل وصوله إلى مصر . وتعد من النثر الإسلامى ، وإن كانت لا صلة لها بالنثر فى مصر .

- ٣ -

ولما ولى المأمون عبد الله بن طاهر ولاية مصر ذهب إليها فضرب على أيدي الخوارج فيها ، وربطها بالخلافة ربطاً محكماً ؛ وكان نحو الخمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة جلوا عن الأندلس بعد وقعة الرض فى سنة ٢٠٢ هـ ، فانتهاوا إلى الإسكندرية فلكوها مدة ، فصالحهم عبد الله بن طاهر والى مصر على التخلي عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول حيث شاءوا من جزائر البحر ، فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومى .

وكان عبد الله بن طاهر كما قال عنه أحمد بن يوسف موفقا في الشدة واللين في مواضعهما . ولا يعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأضعفه عفوّه ، ولقل ما رأينا ابن شرف لمن يلقي بيده متكلا على ما قدمت له أبوته : قال يونس بن عبد الأعلى : أقبل علينا (في مصر) فتي حدث من الشرق - يعني عبد الله بن طاهر - والدنيا عنه مفتونة ، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والناس في بلاء ، فأصلح الدنيا ، وأمن البرىء ، وأخاف السقيم ، واستوثقت له الرعية بالطاعة . وقال المأمون لبعض جلسائه : من أنبل ما تعلمون نبلا وأعفهم عفا ؟ فقالوا بما فتح الله عليهم ، وبعضهم مدحه وقرظه ، فقال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر ، دخل مصر وهي كالعروس الكاملة ، فيها خراجها ، وبها أموالها حجة ، ثم خرج عنها ، فلو شاء الله أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكاتب إلى أنه عرضت عليه أموال لو عرضت على أو بعضها لشرهت إليها نفسي ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التي قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس ، فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى في الإسلام ، فالحمد لله الذي جعله غرس يدي ، وخريج نعمتي .

ولما زار المأمون مصر ومرّ بقرية طاء النمل ، أو طنامل كما تسمى الآن وهي من أعمال مركز أجا من مديرية الدقهلية ، خرجت إليه صاحبة القرية وهي امرأة قبطية ، وسألته أن يقلق قراها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الأعداء ، وبكت بكاء كثيرا ، فنزل عليها بحيشه ورجاله ، وكانت ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه ، وفي الصباح بعثت إلى المأمون بعشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، وفي كل طبق كيس من ذهب ، فاستحسن ذلك وأمر بإعادته ، فقالت : لا والله لا أفعل ، يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا ، فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا تحب التثقيب عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض ، وقالت : يا أمير المؤمنين هذا - وأشارت إلى الذهب - من هذا - وأشارت إلى الطينة التي تناواتها من الأرض - ثم من عدلك يا أمير المؤمنين . فهل كانت القبطية هذه تتحدث مع الخليفة بالعربية ؟ هذا هو الظاهر من الرواية .

ومهما كان فإن النثر الأدبي لم يتضح إلا بعد عصر الولاة الإسلاميين ، ففي عهد الخلفاء الراشدين وعصر الولاة الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن كشأن عاصمة الخلافة ، وكان الشعراء والكتاب الذين يبين نبوغهم يذهبون إلى دار الخلافة أو يحملون إليها ، ولم تكن سوق الأدب قد راجت رواجاً كبيراً إلا بان ذلك العهد ، لأن الاهتمام كان موجهاً إلى الدراسات الدينية الخالصة ، دون الدراسات الأدبية من النثر والشعر^(١) .

(١) راجع ص ١١٦ في الأدب المصري - محمد كامل حسين .

الشعر والشعراء في عصر الولاة

- ١ -

انتقل الشعر العربي مع العرب الفاتحين ، وغرد الشعراء في غياض مصر ورياضها ، وعلى شواطئ نيلها ، بالألحان العذاب ، والقصائد البليغة ، والمونق الجيد من النظم .

وقد رأينا أبا العيال الشاعر ينتقل إلى مصر في عهد عمرو وينظم بها القصائد ويقيم فيها إلى أن أدركته الوفاة .

ولآبى المصعب البلوى قصيدة هجا بها أشراف مصر ، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وكان يستنشد^(١)ها ، وقد هجا فيها عرب مصر بأنهم ليس لهم شرف ولا مجد .

وقد مدح عابد بن هشام الأزدي والى مصر مسعدة بن مخلد عام ٥٣ هـ بقصيدة طويلة^(٢) ، وكان بعض الولاة يحب الشعر ويرويه ، أو ينظمه ، وكان عقبة ابن عامر والى مصر شاعراً^(٣) .

وكان عبد العزيز بن مروان الذى تولى ولاية مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) من أكثر الولاة تشجيعاً للأدباء والشعراء ، وكثيراً ما كان الشعراء يقصدونه من الحجاز والشام والعراق ، فينالون رفقده وعطاءه .

وفادة نصيب على عبد العزيز بن مروان :

كان نصيب بن رباح من مشهورى شعراء الدولة الأموية ، وتوفى عام ١٠٠ هـ وكان شاعراً خلاً فصيحاً مقدماً فى النسب والمدح ، ولم يكن له حظ فى الهجاء وكان عفيفاً ، وكان يقال إنه لم ينسب قط إلا بامرأته ، وكان أهل المدينة يدعونه النصيب تفخيماً له ويروون شعره ، وكان كبير النفس مقدماً عند الملوك يجيد مديحهم

(١) ١٣٤ فتوح مصر لابن عبد الحكم .

(٢) خطط المقرئى ص ٧٠ .

(٣) الولاة والقضاة للسكندى ص ٣٧ .

ومرائهم ، وفي وفادته على عبد العزيز بن مروان يقول نصيب (١) : قلت الشعر وأنا شاب فأعجبني قولي ، فجعلت آتي مشيخة من بني ضرة ومشيخة (٢) من خراصة فأشدهم القصيدة من شعري ثم أنسبها إلى بعض شعرائهم الماضين ، فيقولون : أحسن والله ! هكذا يكون الكلام ، وهكذا يكون الشعر ، فلما سمعت ذلك منهم علمت أني محسن ، فأزعموا وأزعمت الخروج إلى عبد العزيز بن مروان ، وهو يومئذ بمصر ؛ فقلت لأختي أمامة ، وكانت عاقلة جلدة : أي أخية إني قد قلت شعراً ، وأنا أريد عبد العزيز بن مروان وأرجو أن يعتقك الله به وأملك وكل مرقوق (٣) من أهل قرأتي .

قالت إنا لله وإنا إليه راجعون ! يا ابن أم ، أتجمع عليك الخصلتان : السواد وأن تكون ضحكة (٤) للناس ! قلت : فاسمعي ، فأشدها فسمعت ، فقالت بأني أنت أحسنت والله ! في هذا رجاء عظيم ، فأخرج على بركة الله .

فخرجت على قعود لي حتى قدمت المدينة فوجدت بها الفرزدق في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه فقلت : أنشده وأستشده وأعرض عليه شعري ، فأشده فقال لي : ويلك ! أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك ! قلت نعم قال فلست في شيء ، إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل ، فانفضخت (٥) عرقاً .

فخصبني رجل من قریش كان قريباً من الفرزدق وقد سمع إنشادي وسمع ما قال لي الفرزدق ، فأومأ لي فقممت إليه فقال ويحك ! أهذا شعرك الذي أنشده الفرزدق قلت نعم فقال : فقد والله أصبت ولئن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك ، فإننا لنعرف محاسن الشعر ، فامض لوجهك ولا يكسر نك . فسرني قوله ، وعلمت أنه قد صدقني فيما قال فاعتزمت على المضي فضيت ! .

فقدمت مصر وبها عبد العزيز بن مروان فحضرت بابه مع الناس فنحيت عن مجلس الوجوه ، فسكنت وراءهم ، ورأيت رجلاً جاء على بغلة حسن الإشارة سهل المدخل يؤذن له إذا جاء ، فلما انصرف انصرفت معه أماشي بغلته فلما رأي قال ألك حاجة قلت نعم ! أنا رجل من أهل الحجاز شاعر وقد مدحت الأمير وخرجت إليه

(١) الأغاني ص ٣٢٥ ج ١ (٢) المشيخة الشيوخ .

(٣) رق : صار في رق (٤) الضحكة : من يضحك الناس منه .

(٥) انفضخت عرقاً : تدفقت عرقاً .

راجياً معروفاً ، وقد ازدريت فطردت من الباب ونحيت عن الوجوه ، قال فأنشدي
فأنشدته فأعجبه شعري ، فقال ويحك ! أهذا شعرك ؟ فياك أن تنتحل ! فان الأمير
راوية عالم بالشعر وعنده رواية فلا تفضحنى ونفسك ، فقلت والله ما هو إلا شعري
فقال : ويحك ! فقل أبيتاً تذكر فيها خوف^(١) مصر وفضلها على غيرها ، والقي بها
غداً فغدوت عليه من غد فأنشده قولى :

سرى الهم ثنيتى إليك طلائعه بمصر وبالخوف اعترتني روائعه
وبات وسادى ساعد قل لخمه عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه^(٢)
قال : وذكرت فيها الغيث فقلت :
وكم دون ذلك العارض البارق الذى له اشتقت من وجه أسيل مدامعه
تمشى به أفناء^(٣) بكر ومذحج وأفناء عمرو وهو خصب مرابعه
فكل مسيل من تهامه طيب دميث الربا تسقى البحار دوافعه^(٤)
أعنى على برق أريك وميضه تضىء دجنات الظلام لوامعه
إذا اكتحلت عيننا محب بضوئه تجافى به حتى الصباح مضاجعه
فقال : أنت والله شاعر ! أحضر بالباب حتى اذكرك للأمير :

قال : جلست على الباب ودخل ، فاظننت أنه أمكنه أن يذكرني حتى دعا
ني ، فدخلت على عبد العزيز ، فسلمت فصعد في بصره وصوب ، ثم قال : أنت
شاعر ؟ ويلك ! قلت : نعم أيها الأمير ! قال : فأنشدي. فأنشده فأعجبه شعري.
وجاء الحاجب فقال : أيها الأمير هذا أيمن بن خريم الأسدي بالباب : قال :
اثنى له ، فدخل فاطمأن له ، فقال له الأمير : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد فنظر
إلى ، فقال : والله لنعم الغادى في أثر الخاض^(٥) ، هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة
دينار : فقال : فإن له شعراً فصاحه ! فقال لي أيمن : أنقول الشعر ؟ قلت نعم ،
قال : قيمته ثلاثون ديناراً ، قال : يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ؟ قال : لكونه
أحق أيها الأمير ، ما لهذا وللشعر ؟ مثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً ؟ فقال

(١) الخوف بمصر حوفان الشرق والغرب ، وهما متصلان .
(٢) الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بمصب ظاهر الكف .
(٣) أفناء بكر ومذحج : أخلاط الناس . (٤) الدوافع : مسایل الماء .
(٥) الخاض الحوامل من النوق ، وهو يريد : لنعم هذا العبد يرعى الابل .

أنشده يا نصيب فأنشده .

فقال له عبد العزيز . كيف تسمع يا أيمن ، فقال هو أشعر أهل جلده ، قال : هو والله أشعر منك ، قال : أمنى أيها الأمير ؟ قال : إى والله منك ، قال : والله أيها الأمير إنك للمول طرف ، قال : كذبت والله ما أنا كذلك ، ولو كنت كذلك ما صبرت عليك تنازعى التحية ، وتواكلنى الطعام ، وتكلى على وسائدى وفرشى ، وبك مابك — وكان بأيمن بياض .

قال : ائذن لى أن أخرج إلى بشر بالعراق ، واحملنى على البريد ، قال : قد أذنت لك ، وأمر به لحمل على البريد إلى بشر ، فقال فيه يمدحه ويعرض بأخيه عبد العزيز :

ركبت من المقطم فى جمادى	إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف	رأى حقا عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر	عمود الحق إن له عمودا
ودع بشرأ يقومهم ويحدث	لأهل الزيف . إسلاما جديدا
كان التاج تاج بنى هرقل	جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدى وجه بشر	إذ الألوان خالفت الحدودا
فأعطاه بشر مائة ألف درهم .	

ولنصيب فى عبد العزيز بن مروان^(١) :

لعبد العزيز على قومه	وغيرهم نعم غامرة
فبابك ألين أبوابهم	ودارك مأهولة عامرة
وكليك آنس بالمعتفين	من الأم بالإبنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلين	أندى من الليلة الماطرة
فنك العطاء ومنى الثناء	بكل محبرة سائرة

ولما مات الأمير عبد العزيز رثاه نصيب بقصائد مؤثرة .

وفادة أيمن بن خريم على عبد العزيز :

وقد اتصل أيمن بن خريم الأسدى بالأمير عبد العزيز وزاره فى حلوان ،

وأقام عنده ومدحه ، فلما قدم نصيب على عبد العزيز قال عبد العزيز : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد ؟ وأشار إلى نصيب ، فنظر أيمن إليه وقال : لنعم الغادى في إثر المحاض ، هذا يا أمير المؤمنين أرى ثمنه مائة دينار ، قال : فإن له شعراً وفصاحة ، فسأل أيمن نصيباً : أتقول الشعر ؟ فأجابه نصيب : نعم ، فقال : فثمنه ثلاثون ديناراً ، فقال الأمير : يا أيمن أرفعه وتخفّضه أنت ؟ قال : لكونه أحق أيها الأمير ، مال هذا ولشعر أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً ، فأمر عبد العزيز نصيباً أن ينشده فأنشده ، فقال عبد العزيز : كيف تسمع يا أيمن ؟ قال : شاعر أسود هو أشعر جلده ، فقال الأمير هو والله أشعر منك ، وكرر ذلك ، فغضب أيمن وقال : والله إنك أيها الأمير للملوف لطرف^(١) .

شعراء آخرون يفدون على عبد العزيز :

ومن هؤلاء عبد الله بن الحجاج^(٢) ، وكثير عزة^(٣) وقد هاجر إلى مصر بعد أن هاجرت إليها محبوبة عزة مع قومها عام الجلاء ، فتبعهم كثير على راحلته ، وروى أنه وصل مصر والناس منصرفون من جنازة عزة وقد مدح كثير عبد العزيز وأطال فيه المدح ، ولعل رحلته إلى مصر إنما كانت لنيل عطاء عبد العزيز وجدواه ، وكذلك قدم مصر جميل بن معمر العذري الشاعر الأموي المشهور ، واتصل بعبد العزيز ومدحه فأحسن جائزته ومات بمصر سنة ٨٢ هـ . ويقول زكي مبارك في كتابه « العشاق الثلاثة »^(٤) :

كان من ضروب التشابه في الحظوظ أن يزور كثير مصر كما زارها جميل ، مع الاختلاف في غرض الزيارة عند الشعراء ، فقد زار جميل مصر ليستعين بعبد العزيز بن مروان على محنته في هوى بثينة ، وكانت المصاعب تثور في وجهه من كل جانب ، فوعده عبد العزيز بالحماية ، ومنحه بيتاً يقيم فيه ، ولكنه لم يقيم إلا قليلاً حتى مات . أما كثير فزار مصر ليتنفع بصلات عبد العزيز بن مروان وقد أطال فيه المدح . والقصة التي فرضت أن يموت جميل بمصر وهو يهتف باسم

(١) راجع ٧٤ : ١ حسن المحاضرة . (٢) ١٢ ج ٢٩ الأغاني

(٣) ٢ : ١٦٩ زهره الآداب ، ١ ص ٣٢٢ حسن المحاضرة .

(٤) ص ٦٦ و ٣٦ .

بثينة أرادت أن تنقل كثيرا من مصر إلى المدينة شوقا إلى عزه ، ولم تسكتف بذلك بل جلست كثيرا يصادف عزه وهي قادمة إلى مصر لتمتحن النظر بقوامه القصير النحيل ! وتقول القصة إنهما تعانبا في الطريق ثم افترقا متعاضبين ، هو إلى المدينة وهي إلى مصر ، ثم عز عليه أن يفارق بلداً فيه هواه فرجع إلى مصر ولكنه أسوء البخت وجد الناس ينصرفون من جنازة عزه ، فأتى قبرها وأناخ راحلته عنده ومكث ثم رحل وهو ينشد :

أقول ونضوى قد ثوى عند قبرها عليك سلام الله والأمين تسفح
وقد كنت أبكى من فراقك حية فأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزع
وكذلك ظفر ثرى مصر برفاتين عزيزين : رفات عزه ورفات جميل . والعشق
نفس : قصة ، فكيف تسلم أخباره من زخرف الخيال ؟ فإن سأل القارىء : ومتى
مات كثير وأين مات ؟ فإننا نجيب بأنه مات سنة خمس ومائة بالمدينة .
ومن زار عبد العزيز بن مروان في مصر عبید الله بن قيس الرقيات ، وله في
ذكر مدينة حلوان التي بناها عبد العزيز واتخذها مقراً لولايته :
سقىا لحوان ذى الكروم وما صنف من تينه ومن عنبه
ومطلع هذه القصيدة :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه وميله في الهوى وفي لعبه (١)
أهلاً وسهلاً بمن أذاك من الرقة تيسرى إليك في سخبه (٢)
بانت بحلوان تبتيك كما أرسل أهل الوليد في طلبه (٣)
بدلها الحب فاشتفت كما تشفى دماء الملوك من كلبه (٤)
سقىا لحوان ذى الكروم وما صنف من تينه ، ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من الد برنى ، غلب بهتز في شربه (٥)

(١) يصحو : يقيق . الطرب : الاهتزاز فرحاً . يصف فؤاده بالعشق والهيام .
(٢) الرقة : بلدة على الفرات . وأخرى غربى بغداد ، وغيرهما السخب :
جمع سخاب قلادة من قرنفل وغيره .

(٣) حلوان مصر هي المراد هنا . تبتيك : تطلبك . الوليد : الصبي .
(٤) الكلب : داء عضه الكلب يشفى بدماء الملوك في زعمهم .
(٥) مواقير : جمع موقر : النخلة الثقيلة الحمل ، البرنى : التمر . غلب : جمع غلباء
الحديقة المتكاثفة . الشرب حوض صغير حول النخلة يسع ربيها .

أسود سكانه الحمام فما تنفك غربانه على رطبه
 لتهنه مصر والعراق وما بالشام من بزه ومن ذهبه^(١)
 فهم بهاء إذا أتيتهم لا نائل يفيض من حلبه^(٢)
 أثن على الطيب ابن ليلى إذا أنثيت في دينه وفي حسبه^(٣)
 من يصدق الوعد والقتال ويخ شئ الله في حله وفي غضبه^(٤)
 ومن تفيض الندى يداه ومن ينتهب الحمد عند منتهيه^(٥)
 أمك بيضاء من قضاة في الد بيت الذى يستظل في طنبه^(٦)
 وأنت في الجوهر المذهب من عبد مناف ، يداك في سبيه^(٧)
 يخلفك البيض من بنيك كما يخلف عود النضار في شعبه^(٨)
 ليسوا من الخروع الضعيف كما جلت صقور الصليب من حده^(٩)
 نحن على بيعة الرسول وما أعطى من عجمه ومن عربيه^(١٠)
 بها نصرنا على العدو ونر عى الغيب في تأيه وفي قره^(١١)
 نأتى إذا ما دعوت في الخلق ال ماذى أبدانه وفي جيبه^(١٢)

- (١) تهنه : تسره ، البن : الثياب من الكتان والقطن .
 (٢) بهاء : حسن وظرف . نائل : عطاء . يفيض : ينقص . حلب : ابن محبوب
 (٣) ابن ليلى : الممدوح . الحسب : الشرف .
 (٤) يصدق القتال : يظهر بسالة فيه . (٥) ينتهب الحمد : يسبق إليه .
 (٦) قبيلة عظيمة تنسب إلى قحطان أحيانا وإلى عدنان أخرى . الطنب : جبل
 يشد به سرادق البيت ، والمراد يحتفى به .
 (٧) الجوهر : الطبيعة والجيلة . عبد مناف أصل بنى أمية . السبب : الجبل
 (٨) النضار : الأثل أو الطويل المستقيم الغصون . الشعب : الغصون .
 (٩) الخروع : نبت معروف يعظم قرب المياه . الصليب : جبل . حده : أعلاه
 جلت : نظرت — أى ليسوا مستضعفين فيستذلهم قوى . بل هم كالجبل تنظر من
 قته الطيور . (١٠) ما أعطى : أى العهد الذى عاهده جميع الناس عليه .
 (١١) نرعى الغيب : نحفظ العهد .
 (١٢) الخلق : جمع حلقة وهى للدرع . الماذى : الدرع اللينة أو السلاح كله .
 الجيب جمع جبة : وهى من السنان ما دخل فيه الرمح .

نهدي رعالا أمام أرعن لا يعرف وجه البلقاء في لجبه^(١)
 فيهم كريب يقود حمير لا يعدل أهل القضاء عن خطبه^(٢)
 وعارض كالجبال من مضر الـ حمراء يشفي ذا العر من جربه^(٣)
 وابنا نزار إذا هما اجتماعا لم يتركا هاربا على هربه^(٤)

ولعبد الله الرقيات في عبد العزيز شعر كثير .. وكان الفرزدق عازما على زيارة
 عبد العزيز في مصر لولا أن جاءه نعي الأمير عام ٨٦ هـ ، وقد رثى عبد العزيز كثير
 من الشعراء ، منهم الشاعر ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد ، ويقول في رثائه ورثاء
 ابنه الأصمغ الذي توفي قبل والده يشهرين ، من مرثيته^(٥) :

فما مصر لي بعد عبد العزيز والإصمغ الحير بالموقة
 سقى الله قبريهما والصدى وما جاورا ديمة مفدقة
 وشخصية الأمير عبد العزيز بن مروان جديرة بالدراسة والبحث .

ومن الأمراء الذين شجعوا الأدب في مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان
 وقد ولي مصر بعد عبد العزيز سنة ٨٦ هـ ، وفد عليه الشاعر الحزين الكناني
 ومدحه بقصيدة طويلة منها^(٦) :

في كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع في عرينه شمم

وفي الحرب التي وقعت حول الفسطاط عام ٦٥ هـ بين أنصار الزبيريين وجيوش
 أمية وانتهت بهزيمة الزبيريين كان الشعراء يقولون الشعر مثل : عبد الرحمن بن جحدم ،
 وابن أبي زمزمة ، وعبد الرحمن بن الحكم ، وزياد بن قائد اللخمي ، والمسور
 الخولاني ، ومرسل بن حمير ، وعيسى بن شافع ، وسواهم من الشعراء .
 وفي عهد الولاة العباسيين كان الشعر العربي قد نضج في مصر : لزيادة نصيب

(١) رعال جمع رعاة : القطعة من الخيل أو البقر . الأرعن : الجيش الكشيف .
 البلقاء : بلد الشام . والمراد : أننا نحيب دعوتك لنا بجيش ضخم يساعدك .
 (٢) كريب : يطلق على جماعة من الأشراف والعلماء والمقصود واحد بعينه
 (٣) العارض : الجيش . مضر الحمراء : هو مضر بن نزار أبو قبيلة عدنانية
 تعرف به .. العر : الجرب والمراد الزيغ .

(٤) ابنا نزار ربيعة ومضر . (٥) ص ٥٦ الكندي .

(٦) ١٤ : ٧٦ الأغاني .

مصر من الثقافة الأدبية والعربية ، ولكثرة ألوان الخلاف المتعددة في مصر ، وتعدد العصبية ولعناية الناس باللغة والأدب والشعر ، ومن العلماء باللغة والأدب في هذا العهد : الليث بن سعد^(١) ، والمحدث ابن الوزير التجيبي^(٢) ، وعبد الحميد ابن الوليد المصري^(٣) ، وسعيد بن عفير المصري ، والشاعر الحسين بن عبد السلام المعروف بالجل الأكبر وكان تلميذ الشافعي وأحد رواة ، والمعل الطائي ، وسواهم . ومن الشعراء كذلك في هذا العهد ، يحيى الخولاني ، وأنيس بن دارم . وقد تحدث شاعر مصر الحسين بن عبد السلام المعروف بالجل الأكبر في شعره عن محنة خلق القرآن التي ابتلي بها العلماء في عهده أيام خلافة المأمون والمعتصم ، وله في ذلك قصائد طوال وكان للمعتزلة في مصر حلقة زعيمها ابن صبيح كما يقول الكندي^(٤) ، وكان يدافع عن خلق القرآن . وكان من رؤوس المعتزلة في مصر أبو عمران موسى بن رباح الفارسي المتكلم ، والمعتزلة فرقة - نشأت في العراق وكان زعيمهم واصل بن عطاء الذي ولد في المدينة عام ٨٠ هـ ونشأ بالبصرة ولازم مجلس الحسن البصري ، وتلمذ عليه ، ولكنه خالف أستاذه الحسن متأثراً بمذاهب القدرية والخوارج والمرجئة ، ويروى أنه أتى الحسن البصري^(٥) فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار ، والكبيرة عندهم كفر يخرج بها عن الملة ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبار والكبيرة عندهم لا ينضروا مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ، ففكر الحسن في ذلك وقبل أن يجب قال واصل ابن عطاء : لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة في المسجد يقر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة ، وقد سمي اتباع واصل بالواصلية ، ومذهبهم واعتزالهم يدور على قواعد : هي : نفي الصفات ، والقول بالقدر ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وخلود مرتكب الكبيرة في النار إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير

(١) حسن المحاضرة ١ : ١٢٠ .

(٢) ١ : ١٥٩ المرجع (٣) ١ : ٢٢٤ المرجع .

(٤) ٥٢٢ ص القضية للكندي . (٥) ١ : ٦٠ الشهر ستاني .

ولكنه يخفف عنه العذاب ، ورأى واصل أن الفرق الإسلامية المتخالفة إحداها مخطئة لا بعينها .

ويقول : إن أصحاب الجمل (عائشة وطلحة والزبير وعلياً) فريق منهم مخطئ لا بعينه .

وكذلك عثمان وغاذلوه فريق منهم مخطئ لا بعينه ، ولهذا لا يجوز عنده قبول شهادة علي وطلحة والزبير ، وجوز أن يكون عثمان وعلي على الخطأ . وكان لواصل أتباع أخذوا عنه مذهب الاعتزال ، وقاموا بالدعاية له والذود عنه ، وتوفي واصل سنة ١٣٠ هـ فقام على زعامة المعتزلة بعده عمرو بن عبيد المتوفى عام ١٤٤ هـ . وآراء واصل هي الأسس الأولى التي بنى عليها مذهب المعتزلة ، وتولى رئاسة المعتزلة أبو الهذيل العلاف وهو شيخ المعتزلة والمقدم من رجالها والمقرر لمذهبها والمدافع عنها ، وأول من خلط الاعتزال بالفلسفة ، ولد بالبصرة سنة ١٣٥ هـ ، وتلقى الاعتزال عن عثمان الطويل وغيره فشب واسع الاطلاع أديباً مناظراً ؛ وقد انفصل بالفلسفة اليونانية فقرأ فيها ونظر في كتبها حتى نبغ فيها ووقف على مسائلها وعنى بفلسفة أرسطو فألم بها ؛ ثم أدخل في مذهب الاعتزال بعض آرائها وعول في المناظرة على الأدلة المنطقية والآراء الفلسفية . وكان له آراء خاصة يميز بها على سائر المعتزلة وسمى أتباعه فيها بالهذيلية ، وتوفي أبو الهذيل العلاف عام ٢٣٥ هـ ومن أتباعه النظام المتوفى عام ٢٢١ هـ وأحد زعماء المعتزلة .

وفي عهد الولاة العباسيين تجدد الشعر العربي في مصر ينمو وينضج وتتعدد أغراضه ، وتنسج فنونه ، ويستعمل في المدح والهجاء والثناء والفخر والوصف وسوى ذلك من عديد الأغراض ، ومن الشعراء كذلك يحيى بن الفضيل ، وإسحاق ابن معاذ بن مجاهد ، وللشاعر المعلى الطائي قصيدة في رثاء جارية له مطلعها (١) :

يا موت كيف سلبتني دوصفاً ، قدمتها وتركيتني خلفاً
هلا ذهبت بنا معا فلقد ظفرت يداك فسمتني خلفاً
وهي طويلة رائحة .

شعراء زاروا مصر في هذا العهد :

١ — من هؤلاء الشعراء أبو نواس الشاعر المشهور (١٤٥ — ١٩٧ هـ)

(١) ٢ : ١٧٩ العقد الفريد ،

وقد مدح الخصيب أمير خراجها بقصائد مشهورة ، منها :
أجارة بيتينا أبوك غيسور وميسور ما يرجي لديك عسير
ويروى أن الخصيب هو الذي استزار أبانواس وطلب مديحه ، وكان الخصيب
أميراً على خراج مصر نحو عام ١٩٠ هـ ، ولكن أبانواس عاد فغضب من الخصيب
وهجاه هجاء مريراً ، وقد خرج أبو نواس من مصر بعد أن أقام فيها عاماً .

٣ - وعن وفد على مصر دعبيل الخزاعي^(١) .

٣ - وأبو تمام (١٩٠ - ١٣١ هـ) الذي تخرج في الشعر على حلقات العلماء
في مسجد عمرو بن العاص ، ثم لما ذاعت شهرته في الشعر ذهب إلى بغداد . وأبو تمام
هو حبيب بن أوس الطائي ، أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان ،
وخلد شعرهم الزمان ، وثانهم البحترى ، وثالثهم المتنبي .

وأبو تمام عربي طائي ، ولد سنة ١٩٠ هـ بقرية جاسم شمالى حوران من أعمال
دمشق ، وعلى بعد ثمانية أميال منها ، من أبوين فقيرين . وهاجر صغيراً إلى مصر
فلبث فيها من عمره ستين يشتغل بمهن حقيرة . ثم كان يسقى الماء بالجرة في جامع
عمرو بالفسطاط وكان طول مقامه بالمسجد بين أئمة اللغة والفقه والحديث ، مما حجب
إليه العلم والأدب ؟ فتعلم العربية وحفظ ما لا يحصى من شعر العرب حتى قيل ،
لأنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقطعات والقصائد .

ولما أينعت ثمار أدبه ، واستحصف شعره ، عرف أن مصر لا تنهض بإذاعة
فضله ، وتحقيق أمله ، فعاد إلى الشام ، ولبث فيها مدة يمدح رؤساءها وولادة الدولة ،
فداع شعره بالجزيرة والعراق ودعاه رؤساء الدولة أن يقدم إلى العراق ، فقدمها
واتصل بالخلفاء والأمراء يمدحهم وينال جوائزهم .

ولاية شعراء :

وقد كان من بين الولاة العباسيين على مصر من نظم الشعر وأجاد ، ومن بينهم
الوالى الفضل بن صالح المتوفى سنة ١٧٢ هـ ، فقد كان شاعراً فصيحاً أديباً ؛ وعبد الله
ابن طاهر المتوفى ٢٣٠ هـ وقد ولى مصر سنة ٢١١ هـ .
ومن المأثور عهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حين ولى مصر ، لأنه جمع

(١) راجع ١٨ ص ٤٨ الأغاني .

أصول السياسة والآداب والمثل العليا في سياسة الحاكم . . . ومن الولاة الشعراء كذلك يزيد بن حاتم المهلبى الذى ولى مصر سنة ١٤٤ هـ وظل والياً عليها حتى عزل عام ١٥٢ هـ ، وكان يزيد محباً للأدب مشجعاً للأدباء والشعراء ، وقصده ربيعة بن ثابت الرقى فدحه فأجزل له العطاء ، وكذلك قصده في مصر الشاعر المسهر التميمى فأجزل له العطاء .

شاعر مصرى مشهور في المجون :

ذلك الشاعر هو ماني الموسوس ، وكان كلفاً بمجالس اللهو والخمر وقد تتبع القدماء في وصف الأطلال وبسكاه الديار والوقوف عليها ، وله شعر كثير ، وقد هاجر إلى مدينة السلام وأقام فيها .

تراجم موجزة لأشهر الشعراء

١ - الجبل الأكبر :

هو الحسين بن عبد السلام المصرى (١٧٠ - ٢٥٨ هـ) تلقى العلم في مصر وتلمذ على الشافعى ، وأخذ يتكسب بالشعر ، ويمدح بها الولاة والأمراء ، ثم اتخذه ابن طولون شاعره ونديمه .

وقد أجاد في المدح والهجاء ، واشترك في الأحداث السياسية التي وقعت بمصر في حياته بشعره القوى الرائع ، إلى أن أدركته المنية ، وكان شاعراً مفلحاً ، مدح الخلفاء والأمراء ، وقدم دمشق وأفدأ على أحمد بن المدبر وكان أحمد يقصده الشعراء ، فن مدحه بشعر جيد أجزل صلته ، ومن مدحه بشعر ردىء وجه به مع خادم له إلى الجامع فلا يفارقه حتى يصلى مائة ركعة ثم يصرفه . فدخل عليه الجبل وأنشده :

أردنا في أبي حسن مديحا	كما بالمدح تنتجع الولاة
فقالوا : أكرم الثقلين طرا	ومن جدواه دجلة والفرات
وقالوا : يقبل الشعراء لكن	أجل صلات مادحه الصلاة
فقلت لهم : وما بغنى عيالى	صلاتى ؟ إنما الشأن الزكاة
فيأمر لى بكسر الصاد منها	فتصبح لى الصلاة هى الصلات
ومن قوله فى القناعة :	
إذا أظمأتك أكف اللثام	كفتك القناعة شبعاً ورياً

فكن رجلا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
أييا لنائل ذى ثروة تراه بما في يديه أييا
فإن إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيا
٢ - المعلى الطائى :

وهو شاعر مصرى كثير الشعر، اشترك فى الأحداث السياسية فى عصره، وكان
مع براعته فى المدح والهجاء يصف الخمر.. وتنسب له الأبيات المشهورة التى منها :
وإنما أولادنا بيتا أكبادنا تمشى على الأرض^(١)
والصحيح نسبتها لخطان بن المعلى^(٢).

٣ - سعيد بن عفير (١٤٦ - ٢٢٦ هـ)^(٣)، ولد بمصر، وتلقى فيها علومه
الدينية، ثم رحل إلى المدينة، وعاد إلى مصر، وكان متفوقا فى الثقافتين الدينية
والعربية، وكان عبد الله بن طاهر يجعله ثالث عجائب مصر بعد الحرمين والنيل،
وولى قضاء مصر، ونبغ فى الحديث والفقه.

(١) ٣٦٤ : ١ العقد .

(٢) حساسة أبى تمام ١٠١ طبعة السعادة .

(٣) ١٢٣ : ١ حسن المحاضرة .

الأدب في عصر الدولتين

الطولونية والأخشيدية

تمهيد:

١ — استقل بمصر أحمد بن طولون وكان قد ولى الحكم فيها سنة ٢٥٤ هـ ، تم أضيفت إليه نيابة الشام والعواصم والثغور وإفريقية ، فأقام بها مدة طويلة ، وبنى جامعته المشهور ، وكان ميلاده في بغداد عام ٢١٤ هـ ، وكان أبوه طولون من الأتراك الذين أهداهم نوح الساماني عامل بخارى إلى المأمون . واستمر ابن طولون أميراً على مصر حتى مات بها عام ٢٧٠ هـ^(١) ، وولى بعده ابنه أبو الجيش خمارويه ، وظل أميراً على مصر حتى قتل عام ٢٨٢ هـ ، وولى بعده ابنه دجيش ، فأقام تسعة أشهر قتل بعدها ، وخلفه أخوه هارون بن خمارويه الذى ظل أميراً على مصر حتى قتل عام ٢٩٢ هـ ، وولى عمه أبو المغانم شيبان ، فورد من قبل المكتفى بعد اثني عشر يوماً من ولايته محمد بن سليمان الوائلى الذى سلم إليه شيبان الأمر ، واستصفي أموال آل طولون ، وانقضت الدولة الطولونية ، واهتت أيامها من تاريخ مصر السياسى .

وكان من البدعى أن يكون مقر دواوين الملك فى أيام الدولة الطولونية مدينة أحمد بن طولون ، وأصبح مسجده المشهور محط الرحال ، ومجلس العلماء ، ومستقراً للحلقات العلمية الكثيرة التى تدرس فيها علوم الدين واللغة والأدب .. وظهر فى مصر وفى حلقات مسجد أحمد بن طولون كثير من العلماء والأئمة والأدباء والشعراء ؛ ومع ذلك فقد ظل « مسجد عمرو » يؤدى رسالته بجانب المسجد الطولونى الكبير ، بل ظل إلى أمد قريب يعج بالحلقات والعلماء ، حتى ليروى أنه كان فيه قبل عام ٧٤٩ هـ بضع وأربعون حلقة ، لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه^(٢) أسس جامع ابن طولون^(٣) عام ٢١٣ هـ ، فى مدينة أحمد بن طولون التى سماها

(١) راجع ٣٠٩ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٢) ١٣٦ ج ٢ حسن المحاضرة طبعة القاهرة ١٣٢٧ .

« القطائع » ، و فرغ من بنائه عام ٢٦٦ هـ . وصلى فيه القاضي بكار إماما وخطب فيه أبو يعقوب البلخي ، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الامام الشافعي (١) وظلت الحلقات العلمية فيه إلى أمد بعيد ، فكانت فيه دروس للتفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات (٢) . . وكان أعمر ما يكون في دولة بني طولون .

٢ — وفي عام ٣٢١ هـ ولي على مصر من قبل خلفاء بني العباس محمد بن طنج الأخشيدي الذي أقام الدولة الأخشيديّة في مصر والشام ، ومات في ذي الحجة عام ٣٣٤ هـ . وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً ، فأقيم أستاذه كافور الأخشيدي وصياً عليه ، وحكم المملكة باسمه ، ومات أنوجور عام ٣٤٩ هـ ، فقام أخوه على مقامه حتى مات عام ٣٥٥ هـ ، فاستقرت المملكة باسم كافور ودعى له على المنابر في مصر والشام ، ومات عام ٣٥٧ هـ ، فولى المصريون بعده أبا الفوارس أحمد بن علي بن الأخشيدي ، فأقام شهوراً حتى فتح الفاطميون مصر ، وانتزعها جوهر الصقلي منه عام ٣٥٨ هـ .

وفي عهد الدولة الأخشيديّة ظل المسجد العتيق ومسجد أحمد بن طولون يؤديان رسالتهما العلمية ، كانت الحلقات العلمية في هذين المسجدين حافلة بالعلماء والمتعلمين ، وكانت تعقد حلقات خاصة في منازل أكابر العلماء والفقهاء . حيث كانوا يجتمعون بتلامذتهم ، يقرأون ويدرسون بعض شروح الفقه الإسلامي ، وبعض كتب العبادات والتصوف واللغة والأدب ، ومن ذلك حلقة بيت عبد الله ابن الحكيم الفقيه المالكي وولديه عبد الرحمن ومحمد ، وكانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القرن الثالث . . . وهذه الأسرة هي التي أكرمت وفادة الامام الشافعي في مصر . وفي القرن الرابع كان العلماء في المسجد العتيق والمسجد الطولوني عديدين وكان من أشهرهم : أبو القاسم بن قديد ، وتلميذه الكندي صاحب الكتاب المشهور في تاريخ ولاية مصر ، وقضائهما وأبو القاسم بن طباطبا الحسني الشاعر . . وكانت مجالس الدراسة والحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحياة المصرية العالية ، وشجع الأخشيدي . خلفاؤه العلوم والآداب ودراسة الشريعة ، وكانت حلقة المتنبي الذي وفد إلى مصر عام ٥٣٦-٩٥٧ م من أحفل مجالس الأدب والشعر والنقد .

(١) ١٣٧ ج ٢ المرجع السابق . (٢) ١٣٨ ج ٢ المرجع السابق .

ولقد كانت السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور تعتكف بمسجد عمرو .
وكان أبو بكر المحلى يتولى نفقات أبي المسك كافور الأخشيدي ، وكان له في كل
عيد أضحية عادة هي : أن يسلم إلى أبي بكر المذكور بغلا محملا ذهباً ، وجريدة
تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى الجبانة وما بينهما .

قال أبو بكر المذكور : « وكان يمضى معى صاحب الشرطة ، ونقيب يعرف
المنازل . وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل ، حتى أسلم ذلك إلى من
تضمنت اسمه الجريدة ؛ فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة ، وأقول :
« الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي يهتلك بالعيد ، ويقول لك . اصرف هذا
في منفعتك . وأرفع إليه ما جعل له . »

« وفي آخر وقت زاد في الجريدة الشيخ أبا عبد الله بن جابر ، وجعل له في
ذلك العيد مائة دينار ، فطفت في تلك الليلة ، وأنفقت المال في أربابه ، ولم يبق
إلا ضرة بن جابر ، لجعلتها في كفى ، وسرت مع النقيب ، حتى أتينا منزله بظاهر
القرافة ، فطرقت الباب فنزل إلينا الشيخ ، وعليه أثر السهر ، فسلبت عليه ، فلم
يرد على ، وقال : « ما حاجتك ؟ » قلت : الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ
بالسلام . فقال : « والى بلدنا ؟ » قلت : « نعم . » قال : « حفظه الله ! الله يعلم
أنى أدعو له في الخلوات ، وأدبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه ، » قلت :
« وقد أنفذ معى نفقة ، وهى هذه السرة ، ويسألك قبولها لتصرف في مثولة هذا
العيد المبارك . » فقال : « نحن رعيته ، ونحبه في الله تعالى ، وما نفسد هذه المحبة
بعلة . » فراجعته القول ، فتبين لى الضجر فى وجهه والقلق ، واستحييت من الله
أن أقطعه عما هو عليه ، فتركته وأنصرفت . »

قال : « فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب ، وهو ينتظرنى . فلما رآنى قال :
« إيه يا أبا بكر . » قلت : « أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت
لك في هذه الليلة ، وفي هذا اليوم الشريف . » فقال : « الحمد لله الذى جعلنى لإيصال
الراحة إلى عباده . » ثم أخبرته بامتناع ابن جابر فقال : « نعم هو جدير ، لم تجر
بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم . » ثم قال لى : « عد إليه واركب دابة من دواب
التوبة ، واطرق باب ، فإذا نزل إليك فإنه سيقول لك : « ألم تكن عندنا ؟ » فلا
ترد عليه جواباً . » ثم استفتح وقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، طه . ما أنزلنا

عليك القرآن لتثقي ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً من خلق الأرض والسموات
العلي ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما
وما تحت الثرى ، يابن جابار ! الأستاذ كافر يقول لك : ومن كافر العبد الأسود ؟
ومن هو مولاه ؟ ومن الخلق ؟ ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة ، تلاشى الناس
كلهم ههنا . أتدرى من هو معطيك ، وعمل من رددت ؟ أنت ما سألت وإنما هو
أرسل لك . يابن جابار ! أنت ما تفرق بين السبب والمسبب .

قال أبو بكر : « فركبت وسرت ، فطرقت منزله فنزل إلى ، فقال لي مثل لفظ
كافور ، فأضربت عن الجواب وقرأت طه . ثم قلت ما قال لي كافر . فبكى وقال
لي : « أين ما حملت ؟ » فأخرجت الصرة ، فأخذها ، وقال : « علمنا الأستاذ كيف
التصوف . » قلت له : « أحسن الله جزاءك . » ثم عدت إليه فأخبرته بذلك ، فسر
وسجد شكر الله تعالى وقال : « الحمد لله على ذلك . »

ومن ترف الدولة في هذا العهد ما يروى من أنه لما استقر الملك لخارويه بن أحمد
ابن طولون ، عني بتجميل مدينة القطائع . فكان مما أحدثه يستأنس فيه أنواع
الرياحين والشجر ، وأنواع الورد والزعفران ؛ وكسا النخيل نحاساً مذهباً ، وجعل
تحت النحاس ميازيب من الرصاص ينبثق منها الماء بترتيب عجيب ؛ وجعل من الرياحين
صوراً وكتابة ، يعمدها البستاني بالمقراض فتبقى على أشكالها ، وبني في البستان برجاً
من خشب الساج ، وسرح فيه أصناف القمارى والطيور الجيلة الحسنة الصوت .
وجلب إلى البستان الطواويس ودجاج الحبش وغيرها من الطيور الغريبة . وبني في
قصره مجلساً سماه بيت الذهب . موه حيطانه بالذهب واللازورد في نقوش عجيبة .
وجعل في الجدران تماثيل من الخشب بارزة . وبني في القصر كذلك قبة عالية
كان يجلس فيها فيشرف على المدينة ويرى الصحراء والنيل والجبل .

وبني دار الأسود ، وجعل فيها بيوتا ، في كل بيت أسد وليبؤة ، وبجانب كل
بيت حوض من الرخام . ورتب الخدام لتعهده هذه الدار وتنظيفها . وكان بينها
أسد اسمه « ذريق » ، قد أنس بالأمير واستأنس فأطلق في الدار لا يتعرض لأحد ؛
فإذا مدت مائدة خمارويه ربح الأسد بين يديه ، ينتظر ما يلقي إليه من طعام ؛
فإذا نام ربح عند سريره لا يغفل عنه لحظة . وكذلك اتخذ دوراً لأصناف الحيوان
الآخرى : مثل الفهود ، والفيلة ، والزراف . وكان عظيم العناية بالحيول ؛ بني لها

اصطبلات كثيرة ؛ وجمع فيها أصنافها . وكان يحتفل بسباق الخيل ، ويجعل أيام الحلبة أيام أعياد . وعنى بالجيش المصرى والأسطول ، فبلغا في عصره مبلغاً عظيماً .

الحياة الثقافية في ظلال الدولتين :

كان عصر الدولة الطولونية في مصر (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) والدولة الأخشيدية (٣٢١ — ٣٥٨ هـ) كما ذكرنا عصرًا ازدهرت فيه العلوم والمعرفة والثقافة . وكانت الثقافة الدينية صاحب المكانة الأولى في هذه النهضة ، فنهضت الدراسات في القصة والتفسير ، الحديث والقراءات .

محدثون وفقهاء :

ومن أشهر المحدثين والفقهاء الربيع بن سليمان (١٧٤ — ٢٧٠ هـ) ، وكان إمام الشافعية في عصره ، وأبو جعفر الطحاوى (٢٣٩ — ٣٢١ هـ)^(١) إمام الحنفية ، وروح بن الفرج الزبيرى^(٢) م ٢٨٢ هـ ، وأحمد بن الحارث بن مسكين^(٣) م ٣١١ هـ ، وهما من أئمة المالكية ، وأبو بكر بن الحداد (٢٦٥ — ٣٤٥ هـ) وكان يلقب بفقيه مصر وفصيحا وعابدها ، وكان يدرس في جامع عمرو^(٤) .

مؤرخون مصريون :

إذا كان ابن عبد الحكيم (١٨٢ — ٢٦٨ هـ) هو أول مؤرخ مصرى عنى بمصر وتاريخها وأخبارها فإنه قد نبغ في مصر من المؤرخين : ابن يونس عبد الرحمن ابن عبد الأعلى (٢٨١ — ٣٤٧ هـ) ، والكنندى محمد بن يوسف (٢٨٣ — ٣٥٠ هـ) وله تاريخ في ولاية مصر وقضائيا ، وابن زولاق المصرى الحسن بن ابراهيم اللبثى ٣٠٦ هـ ٩١٩ م — ٣٨٧ هـ ٩٩٧ م ، وقد زار مصر المؤرخ المسعودى الذى جاء إلى مصر ونزل الفسطاط وأقام بمصر نحو سنتين إلى أن توفى سنة ٣٤٦ هـ . وأشهر هؤلاء المؤرخين المصريين ابن زولاق اللبثى المصرى الذى ولد بالفسطاط ونشأ في مهد العلم والدرس ؛ في أسرة نبغ فيها أكثر من عالم ومفكر ؛ ودرس

(١) ١٤٧ : ١ حسن المحاضرة .

(٢) ١٩٠ : ١ حسن المحاضرة .

(٣) ١٢٦ : ١ حسن المحاضرة .

الفقه على أبي بكر بن الحداد أعظم أئمة عصره ، وتخصص فيه حتى نعت « بالفقيه » ، ودرس الرواية التاريخية على أبي عمر الكندي ، ثم خص كاستاذة تاريخ مصر بدرسه ومجته . وقد نشأ ابن زولاق في عهد الدولة الأخشيديّة ، وشهد في شبابه ما تعاقب يومئذ على مصر وحكومتها من حوادث وقلّاق ، ثم شهد بعد ذلك في كهولته ذهاب ملك بني الأخشيد ، وافتتاح الفاطميين لمصر ، وقيام الدولة الفاطمية ، ونشأة القاهرة عاصمة الإسلام الجديدة في مصر ، واختار أن يسكن مؤرخ هذه المرحلة من تاريخ مصر الإسلامية . ولم يصلنا سوى القليل من تراث ابن زولاق ، ولكن ما انتهى إلينا من آثاره يدل على أن مجهوده التاريخي يمتاز عن مجهود أسلافه بكثير من البراعة ، واستكمال الرواية وحسن التنسيق . ولابن زولاق كتاب يسمى « أخبار سيويه المصري » ، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، (رقم ٣٥٤ تاريخ) الذي تحدث فيه عن الأديب المصري أبي بكر محمد بن موسى ابن عبد العزيز الكندي الصيرفي المعروف بسيويه (٢٨٤ - ٣٥٨ هـ) .

وكان « سيويه » شخصية كبيرة ، تشغل في مجتمع الفسطاط العلمي والأدبي منزلة سامية . غير أنه كان بلا ريب أيضاً شخصية غريبة ، وكان في أخلاقه شذوذ وغرابة ، فأما منزلته العلمية والأدبية فيصفها ابن زولاق في قوله : « وكانت في سيويه خلال تكسبه صفات المتقدمين والمتصدرين . كان يحفظ القرآن ويعلم كثيراً من معانيه وقراءاته وغريبه وإعراجه وأحكامه ؛ عالماً بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرواة . وقد كتب عن أحمد بن شعيب النسائي ، واسحق بن إبراهيم المنجيقي ، وأبي جعفر الطحاوي وغيرهم . ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه سيويه ، ويعرف صدرأ من أيام الناس والنوادر والأشعار . وتفقه على قول الشافعي . وجالس أبا هاشم المقدسي الفقيه ، وجالس أبا بكر محمد بن أحمد الحداد ، وتلذذ له ، وتكلم في الزهد وألفاظ الصالحين متصدراً فيه . وتكلم في علم السماع . عفا الفرج ، متنسكاً . جمعت فيه ألفاظ الورعين والزهادين والواعظين وأخبار الصالحين وأدوات المتأدبين وفكاهة المنادمين .

« وبلغ من ذلك حتى جالس أنوجور بن الأخشيد أمير مصر ، وجالس أبا الحسين محمد المادرائي وزير مصر أيضاً ؛ وواكلهما ونادمهما ؛ وانتهى (في) الجدل والكلام ، وأخذ علم الاعتزال عن أبي علي بن محمد العاصي الواسطي وكان وجه المتكلمين بمصر . »

وليس أدل من هذه الصورة التي يرسمها ابن زولاق على سمو المنزلة العلمية والأدبية التي كان يتبوأها سيديويه المصري في مجتمع عصره . على أن الذي عني به ابن زولاق من أخبار صديقه وزميله ؛ هو ما تعلق بشذوده وغريب أطواره . وهو يضمه في صف « عقلاء المجانين ، الذين يشير لإهم في فاتحة رسالته وإلى من كتب عنهم كالمدايني وابن أبي الدنيا ، ثم يقول : « وكان عندنا بمصر رجل يعرف بسيديويه ؛ فوق هؤلاء الذين ذكرهم المدايني وابن أبي الدنيا . لو كان بالعراق لجمع كلامه ، ونقل ألفاظه ؛ ولو عرف المصريون قدره لجمعوا عنه أكثر مما حفظوه . وسئلت أن أجمع من كلامه ما أقدر عليه مما حفظته عنه وما بلغني عنه ؛ فليت كتابي هذا بصفته ؛ وما كان يحسنه حسب ما قدرت عليه وبالله التوفيق » .

والنسخة الخطية من الكتاب الموجودة بدار الكتب المصرية بخط ابن زولاق نفسه ، ويرجع خطها إلى نحو عام ٣٧٠ هـ وهو أقدم مخطوط مصري عربي أدبي في دار الكتب المصرية ، كما أن نسخة كتاب الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب المصري المتوفى سنة ١٩٧ هـ أقدم كتاب ديني مصري مخطوط بدار الكتب ، وهي مكتوبة في أواخر القرن الثالث الهجري ، وعليها ما يفيد أن الكتاب قرئ بمدينة إسنا سنة ٢٧٦ هـ (١) .

سيديويه المصري (١) :

يقول أحمد أمين عنه : إنه شخصية غريبة في مصر في العهد الإخشيدى ، ولقب بسيديويه لإتقانه النحو ، عاش ما بين عامي ٢٨٤ هـ و ٣٥٨ هـ أى نحو أربعة وسبعين عاماً ، وله نواذر كثيرة كانت تلتفها الألسن وتتناقلها الرواة ، وكان أكثر كلامه مسجوعاً ، ومن ثم خف على الألسنة ، وسهل في الأفواه ، وكان مع هذا أديباً ظريفاً له نظرات في الأدب جميلة ، يقول : إن أفضل الكلام ما اعتدلت مبانيه ، واستسلس على ألسن ناطقيه ، ولم يستأذن على آذان سامعيه ، وقد هجا بعض الناس شيخاً من شيوخه فقال سيديويه :

ما يضر البحر أمسى زاحراً أن رمى فيه صبي بحجر
وسمع بيت المتنبي :

(١) ص ١٦٨ : ١ حسن المحاضرة .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له من صداقته بد
فقال هذا كلام فاسد ، لأن الصداقة ضد العداوة ولو قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد
لكان أحسن وأجود ، وبلغ المتنبي هذا النقد فذهب إلى سيبويه وسمعه منه
فتبسم وانصرف ، فصاح سيبويه : انبكم ! - ومع هذا فلما سمع قول المتنبي :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدي الأنام تسير
صاح سيبويه : لبيك لبيك ! أنا عبد هذه الآيات ، مما يدل على ذوق حسن
ونقد صحيح وتقدير للأدب ، ولقد كان عالي النفس ، دقيق الحس ، يرى الناس
كلهم دونه ، فلا يذل لعظيم ، ولا يهين لكبير ، طلبه أنوجور بن الأخشيدي أمير
مصر ليناديه ، فقال على شرط أن أنزل حيث تنزل ، وأركب حيث تركب ،
وأجلس متكبئاً ، فأجابه إلى شرطه . وكان سيبويه يحدث عظيمًا فجاء خادم يسر
حديثاً إلى هذا المجلس فسمع له ، وقطع الاستماع لسيبويه . فقام سيبويه مغضباً ،
فسأله إلى أين ؟ قال لا تجالس من لا يرى مجالستك رفعة ، ولا تحدث من لا يرى
حديثك متعة ، ولا تسأل من لا تأمن منعه ، ولا تأمر من لا تأمن طوعه . ولما
ماتت أم سيبويه حضر في جنازتها كل كبير في مصر إلا ابن المارداني الوزير ، وعاد
والناس حوله ، فأخذ سيبويه يطلق لسانه في هجاء ابن المارداني ، وما نجاه من
لسانه إلا أن لقيه في الطريق يأتي مسرعاً ليدرك الجنازة .

وكان سيبويه طرفه مصر في عصره ، علباً وأدباً وفكاهة - كان يقوم
فيهم مقام العالم والواعظ والأديب ، ومقام الجريدة السيارة الناقدة اللاذعة ،
وكان منظره بديعاً ، يدور في الأسواق على حماره أو حمار غيره ، وما أكثر من
كان يتقى لسانه بتقديم حماره ! فيحرق قال « جواهر الصقلي » لما دخل مصر وذكرت
له أخباره : « لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز في جملة الهدية » .

وبحق لما سمع به « فانك » مدوح المتنبي قال : ذكروني به فلعل استدعيه
فإنه نزهة .

لغويون وأدباء :

ومن اللغويين النحويين الأدباء في هذا العصر : ابن ولاد أحمد بن محمد بن الوليد

المتوفى عام ٢٣٢ هـ وكان شيخ مصر في العربية^(١)، وأبو جعفر النحاس المتوفى عام ٢٣٨ هـ^(١)، وأحمد بن يوسف ابن الداية الكاتب صاحب كتاب المكافأة، وهو أثر أدبي نثرى نفيس لهذا العصر، وأحمد بن يوسف ذو ثقافة واسعة، في الدين والعربية والفلسفة، وهو كاتب بليغ، وشاعر مجيد، ومؤلف متمتع، وقد توفى بعد سنة ٣٣٠ هـ.

أعلام أخرى في شتى فروع الثقافة :

وعن نبغوا في هذا العصر كذلك من العلماء والأعلام :

١ — محمد بن نصر المروزي أحد أئمة الفقهاء، ولد ببغداد، ونشأ بنيسابور وأقام في مصر مدة، ثم رجع فاستوطن سمرقند، وتوفى سنة ٢٩٤ هـ عن أكثر من ثمانين عاما.

٢ — النسائي^(٢) أحمد بن شعيب (٢٢٥ - ٣٠٣ هـ) هاجر إلى مصر، وأقام بها، وكان خروجه من مصر عام ٣٠٢ هـ.

٣ — ابن خزابة وزير كافور (٣٠٨ - ٣٩٩ هـ)^(٣).

٤ — أبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسواني، كان فقها أديبا شاعرا، وله قصيدة نظم فيها قصص الأنبياء وغيرها وتوفى عام ٣٣٥ هـ^(٤).

٥ — أبو الطاهر محمد بن عبدالله كان فصيحا فقيها شاعرا إخباريا توفى عام ٣٦٧ هـ عن نحو تسعين عاما.

٦ — الحسن بن داود بن بابشاذ المصري النحوي المشهور^(٥) مات سنة ٣٣٩ هـ وسنه أقل من أربعين.

٧ — أبو بكر التجيبي المقرئ من أئمة القراءات توفى عام ٣٥٧ هـ^(٦)

٨ — أحمد بن عبدالله الأزدي المصري أحد أئمة القراء بمصر توفى عام ٣١٥ هـ^(٦)

(١) ٢٢٨ : ١ حسن المحاضرة . (٢) ١٤٧ : ١ حسن المحاضرة .

(٣) ١٤٨ : ١ حسن المحاضرة ، ٢١٠ : ١ أيضاً ، معجم الأدباء الياقوت

ج ٧ ص ١٦٣ وابن خلكان ١١٠ : ١ .

(٤) ١٦٨ : ١ حسن المحاضرة . (٥) ١٩٧ : ١ المرجع .

(٦) ٢٠٨ : ١ حسن المحاضرة .

٩ — محمد بن علي الأذفوي المصري المقرئ النحوي المفسر وكان سيد أهل عصره بمصر ، وله كتاب في التفسير في مائة وعشرين مجلدا سماه والاستغناء في علوم القرآن ، توفي عام ٣٨٨ هـ (١) .

١٠ — أبو الحسن بن بنان الزاهد المصري (٢) .

١١ — محمد بن أحمد بن سعيد التيمي كان من الأطباء ومات سنة ٣٧٠ هـ .

١٢ — أبو الحسن علي بن أبي سعيد بن يونس بن عبد الأعلى كان منجما معنيا بالرصد ، وله شعر جيد ، مات سنة ٣٩٩ هـ .

صور من النثر الفني في هذا العصر :

١ — من كتاب كتبه إبراهيم بن عبد الله النجيري بأمر الإخشيد محمد ابن طنج إلى أرمانيوس ملك الروم وقد كان أرسل إليه رسالة يتباهى فيها بهظم ملكه ، ويصغر من شأن ملك مصر :

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره ، ووجدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين ، لكنك سلكت مسلكا لم يجوز لنا أن نعدل عنه ، وقلت قولاً لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإننا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكائرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهلك ، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين وعطفك عليهم ، وتجاوزك في الإحسان إليهم جميع من تقدم من سلفك ، ومن كان محموداً في أمره رغب في محبته ، لأن الخير أهل لأن يحب حيث كان .

وهذه الرسالة خالية من السجع إلا ما ندر وتطلبه الذوق .

٢ — ومن كتاب ابن عبد كان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس :

(١) ٢٠٩ : المرجع .

(٢) ٣١٩ : حسن المحاضرة .

كتب ابن عبد (١) ، كان عن أحمد بن طولون كتابا إلى ابنه العباس حين عصى عليه (٢) بالإسكندرية ، منذرا وموئخا له على فعله .. ومنه : « من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين (٣) ، إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لطوره (٤) ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس (٥) في فتنته ، المبخوس (٦) من حظ ديناه وآخرته .

(١) هو محمد بن عبدالله بن عبد كان ، كان على المسكنايات والرسائل في عهد الدولة الطولونية ، وكان مترسلا فصيحا .

(٢) كان الخليفة المعتر قد ولي بایکباک مصر ، فولى عليها بایکباک من قبله أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ . ثم استقل ابن طولون بمصر سنة ٢٥٧ هـ في عهد الخليفة المعتمد على الله ؟ ثم أراد أن يوسع نطاق ملكه فأغار على الشام سنة ٢٦٤ هـ ؛ وفي أثناء غيابه بها عصى عليه ابنه العباس ، وجاء في تاريخ . الكامل لابن الأثير في هذا الصدد : « كان أحمد بن طولون قد خرج الى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر ، فلما أبعد عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والأنسراح الى برقة ، ففعل ذلك ، وأتى برقة في ربيع الأول سنة ٢٦٥ هـ ، وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر ، وارسل الى ابنه ولطفه واستعطفه ، فلم يرجع اليه ، وخاف من معه فأشاروا عليه بقصد أفريقية ، فسار اليها في خبر طويل . إلى أن قال : وسير اليه والده العساكر فقاتلوه قتالا صبر فيه الفريقان ، فانهزم العباس ومن معه وكثر القتلى في أصحابه . وأخذ العباس أسيرا وحمل الى أبيه فحبس في حجرة داره ؟ الى أن قدم باقي الأسرى من أصحابه ، فأحضرهم أحمد عنده والعباس معهم ، فأمره أبوه أن يقطع أيدي أعيانهم وأرجلهم ففعل فلما فرغ وبخه أبوه وذمه ، ثم أمر بضربه فضرب مائة مفرقة ، ودموعه تجري على خده رقة لولده ، ثم رده الى الحجرة واعتقله ، وذلك سنة ٢٦٨ هـ ، وتوفي ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ .

(٣) يعنى المعتمد على الله .

(٤) عدا الأمر ، وعنه : جاوزه ، والطور : القدر .

(٥) الرکس : قلب أول الشيء على آخره .

(٦) المبخوس : المنقوص .

سلام على كل منيب^(١) مستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم^(٢) ، وحلول الفوت والندم . وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء^(٣) الجليل ، والطول^(٤) الجليل ، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبي^(٥) ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد : فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنها^(٦) ، والنملة يكون حتفها فى جناحها ، وستعلم — هبلتك^(٧) الهوابل آياها الآحق الجاهل ، الذى نى على النى عطفه^(٨) ، واغتر بضجاج المواكب خلفه — أى مودة هلكه بإذن الله توردت^(٩) ، إذ على الله جلى وعز تمردت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلاً : د قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإننا كنا نقرّبك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعا فى إنابتك ، وتأميلا لفيئتك^(١٠) ، فلما طال فى النى انهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتبنا لك ، ولم نر الموعدة تلين كبدك ، ولا التذكير يقيم أودك^(١١) ، ولم تكن لهذه النسبة أهلاً ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلاً ، بل لانكنى بأبى العباس إلا تكررنا ، وطمعاً بأن

(١) ناب الى الله وأتاب : تاب .

(٢) الكظم : مخرج النفس .

(٣) البلاء : النعمة .

(٤) الطول : الفضل .

(٥) المجتبي : المختار .

(٦) أخذه من المثل المشهور : « كباحثة عن حتفها بظلفها » ، وأصله أن رجلاً كان جائعاً بالفلاة القفر فوجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به فبحثت الشاة الأرض بأظلافها فسقطت على شفرة فذبّحها بها : يضرب لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره .

(٧) هبلته أمه كفرح : ثكلته ، وامرأة هابل وهبول .

(٨) أى جانبه . (٩) تورد : ورد .

(١٠) الفيئة : الرجوع . (١١) الأود : الاعوجاج .

يهب الله منك خلفاً تقلده اسمك ، ونكتني به دونك ، ونعدك كنت نسياً^(١) منسياً ، ولم تك شيئاً مقصياً ، فانظر — ولا نظر بك — إلى عار نسبته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت ، واعلم أن البلاء — بإذن الله — قد أظلك ، والمكروه — إن شاء الله — قد أحاط بك ، والعساكر — بحمد الله — قد أتك ، كالسيل في الليل ، تؤذئك بحرب وبويل ، فإننا نقسم — ونرجو ألا نجور ونظلم — ألا تنق عنيك عنا ، ولا تؤثر على شأنك شأننا ، ولا تنوقل^(٢) ذروة جبل ، ولا تلج بطن واد ، إلا تبعناك — بحول الله وقوته — فيهما — وطلبناك حيث أمت^(٣) منهما ، منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلاء ما استدعيت ، حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحج لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبكت ، ولم تكن بالمعصية عجلت ، ولا رأى من أضلك من غوائك قبلت ، حينئذ يتفرى^(٤) لك الليل عن صبحه ، ويسفر^(٥) لك الحق عن محضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر^(٦) فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكاً بجبال غرور ، متادياً في مقايح أمور : من عقوق لا ينال طالبه ، وبغى لا ينجو هاربه ، وغدر لا يلتصق صريعه ، وكفران لا يودي^(٧) قتيله ، وتقف على سوء رويتك ، وعظم جريرتك^(٨) ، في تركك قبول الأمان ، إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول ، وإذ السيف عنك مغمود وباب التوبة إليك مفتوح ، وتتلطف — والتلطف غير نافعك — إلى أن تكون أجبت إليه سرعاً وأنقذت إليه منتصحاً .

-
- (١) النسي : مانسى . (٢) وقل في الجبل كوعد وتوقل : صعد .
 (٣) أى قصدت . (٤) تفرى : انشق ، والمعنى ينكشف .
 (٥) سفر الصبح كضرب وأسفر : أضاء وأشرق .
 (٦) الوقر : الصمم . (٧) ودى القتل كوعى : أعطى ديته .
 (٨) جريرة : ذنب .

الشعر في عهد الدولتين

كثر الشعر في هذا العهد وشجع عليه الحكام والأمراء ، وتنافس فيه الشعراء ، وفي المقرئى أنه كان هناك فهرست بأسماء شعراء الميدان لابن طولون في اثنتى عشرة كراسة (١) ، ومن مدح أحمد بن طولون : قعدان بن عمرو ، ومنصف ابن خليفة الهذلى ، والقاسم بن يحيى ، وسعيد بن العاص الذى رثى دولة الطولونيين بقصيدة طويلة ، وله مدائح بليغة في دولة الطولونيين ، واسماعيل بن أبى هاشم ، وسواهم ، كمحمد بن دؤاد الذى أكثر من هجاء أحمد بن طولون هجاء مريراً ، ومن الشعراء الذين رثوا الدول الزائلة الشاعر محمد بن طشويه الذى رثى دولة الطولونيين ؛ وقد نبغ بعض الشعراء في فنون العلم والكتابة ، مثل جعفر بن محمد وصالح بن رشدين ، وغيرهما ؛ وقد تعتمد بعضهم الإطالة في القصيدة ، كأحمد ابن الربيع بن سليمان الاسوانى الذى سئل قبل موته بستين : كم بلغت قصيدتك إلى الآن ؟ قال : ثلاثين ومائة ألف بيت ، وقد ضمن قصيدته هذه كثيراً من الأخبار وقصص الأنبياء والطب . وكثر شعر الزهد والحكمة والأمثال في شعر ابن طباطبا ومن شعراء النهو والمجون : محمد بن عاصم ، وسعيد بن فاخر ، وأبى هريرة ابن أبى العصام ، والعباس بن البصرى ، ولعباس هذا شعر كثير في الأديرة التى كانت بمصر ، وعبد الله بن محمد بن أبى الجوع . وقد هاجر الشاعر أبو الحسن محمد بن سلى الشيبانى المصرى إلى حلب وصار من شعراء سيف الدولة .

وكان الشاعر ابن طباطبا يجيد وصف الطبيعة وجمالها في مصر ، وكذلك للشاعر صالح بن موسى شعر في وصف البركة ؛ ومحسن بن الحسن بن زكريا قصيدة في رثاء الإخشيد ، ولهمل بن يموت مرثية للإخشيد أيضاً ، وللقاضى محمد بن أحمد ابن الحداد قصائد في الهجاء ، وهجاء بعض الشعراء بقوله :

قولوا لحدادنا الفقيه العالم الماهر الوجيه
وليت حكماً بغير عهد وغير عقد نظرت فيه

(١) ١٣٤ : ٢ المقرئى .

(م - ه أدب)

ولما بلغت هذه القصيدة الشاعر محمد بن موسى المعروف بسيدويه المصري
مدح ابن الحداد بقصيدة منها :

ما يضر البحر أمسى زائرا أن رى فيه صبي بحجر
وهجا القاضي بن وليد الذي عزل عن القضاء سنة ٣٣٦ هـ زميله القاضي محمد
ابن بدر الذي ولي قضاء مصر ثلاث مرات آخرها عام ٣٣٩ هـ بقصيدة طويلة .

المتنبى وكافور

عاش أبو الطيب المتنبى في ظلال سيف الدولة في حلب من عام ٣٣٧ هـ حتى
عام ٣٤٦ هـ يمدحه بروائع القصيد ، بيد أن الحوادث غيرت قلب الصديقين :
أبو الطيب وسيف الدولة ، فكبرياء المتنبى ، وكثرة منافسيه ، وشاياتهم به —
لا سيما أبو فراس الأمير — ، وثورة النقد والخصومة بين أبي الطيب وابن خالويه
في مجلس الأمير ، وطموح المتنبى وعدم وصوله في ظل سيف الدولة إلى كل ما كان
ينشده من آمال كبار . كل ذلك كان له أثره في هذا التطور الجديد ، وسكن الشاعر
سكون من يتبين اتجاهات الأمور وعواقبها ، ولكنه لم يعد يجد في الأمير صديقه
الوفى ، ولا في صداقته عزته العزيزة لديه ، وقا تل الله غربة الرجل في وطنه :

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وأخذ الشاعر يلوح له بما في نفسه وبالنتائج الدامية التي تعقب هذا الجفاء :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة .. لو أن أمركم من أمرنا أم
إن كان سرهم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
ويئسنا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل النهى ذم
أرى النوى تقتضي كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركت ضميرا عن ميامننا ليجدثن لمن ودعتهم ندم

وما ضمير إلا جبل عن يمين السائر في الطريق من الشام إلى مصر ، فهو يصرح
له بأنه إذا اضطر إلى الخروج من بلاطه فسيئد له لأنه لا بد ذاهب إلى بلاط أعدائه
الإخشيدين :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تغارقهم فالراحلون هم

وأخذ أبو الطيب يحمل حملاته العنيفة على خصومه ومنافسيه فلم يبق أمل في
الوئام ، فخرج أبو الطيب من حلب إلى دمشق حيث زين له أحد أتباع كافور أن
يرحل إليه بمصر فيمم وجهه شطر مصر قاصدا بلاط بني الإخشيد ، وكفت صلات
الصداقة القديمة الباقية الشاعر عن أن يرمى الأمير بداهية من لسانه وآبدة من شعره .
ولكن سيف الدولة لم يترك الشاعر حذارا من لسانه ومن أن يطلع أعداءه
على أسرار دولته ، فأرسل لإثره الجنود ليردوه فرجعوا غائبين ، وكانت هذه منه
أمن بها الشاعر بعد على كافور :

فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتسم
ولا نبحت خيلي كلاب قبائل كأن لها في الليل حملات ديلم
ولا اتبعت آثارنا عين قائف فلم تر إلا حافراً فوق منسم
وسمنا بها البيداء حتى تفجرت من النيل واستندرت بظل المقطم

واستظل الشاعر بظل المقطم كما يقول ، فنزل في فناء كافور عام ٣٤٦ ، وكانت
الخلافة العباسية آنئذ في ضعف سياسي ، وولاية الأقاليم في شبه استقلال عن الخلافة
وعهد الخليفة الراضي إلى محمد بن طنج الإخشيدى في القيام بأعباء الحكم في مصر
عام ٣٢٣ فاستقل بها استقلالاً داخلياً ، وأخذ يوسع حدود بلاده شمالاً في ملك
الحمدينين ، وكان كافور مولى للأمير آنس فيه الكفاءة ، وحسن التدبير ، ونضوج
الثقافة ، فعهد إليه بتربية ولي عهده ثم عينه عام ٣٢٣ قائداً للجيش التي أرسلها
لصد هجمات الحمدينين على دمشق وحصص ، ولكن الأجل أسرع بآبن طنج ، إلى
لقاء ربه ، فأعلن كافور ولاية ابنه العرش وأقام نفسه مقام الوصى عليه يدبر الأمور
ويسوس الدولة ، ومات الملك الطفل بعد بلوغ سن الرشد بقليل ، فانفرد كافور
بالأمر وظل يحكم مصر ثلاثاً وعشرين عاماً (٣٣٤ - ٣٥٧) ، وكان اسم أبي الطيب
وشاعريته قد ذاعا في أرجاء العالم العربي إذ ذاك ، ثم علم كافور أن الثرى قد جف
بين الشاعر وسيف الدولة ففاوضه ليتوجه إلى بلاطه فتم له ما أراد ، ولقد ترك
أبو الطيب لنا صورة رائعة لنفسيته العميقة الثائرة حين فارق سيف الدولة في
قصيدة يقول فيها الرواة إن أبا الطيب نظمها لما بلغه وهو في مصر أنه نعى في
مجلس سيف الدولة ، وهي قصيدة رائعة فيها عتاب مرير وهجاء نائر لسيف الدولة
وأبياتها كلها موجهة إليه ، وتعرض به كما يقول العكبرى (٣٣٦/٤) ولعل فيها

سمات من الألم العنيف تجاه الحوادث التي حالت بين الشاعر والوفاء لصديقه الأمير، فهو يقول فيها إنه لا يصون العرض جاره ولا يدر على مرعاه اللين وإنه ينقم على من نال رفته، والغريب لا يجازيه إلا مللا، والمحب لا يجازيه إلا فتورا، وإنه اضطر إلى هذه الهجرة تضحية براحته وطمأنينته في سبيل كرامته وعزته، وإن ذكريات الصداقة بين الشاعر والأمير قد أخذت تتلاشى من مخيلته، وإنه يعيش في طور جديد من التجربة لكافور ومطلع هذه القصيدة :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
ومنها :

يا من نعتت على بعد بمجلسه كل بما زعم الناعون مرتين
كم قه قتلتي وكم قد مت عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يذر على مرعاكم اللين
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والملل
لأن أصحاب حلبي وهو بي كرم ولا أصحاب حلبي وهو بي جبن
ولا أقسم على مال أذل به ولا ألد بما عرضي به دون
مهت بعد رحيلي وحشة لكم ثم استمرمريري وارعوي الوسن
وإن بليت بود مشل ودكم فإنني بفراق مشله قن
وسام الشاعر طموحه آلام هذه التجربة الجديدة التي عصي في الدخول
في غمارها آراء أصدقائه ومشيريه ، كما صنع كافور في تقريب الشاعر مخالفا رأى
وزيره ابن الفرات .

وأبلغ يعصى باختصاصي مشيره عصيت بقصديه مشيري ولومي
ولم تكن هذه الهجرة الجديدة في سبيل مال بل كانت في سبيل الملك والدولة
كما يقول الشاعر نفسه في كافور :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمين على آثار موهوب
وأخذ الشاعر يدعو الأمير إلى تحقيق آماله فهو وإن كان شاعرا إلا أنه قد
خلق للسياسة والملك :

فأرم بي ما أردت منى فأنى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء
وانتظر الشاعر فى الوطن الجديد وعد كافور انتظار المستبطل المترقب :
أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيط الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التمتع
وألح عليه يطالبه عاجل وعده فالعمر يضيق عن طول الانتظار :
ولو كنت أدري كم حياتى قسمتها وصيرت ثلثها انتظارك فأعلم
ولكن ما يمضى من العمر فائت لجد لى بحظ البادر المتغنى
ويتأخر عن الشاعر وعد الأمير فلا تن آماله :

وإن تأخر عني بعض موعدة فا تأخر آمالى ولا تن
وطال مطال كافور لأنه كان يحذر جل نفسه وعرشه من أبى الطيب وكانت
الوشايات تملأ صدره بالحقد عليه ، وكان وزيره ابن الفرات الذى ترفع
أبو الطيب عن مدحه يحول بينه وبين البر بما وعد وكان وجود أبى الطيب فى
بلاطه مجال الحديث ، ومنبع الوشايات من رجال الحاشية ورجال السياسة
والأدب ، فأخذ أبو الطيب يعرض لكافور بأمانيه وآماله :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فأنى أغنى منذ حين وتطرب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية لجدك يكسونى وشغلك يسلب
ثم أخذ يلح فى الطلب والتعريض :

أرى لى بقرى منك عينا قرية وإن كان قرباً بالبعد يشاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب
وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبنى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأى فى هواك صواب
وأعلم قوماً خالفونى فشقوا وغربت أنى قد ظفرت وغابوا
ثم أخذ يكرر الطلب والرجاء :

إذا اكتسب الناس المعالي فى الندى فإنك تعطى فى ندائك المعالي

وغير بعيد أن يزورك راجل . فيرجع ملكا للمراقين^(١) واليا
وعلم أبو الطيب بالوشايات ، فطلب من كافور أن يتخذة والياً ولو على سبيل
التجربة والاختبار :

فكن في اصطناعى محسناً كمجرب بين لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت في شك من السيف قابله فإما تنفيه وإما تعده
وأعلن اليه رغبته في السلطان لاحتاجته إلى المال :

وما رغبني في عسجد أستقيده ولكنه في مفخر أستجده
وأنه سيحمده على ما يفعل حداً يفوق كل حد :

يجوده به من يفضح الجود جوده . ويحمده من يفضح الحمد حده
ولكنه فقد الأمل وعز عليه الرجاء :

أقت بأرض مصر فلا ورائي تخب بي المطى ولا أُمأى
قليل عائدى سقم فراشي كثير حاسدى صعب مراى
وما صعوبة مراهم إلا لما يطلبه من الملك والإمارة كما يقول شارح ديوانه
(١٤٥/٤ العكبرى) ، فأخذ أبو الطيب يسخر بكافور ويتهكم به سخرية المعين
في الأغراب حينئذ يمدحه بسواد لونه مع علمه أن ذكر السواد على مسامع كافور
أمر من الموت — كما قال الوحيدى^(٢) — زاعماً أنه لون المسك :

وبمسك يكنى به ليس بالمسك ولكنه أريج الشناء
وأن بياض الجلد خير منه بياض الفؤاد :

إنما الجلد ملبس وابتضااض النفس خير من ابتضااض القباء
وحينئذ يبالغ في التهمك والاستخفاف :

وما طربني أنى رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب
حتى قال ابن جنى لصديقه الشاعر لم ترد على أن جعلته قرداً (٦٥ صبح) ،
وفي هذه القصيدة بيت بلغ مبلغ الإعجاز في التهمك والسخرية :

(١) الكوفة والبصرة . (٢) ٦٦ صبح

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب
يريد أن كافور يحسده ظلما وعدوانا على ما يتقلب فيه من نعمة هي من يد
كافور ولكنّه أخفى غرضه بصياغة البيت صياغة فنية رائعة ذات معان كثيرة،
وهكذا نقرأ له في كافور :

ولله سر في علاك وإنما كلام العدا ضرب من الهذيان
وساءت علاقة أبي الطيب بكافور فوضعت عليه رقابة شديدة دقيقة استطاع
المتنبى أن يفلت منها هارباً يوم عرقة عام ٣٥٠ هـ بعد أن يئس من الحياة ومن مجد
الفن واتخاذ وسيلة لمجد الحكم والسلطان :

حتى رجعت وأقلامي قوائلى المجد للسيف ليس المجد للقلم
ونظم الشاعر في رحيله قصيدته :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟
التي رسم بها وبسواها من قصائده كافورا بميسم الذلة والهوان إلى الأبد .
وأكفريا كافور حين تلوح لى ففارقت مذفارتك الشرك والكفرا
ويمع الشاعر وجهه نحو الكوفة فأقام بها حيناً تردد خلاله على بغداد
وسواها من مدن العراق ، تسومه نفسه الكبيرة عذاب العبقرية :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
ويطارده دهره في سبيل العظمة وحيداً غريباً :
أهم بشيء والليالى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
يسأله كثير من الناس فى عجب عن غايته البعيدة التى لا تنتهى الى غاية :
يقولون ما أنت فى كل بلدة وما تبغى ؟ ما أتبغى جل أن يسمى
وكان كافور داهية أدبياً ، ولكنّه بلى بداهية شديدة من لسان المتنبى وهجائه ،
ويصفه المؤرخون بالوفاء والدهاء ، وقد ملك كافور مصر بعد أن ضعف أمر
بنى الإخشيد وكان من قبل يسوس لهم الدولة ، ومات عام ٣٥٧ هـ ودفن بالقاهرة ،
ويقول أبو الفتح المنطيق^(١) : كنا جلوساً عند كافور الإخشيدى وهو يومئذ

(١) ٨٥ العقد الفريد للبلك السعيد .

صاحب مصر والشام ، وله من البسطة ونفاذ الأمر وعلو الهمة والقدر وشهرة الذكر ، ما يتجاوز الوصف والحصص ، فحضرت المائدة والطعام ، فلما أكلنا نام وانصرفنا فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا ، وقال : امضوا إلى عقبة التجارين واسألوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك ، فإن كان حياً فأحضروه ، وإن كان قد توفى فاسألوا عن أولاده ، واكشفوا أمره . ففضينا إلى هناك . وسألنا عنه ، فوجدناه قد مات وترك بنتين : إحداهما مريضة والآخرى عاتق (١) ؛ فعدنا إلى كافور وأخبرناه بذلك ، فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً ، وأعطى كل واحدة منهما ثياباً وكسوة وذهباً كثيراً ، وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً ، وأشهر أنهما من المتعلقين به ؛ لرعاية أمورهما . فلما فعل ذلك وبالح في ضحك ، وقال : أتعلون سبب هذا ؟ قلنا : لا نعلم ، فقال : اعلبوا أنى مررت يوماً بوالدهما المنجم ، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب بحالة رثة ، فوقفت عليه ، فنظر إلى واستجلسني ، وقال : أنت تصير إلى رجل جليل القدر ، وتبلغ معه مبلغاً كبيراً ، وتنال خيراً كثيراً ، وطلب مني شيئاً فأعطيته درهمين كانا معي ، ولم يكن معي غيرهما ، فرمى بهما ، وقال : أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين ! ثم قال : وأزديك ؛ أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه ، فاذكري إذا ما صرت إلى ما وعدتك به ولا تنسني ، فبذلت له ذلك ، وقلت : نعم ! فقال : عاهدني أنك تنولي ، ولا يشغلك الملك عن اقتقادي ، فعاهدته ، ولم يأخذ الدرهمين ثم إنني شغلت عنه بما تجددي من الأمور والأحوال ، وصرت إلى هذه المسألة ، ونسيت ذلك ، فلما أكلنا اليوم ونمت رأيتني في المنام قد دخل على وقال : أين الوفاء بعهدي وإتمام وعدك ؟ لا تغدري غدر بك ! فاستيقظت وفعلت ما رأيتم . ثم اشتهر إحسانه إلى بنات المنجم لوفائه لوالدهما ، فتضاعف الدعاء له والثناء عليه .

على أن المتنبي إنما دس له عند كافور وزيره ابن حنزابه ، الذي حقد على المتنبي لأنه لم يمدحه بشعره ، وكان الوزير يغري الشعراء والنقاد بالمتنبي ، ويمجدهم عليه ، وكان ممن نقد المتنبي أبو بكر محمد موسى الملقب بسيدويه المصري ، والشاعر الأنصاري الذي نقد المتنبي في مجلس كافور (٢) ، وسواهما . وهناك طائفة من الشعراء صاحبت المتنبي وأحبته ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي الجوع ، وصالح بن رشد بن الكاتب

(١) هي الجارية التي لم تزوج . (٢) ٣٧٣ : ١ اليتيمة .

ومهما كان فإن المتنبي أحب مصر وعاش في طبيعتها الجميلة ، وأحبته مصر وكثير من شعرائها ، وهو لم يهجر مصر وإنما هجا حكامها وكافورا على الخصوص

ابن طباطبا المصرى

هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا العلوى المصرى ، كان نقيب العلويين في مصر ومن أكابر رؤسائها ، وله شعر حسن في الزهد والغزل وغيرهما ومن شعره :
خليلى إني للثريا لحاسد وإني على ريب الزمان لواجد
أبقى جميعا شملها وهى ستة وأفقد من أحبيته وهو واحد
ومن شعره كذلك في وصف طول الليل :

كأن نجوم الليل سارت نهارها فوافت عشاء وهى أنضاء أسفار
وقد خيمت كى تستريح ركبها فلا فلك جار ولا كوكب سار
وكان ابن طباطبا مصنعا يحذو حذو مسلم وأبى تمام في شعره ، وكان من أوصف الشعراء في مصر للطبيعة^(١).

ابراهيم الجيزى

هو ابراهيم بن عبد الله الجيزى اللغوى الإخبارى ، شاعر ، كان كاتب كافور وداعيته ، وكلم كافور بكلم لحن فيه ، وأخذ عليه الحاضرون ذلك فقال :
لا غرو إن لحن الداعى لسيدنا أو غص من دهش بالريق أو بهر
فتلك هيئته حالت جلالتها بين الأديب وبين القول بالحصر

ابن جمدار المصرى

قال عنه الصولى في كتابه د أخبار شعراء مصر : لم يكن بمصر مثله ، وهو كثير الشعر ، حسن البلاغة ، عالم ، له ديوان شعر ، ومكائبات كثيرة^(٢) ، واسمه أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار ، وكان مختصا بالدولة الطولونية ، وقتل سنة ٢٦٨ هـ ومن شعره قوله :

يا رب لى ألف ذنب إن تعف يا رب فاعف جما

(١) راجع المغرب ٤٩ - ٥١ ، وابن خلكان ١ : ٤٠ ، ومطالع البدور ١ ٣٦

(٢) ١٥ : ٥ معجم الأدباء .

فأبرد يصفو غليل قلب كأن فيه رسيس حمى
وفي شعره صنعة كثيرة ، لا تخفى على القارى .

منصور الفقيه

شاعر مصرى فقيه مؤلف ، اسمه منصور بن اسماعيل بن عمر التيجي المصرى
ترجم له ابن خلكان (١) وياقوت (٢) ، وفي شعره جزالة وقوة ، ومن شعره قوله :
عاب التفقه قوم لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ماضر شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر
وقد ولد في رأس العين بالجزيرة وقدم مصر صغيرا وأخذ فيها جميع علومه
ونظم فيها جل شعره ، ومات سنة ٣٠٦ هـ .

شعراء وفدوا إلى مصر

من هؤلاء : الناشئان الأكبر والأصغر ، وقد عاش الناشئ الأكبر في مصر
يدرس العلوم ومات سنة ٢٩٣ هـ واسمه أبو العباس عبدالله بن محمد وكان ميلاده
بالأنبار ، أما الناشئ الأصغر فاسمه علي بن عبدالله بن وصيف وكان بارعا في علم
الكلام ، وكان المتنبي وهو صبي يحضر مجالسه في السكوفة ووفد على سيف الدولة
ومدحه ، وقصد كافورا بمصر مادحا له وكان يتادم ابن حنابلة ويمدحه وتوفى سنة
٣٦٦ هـ ببغداد ومن شعره ما قاله في معاملة الصديق :

إني لهجرني الصديق تجنبيا فأريه أن لهجره أسبابا
وأخاف إن عابته أغريته فأرى له ترك العتاب عتانا
وإذا بليت بجاهل متعاقل يدعو المحال من الأمور صوابا
أوليته منى السكوت ، وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر كشاجم أبو الفتح محمود بن الحسين وهو
من الرملة وكانت خاضعة لحكم مصر ، وزار مصر مرارا وهو القائل :
قد كان شوقى إلى مصر يورقنى فالיום عدت وعادت مصر لى دارا

وكان يلهو بمصر ، ويقضى أيامه في الأديرة . وقد هجا كشاجم كافورا أخيرا ،
وهجا القاضي عبدالله بن محمد الخصيب م ٣٤٧ هـ ، وكان يقول عن نفسه :

على أنى نبي الشعر قد جئت على فترة
ووفد على مصر كذلك الشاعر أبو الفيض سوار بن شراعة وكان صديق
ابن الداية ، وهو الذي أذاع شعر ابن الداية في العراق .
هذا ومن نماذج الشعر في هذا العهد هذه الأبيات ، التي قالها أبو الحسن محمد
ابن الوزير الحافظ وكان قد أهدى إلى الإخشيد خاتما :

وذى عنق لم يطل عليه ولم يقصر
ومتنين قد خصرا على قدر الخنصر
وقد زاد في ضميره على الفرس المضمهر
وأسفله فضة وأعلاه من جواهر
بعثت به مسرا إلى ملك موسر
ولا غرو أن يهدى إلـى محفل إلى المكثـر

الأدب في ظلال الدولة الفاطمية

٣٥٨ - ٥٦٧ = ٩٦٨ - ١١٧١ م

تمهيد

ظلت شيعة على كرم الله وجهه بعد مقتله تتوارث الدعوة إلى خلافة آل البيت ، لإعادة الملك والخلافة للعلويين ، جيلا بعد جيل ، وسيدا بعد سيد ، ذاهبين إلى أن الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا أن ذلك الإمام هو المهدي المنتظر ، الذي يبني المقتضيين ، ويحيي مجد بيت رسول الله .

وفي عام ٢٨٠ هـ - ٨٩٣ م ذهب أحد دعاة الشيعة ، واسمه أبو عبد الله الشيعي إلى بلاد البربر بشمال إفريقيا ، داعيا لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، فنجح في دعوته ، وطرد الأمير الأغلي الحاكم لتلك البلاد ، التابع للدولة العباسية ، وذلك عام ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م ، وأعلن أن الخليفة الحقيقي للسادين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه عبید الله ، الملقب بالمهدي ، من نسل السيدة فاطمة بنت الرسول ، ولذلك سميت سلالة بالفاطميين .

وبذلك قامت الدولة الفاطمية ، وحكم عبید الله بلاد المغرب ، وظل ملكا عليها مدة كبيرة (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ - ٩١٠ - ٩٣٤ م) كان الأمر فيها كله بيده ، وأخضع قبائل العرب والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالي على جزيرة صقلية ، وجاهد في سبيل نشر الدين ومحاربة البدع في تلك البلاد ، وكان من أكبر أمانيه فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش ، ولكنها أخفقت ، وشغل عبید الله بالأمور الداخلية باقي حياته حتى أدركه الموت .

وفي عام ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م خلفه ابنه الأكبر القائم بأمر الله د أبو القاسم محمد ، فبذل غاية همته في توسيع نطاق ملكه ، وأرسل أسطولا أغار على شواطئ إيطاليا وفرنسا والأندلس ، وأرسل جيشا إلى مصر هزمه الإخشيد ، ووطد ملكه في شمال إفريقيا .

وخلفه المنصور إسماعيل ، سنة ٣٣٣ هـ - ٩٤٥ م ، فسار في الملك سيرة أبيه نحو سبع سنوات .

ولما مات خلفه ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد ، سنة ٣٤١ هـ - ٩٥٣ م ، فكانت أيامه ، بدأ عصر جديد في تاريخ الفاطميين ، وكان مثقفا ثقافة عالية ، سياسيا داهية ، وطد ملكه في بلاد المغرب ، فدانت له جميع رؤساء القبائل المغربية ، وخضعت له مراکش بأكملها حتى شواطئ المحيط الأطلسي . . ثم صرف همه لفتح مصر ، خفر الآبار ، وبني أماكن للاستراحة في الطريق الموصل إليها ، وكانت مصر وقتئذ في اضطراب لحقها عقب وفاة كافور ، ولم يكن في وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصد غارات القرامطة ، وكان دعاة المعز ينشرون دعوتهم في أنحاء كثيرة من القطر المصري . . . ووكّل المعز قيادة الجيش الفاتح إلى أكبر قواده ، وهو جوهر الصقلي الرومي الأصل ، وكان تحت إمرته مائة ألف مقاتل مزودين بالآلات الحربية ، وبالمال الكثير .

جوهر الصقلي فاتح مصر :

ولد جوهر بجزيرة صقلية نحو عام ٣٠٠ هـ ، ومع أنه رومي الأصل إلا أنه نشأ في صقلية نشأة إسلامية خالصة ، فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، ويرجح المؤرخون أن أباه كان مسلما (١) .

وانصل جوهر ببلاط المعز ، ويبدو أنه كان في حاشيته العسكرية ، وقد قربته الخليفة الفاطمي ، لما توسمه فيه من الإخلاص للدين ، ولمواهبه الفذة وثقافته الواسعة ، وظل يتدرج في سلك المناصب في دولة المعز ، حتى اتخذ المعز كاتباً له عام ٣٤١ هـ - ٩٥٣ م ، وهي السنة التي ولي المعز فيها الخلافة ، ثم رفاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ ، وولاه قيادة جيش كشف لتوسيع ملك المعز في شمالي إفريقيا ، وقد انتصر جوهر ، وتوغل في فتوحه حتى وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي .

ولما فكر المعز في فتح مصر أسند لجوهر قيادة الجيش الفاتح ، ولما رحل جوهر من القيروان إلى مصر في يوم السبت ١٤ ربيع الثاني عام ٣٥٨ هـ - فبراير

(١) تاريخ جوهر الصقلي لعلي إبراهيم حسن ط ١٩٣٣

٩٦٩ م ، خرج الخليفة لتوديعه بنفسه ، وقال : والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ، ولیدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولینزلن فی خرابات ابن طولون ، وینبئ مدينة تقهر الدنيا ، وأنشد ابن هاني الأندلسي المعز قصيدته :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع	وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله	فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع	ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له	غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائنا	وإن سارعن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث محله	وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا	وظل السلاح المنتفض يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله	ورق كما رق الصبح الملسع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة	بأيمن فال بالذي أنت تجمع
فإن يك في مصر ظاء لمورد	فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر إلى بركة ، ومنها سار حتى دخل الاسكندرية في رجب ٥٨٨هـ ، ثم استمر في سيره فدخل مصر وقت الزوال من يوم الثلاثاء ١٧ شعبان عام ٥٨٨هـ بناء على صلح عقد بين المصريين والفاطميين ، وجاء في وثيقة الصلح الرسمية^(١) : أنه يتعهد به نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفي الأذى ورفع الحزن ، والقيام في الحق ، وإعانة المظلوم ، مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبة ، ولطف العشرة واقتداد الأحوال ، وحيطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم الخ .

واتصل نبأ الفتح بالمعز فسر سرورا عظيما ، ونظم ابن هاني أمامه قصيدته :
تقول بنو العباس . هل فتحت مصر ؟ فقل لبني العباس : قد قضى الأمر
وأخذ جوهر يعمل على بث الدعوة للمعز الفاطمي في مصر خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة ، واختط مدينة القاهرة المعزية ، وبني الأزهر الشريف ، وصار جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر مراكز للدعاية لعقائد العلويين

الفاطميين ودعوتهم ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تزداد على يدى داعى الدعوة ومن كان يعاونه من الدعاة .

خطب للمعز فى جامع عمرو فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م ، وكان ذكر المعز فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسى حادنا خطيرا فى تاريخ مصر ، وفى يوم الجمعة ١٨ من ذى القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت وزاد فى الخطبة : اللهم صلى على محمد المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين ، . . . وفى يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ صلى جوهر بجامع ابن طولون وأذن المؤذنون : « حى على خير العمل » . . . أما الجامع الأزهر فقد كان أهم مركز للدعوة الفاطمية .

ولا ننسى أن نذكر أن جوهر قد وضع أساس المدينة الجديدة « القاهرة المعزية » فى الليلة التى دخل فيها مدينة الفسطاط ، أى فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ - ١٧ يوليو ٩٦٩ م وأقام فيها قصر الخليفة المعز ، وضع أساسه فى اليوم التالى . . وتشمل القاهرة المعزية على مارواه المقرزى أحياء : الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشمرية والموسكى والفورية وباب الخلق ، وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ، وكانت بولاق هى ميناء القاهرة ، وقد أصبحت بولاق بعد ذلك بمدة كبيرة مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ هـ ، عندما أمر الملك الناصر بعمارها وبنى بها الدور على شاطئ النيل فسكنها الناس وعمروها . وقد جعل جوهر للقاهرة أربعة أبواب هى بابازويلة وباب النصر وباب الفتوح .

وبعد ذلك رحل المعز من مدينته المنصورية (١) ، ودخل القاهرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ - نصف يونيو ٩٧٣ م ، وظل ملكا على مصر حتى توفى عام ٣٦٥ هـ ، وتوفى بعده جوهر بمدة كبيرة ، وذلك عام ٣٨١ هـ (٢٠ : ١ ابن خلكان) .

(١) راجع الحديث عنها فى كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » للمقرزى ٣٦٦ ج ١ . وهذا الاسم أطلقه اسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين على مدينة « صبرة » وتصل بالقيروان ، وقد بناها المنصور الفاطمى فى سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورية (ص ٢٥ البكرى) .

المعز الملك الفاطمي :

هو الخليفة الفاطمي الرابع ، ينتسب إلى رسول الله عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ، وإلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول .

ولد بمدينة المهديّة قرب القيروان ، وهي عاصمة الفاطميين ، وذلك في ١١ رمضان سنة ٣١٧ هـ ، وأمه أم ولد . وربى تربية عالية ، وكان ولي عهد أبيه المنصور ، وولى الخلافة عام ٣٤١ هـ . . وفي عام ٣٤٨ فتحت جيوشه بقيادة جوهر مصر .

خرج المعز من المنصورية دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال عام ٣٦١ هـ :
٥ أغسطس عام ٩٧٢ . . ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان ٣٦٢ هـ :
٢٩ مايو ٩٧٣ م .

وقد دخل القاهرة عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م ، وتوفي في ١٤ ربيع الثاني ٣٦٥ هـ - ٢٠ ديسمبر ٩٧٥ م ، بعد أن وسع دولته ، وصيغها بصيغة عالية من الحضارة والرق والنهضة ، وكانت القاهرة بعد إنشائها عاصمة ملكه الضخم .
كان نقش خاتم المعز يحمل شعار دولته وهو : «لتوحيد الإله الصمد دعا الإمام معد ، لتوحيد الإله العظيم دعا الإمام أبو تميم» .

وقد وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين : أحدهما مصرى والآخر مغربى .. وكان عهده على قصره من أزهى عصور مصر وأزهرها ، وزادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة إذ ذاك تسمى : « المدينة » ، وكانت في الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولو احقهما : بها من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة ، وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفي لاستعراض ١٠٠٠٠ جندي ، وكان ثروة الأسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق ما يتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت وراءها ما يعادل ٢٠٠٠٠٠ ديناراً ، وأخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير كثيرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضى مطعم . وقد بذل المعز غاية وسعه في استجلاب محبة الناس واحترامهم له ، بعدله ، وحسن إدارته - التفاته إلى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليلج ، وزاد من محبتهم له إرساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء في المدينة بعد الغروب ، اجتناباً لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألقى

نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التي كانت تلحق بالبلاد من وراء أربابهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين .

وكان للمعز عدة أبناء ، ومن بناته رشيدة بنت المعز ، وعبدية بنت المعز^(١) .

وقد خلف المعز ابنه العزيز بالله أبا منصور نزار^(٢) ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ : ٩٧٥ م ، وكان يعقوب بن كلثوم وزيراً له .

وبعده تولى حكم مصر الحاكم بأمر الله أبو علي منصور ٣٨٦ - ٤١١ هـ : ٩٩٦ م ، وقد مات مقتولاً .

وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي ٤١١ - ٤٢٧ هـ : ١٠٣٦ م .

وتولى بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ : ١٠٣٦ م . وظل الفاطميون يتوارثون حكم مصر^(٣) ، حتى انتهى ملكهم منها عام ٥٦٧ هـ .

تشيد الأزهر :

الأزهر بيت العلم العتيق ، ومثابة الثقافة الإسلامية ، حمل لواء المعرفة في مصر وفي الشرق الإسلامي قروناً متصلة ، وحفظ التراث الإسلامي ديناً ولغة من عادات الزمن ، ونشره على الآفاق ، ولم يبتل به على أي طالب علم قصده من مشارق الأرض أو مغاربها . وقد ظل الأزهر طوال ألف سنة — وما يزال حتى اليوم — كعبة العلم والدين ، ومعقد آمال المسلمين ، وقد تخرج فيه أفواج وأفواج من جنة العناء وانتشروا في بقاع الأرض ، وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التي تزودوا بها في الأزهر ، فأضاءوا الأرض علماً ونوراً وتقى .

(١) ١١٤ هـ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان .

(٢) ولد في المهديّة عام ٣٤٤ هـ .

(٣) وهم : المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، والآخر بأحكام الله المنصور

(٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، ثم الأمر بأحكام الله عبد المجيد (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ،

ثم الظاهر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) ، ثم الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) ، ثم العاضد

(٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) ،

(٦٠ - ٦١ هـ)

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي ، المعز لدين الله ،
وشرع في بنائه يوم السبت لست يقين من شهر جمادى الأولى (١) سنة ٣٥٩ هـ
(٩٧٠ م) ، وكمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ - ٢٢ يونيو
٩٧٢ م ، وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة
الفاطمية ، ومنبراً للدعوة التي حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر . وقد كتب
بدائرة القبة التي في الرواق الأول وهي على عيني المحراب والمنبر ما نصه بعد
البسملة : بما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير
المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر
الكتاب الصقلي ، وذلك في سنة ستين وثلاثمائة .

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر ، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتسب
لها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور نفخة ، تسمى بالقصور الزهراء ،
أو لأنه يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع فخامة ورواء ، أو للتغافل بأنه
سيكون أعظم المساجد ضياء ونورا .

وضع يوم السبت ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ الحجر الأساسي له ، وظل
العمال والمهندسون يعملون في بنائه عامين تقريبا حتى جاءت أول جمعة رمضان سنة
٣٦١ هـ ، جمعت فيه ، باحتفال رسمي هائل ، تجلت فيه أبهة الملك وسؤدده
وعظمته ، التي اشتهر بها الفاطميون أكثر من سواهم . ويصف المقرئ لنا هذا
الاحتفال وصفا شائقا يفيض روعة وجلالا .

وبعد أن استقر سلطان المعز ، وتم بناء المعقل الذي أقامه للدعوة ، أفرغ
جهده في إحكام دولته وتنظيمها ، ووفق في ذلك أكثر توفيق وقطع المعز الفاطمي
كل علاقة بينه وبين الخليفة العباسي ، وقضى على كل صلة روحية له في مصر ،
فقصر التدريس في الأزهر على المذهب الفاطمي في الفقه ، وتعاليم الفقه ، وتعاليم
الشيعية في الدين والفلسفة والتوحيد ، واستجلب لهذه الدراسة أكابر العلماء
وفطاحل الفقهاء في عصره ، وكان عددهم ثلاثين عالما ، أجزل لهم العطاء وبني لهم
منازل نفخة ألحقت بالأزهر فيما بعد ، وصارت من أرواقه ، وشرعوا يدرسون

(٤) يذكر بعض المؤرخين أنه شرع في بنائه في يوم السبت الرابع من شهر
رمضان عام ٣٥٩ هـ (٢٧٣ ج ٢ المقرئ ، ٣٦٤ ج ٣ القلشندي) .

ويتفقون في مذاهب الفاطميين وتعاليمهم ويهدمون بذلك المذاهب الأخرى التي كانت شائعة في بغداد مقر الخلافة وسائر البلاد الإسلامية ، وكانت هذه النجبة الممتازة من الأساتذة وعلى رأسها كبير العلماء د أبو يعقوب قاضي الخندق ، سببا من الأسباب التي جعلت الأزهر يصبح قبلة كل طالب من أقاصي الأرض بعد أن ذاع صيته في الآفاق . وذكر المقرئ أن أول مدارس في الأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة ، فإنه في صفر سنة ٣٦٥ هـ جلس قاضي مصر د أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد بن حيون ، وأملى مختصر أبيه في الفقه على مذهب أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاقصار ، وكان جمعا عظيما أثبت فيه أسماء الحاضرين . . فكان الأزهر على ذلك ظل معطلا منذ افتتاحه أربع سنوات من التدريس حتى جاء صفر سنة ٣٦٥ هـ وافتتحت الدراسة فيه بإجتاع عظيم حضره كثيرون ، وقيدوا أسماءهم .

واستوزر (المعز) وابنه (العزيز) من بعده الوزير يعقوب بن كلس (١) ، وهو يهودي الأصل ثم أسلم ، ولعل الخليفة تخيره لما اشتهر عن اليهود من الخندق في الدعاية وإتقانها ، وقد نشط الوزير فألف كتابا في الفقه ، يتضمن ما سمعه من الخليفة المعز وابنه من بعده . وهذا الكتاب محبوب على أبواب الفقه الفاطمي ، وكان يقرؤه على الناس ، وكان يجلس بنفسه يوم الجمعة يقرأ على الناس في مجلس خاص به مصنفاته ، كما كان يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل .

وهكذا اتخذ الأزهر أول ما أنشئ مسجدا لعبادة الله والدعاية للفاطميين ودولتهم ، ثم عقدت في جنباته حلقات الدروس العامة ، فكان الأساتذة من فقهاء الشيعة يجلسون لإلقاء دروسهم على كل من يحضرها في الفقه واللغة والأدب والمنطق والطبيعات والرياضيات .

وأول كتاب قرئ في الأزهر على ما ذكرناه هو د الاقصار ، في فقه آل البيت

(١) كان يعقوب يهوديا ، ولد في بغداد ورحل إلى مصر عام ٣٣٤ هـ واتصل بكافور ، وأسلم في شعبان عام ٣٥٦ هـ ثم سار إلى المغرب واتصل بالمعز ، وكان رائدا لجيشه في فتح مصر وظل وفيها لدولة المعز إلى أن ولي الوزارة بعده (٣٩١-٣٩٧ ج ٣ ابن خلكان) .

لأن حنيفه النعمان بن أبي عبد الله بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله ، وكان مالكي المذهب ثم انتحل المذهب الاسماعيلي فأخص له ، وكان من دعائم الدعوة الفاطمية . وكتابه « الدعائم » من أصول المذهب الاسماعيلي ، ونهج على منهاجه الوزير يعقوب بن كلس في كتابه « مصنف الوزير » وله كتاب اسمه « مختصر الآثار فيما روى عن الأئمة الأطهار »^(١) ، ومن كتبه أيضا : « الينبوع » والمجالس والمسائرات . وتوفي النعمان هذا في شهر جمادى الآخرة عام ٣٦٣ هـ ، وصلى عليه المعز لدين الله .

وكان يتولى دراسة كتاب « الاقتصار » في الأزهر ابن النعمان واسمه أبو الحسن علي بن النعمان^(٢) . . وكتبه الأخرى كان بعضها يقرأ في الأزهر ، والبعض الآخر يقرأ في حلقات خاصة للذين يريدون التخصص في فقه الشيعة والدعوة الفاطمية .

وظل الجامع الأزهر بمثابة الحلقات الدروس يلقيها بنو النعمان حتى سنة ٣٦٩ هـ ، إذ بدأت حلقات الأزهر تتحول إلى دراسة جامعية منظمة مستقرة ، فقد بدأ يعقوب ابن كلس وزير المعز لدين الله يقرأ بانتظام فيه كتابه المعروف بالرسالة الوزيرية في الفقه الشيعي ، وكان يجلس بنفسه لقراءته في الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع لسماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر ورجالات الدولة والدعوة ،

(١) منه نسخة خطية في الفاتيكان رقم ٥ - ١١٠٤ .

(٢) كان علي شيعيا غالبا ، وشاعرا مجودا (٤٨ ج ٣ شذرات الذهب) وتوفي أبو الحسن هذا عام ٣٧٤ هـ - فولى القضاء بعده أخوه أبو عبد الله محمد وتوفي عام ٣٨٩ (٥٥ ج ٤ ابن خلدون) .

ولأن الحسن علي بن النعمان شعر في اليتيمة (٣٨٤ و ٣٨٥ ج ١) . . وكذلك لأخيه القاضي أبي عبد الله محمد بن النعمان شعر (٣٨٥ و ٣٨٦ ج ١ اليتيمة) . وكان أبو الحسن علي بن النعمان أول من لقب بقاضي القضاء في مصر (٩١ ج ٢ حسن المحاضرة) .

وكان علي بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثاني خلفاء دولة هذا المذهب بمصر ، إلى أن قلد القضاء بالديار المصرية ، والشام ، والحرمين ، والمغرب ، وجميع مملكته .

وكانت تمتاز حلقات ابن كلس بتحررها من القيود الرسمية ، واتجاهها نحو الاهداف العلمية ، وبذلك كانت أول مجالس جامعية عقدت بالجامع الأزهر .

وفي عام ٣٧٨ هـ - ٩٨٨ استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيها ، وكان رئيسهم ومنظم حلقاتهم هو الفقيه أبو يعقوب قاضي الخندق ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية وأنشأ لهم دار للسكنى بجوار الأزهر ، وخلق عليهم في يوم الفطر ، وأجرى عليهم ابن كلس أيضاً رزقا من ماله الخاص (١) .

وفي عام ٣٨٠ هـ رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر ، وبذلك صار الأزهر معهدا جامعيًا للعلم والتعليم والدراسة ، وكان هؤلاء الأساتذة الذي رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله أول الأساتذة المدرسين الذين عينوا بالجامع الأزهر الشريف ، ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته الجامعية العلمية الصحيحة . . وفي الحق أن هذا يدل على أن ابن كلس كان وزيرا عظيما وعالما جليلا وأديبا كبيرا .

وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم في سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء (٢) ، وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك في أعمالها . ويفتقد العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن في التأليف والكتابة فوضع كتابا في القراءات ، وكتابا في الفقه ، وكتابا في آداب رسول الله ، وكتابا في علم الأبدان والصحة ، ومختصراً في فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله . وهو المعروف بالرسالة الوزيرية . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصالحهم ، وكانت مواعيد دائمة منصوبة معدة للوافدين ، وكان كثير الصلوات والإحسان ، وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم الأديب مفخرة في جبين عصره ، وقد أشاد شعراء العصر بجلاله وجوده ، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة في يده :

يد الوزير هي الدنيا فإن أملت رأيت في كل شيء ذلك الأمل

(١) صبح الأعشى عن المسيحي ٣٦٧ ج ٣ ، وخطوط المقرئ ص ٤٩ ج ٤ .

(٢) تاريخ الأزهر لعنان .

تأمل الملك وانظر فرط علته من أجله واسأل القرطاس والقلبا
ومرض ابن كلس في شوال سنة ٣٨٠ هـ ، فخرج عليه العزيز أيما جزع ، ولبت
يعوده وبرعاه ، حتى توفي في الخامس من ذي الحجة ، فحزن عليه حزناً شديداً ،
وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر إلى داره في موكب صامت
محزن ، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه ، ووقف حتى تم دفنه وهدويكي بدمع غزير ،
واحتجب في داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته ، والحزن يشمل الخاصة والقصر كله ،
وأفاض الشعراء في رثاء الوزير الراحل ومدبحه ، فوصلهم العزيز جميعاً ، وعلى الجملة
فقد سما ابن كلس في ظل الدولة الفاطمية إلى أرفع مكانة . . ومهما كان فإن تلك
الخطوة الأولى في ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة ،
كان لها أثر كبير في تطور الغاية التي علقها الخلافة الفاطمية بآدى . ذى بدء على
إنشاء الجامع الأزهر ، فقد كانت هذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع
الجديد رمز الخلافة الجديدة ومثراً لدعوتها (١) .

ابتدأ الأزهر حياته العلمية المنظمة بخمسة وثلاثين طالباً . ولم يشجع هؤلاء
بما رأينا نحسب ، بل كان هناك لون آخر من ألوان التشجيع ، فيحدثنا المقرئ
أن العزيز بالله دخل عليهم في يوم عيد فطر وحملهم على بقلات ، . ولم يكن الأزهر
في ذلك العهد مقصوراً على الرجال نحسب ، بل كان للمرأة نصيب فكان يفسردن
فيه بمجلس خاص (٢) .

وهكذا آلت تلك الحركة العلمية الميمونة إلى الأزهر ، وازدهرت فيه وترعرعت
حتى تخرج فيه أئمة فضلاء ، وشيوخ أجلاء ، خدموا الإسلام والمسلمين بالتأليف
تارة ، وبالتدريس أخرى ، حتى أصبح مفخرة العالم الإسلامى عامة ، ومصر خاصة .
ولقد عالجت هذه الجامعة الكبرى علوم الدين ، فسرت سبلها ، وأكثرت
كتبها ، واهتمت بشئون اللغة العربية ، فهدبت طرقتها ، وأصلحت شأنها ، وبقيت
على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، مضطلة بهمتها ، حتى نبه ذكرها وذاع

(١) راجع في هذا البحث وما يتعلق به : خطط المقرئ (الطبعة الأهلية)
ج ٤ ص ٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ج ٣ ص ٧ - ١٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ،
والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٣ .
(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ .

صيتها ، وأمهسا الطلاب من كل فج ، ليفتروا من منهلها ، ويستضيئوا بنورها ،
وانحدر إليها العلماء من كل صوب ، ليسموا في النفع بها ، ونشر آثارها ، فازدهرت
فيها أنواع العلوم والفنون ، وأمدت العالم الإسلامي بما هو في حاجة إليه .

ولقد كان الأزهر الشريف منذ نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين : يتعهدونه
بالعناية والرعاية ، ويفدقون على من به من العلماء والطلبة العطايا والهبات ،
ويذهبون إليه بأنفسهم للصلاة والوقوف على حاله ، مما كان له الأثر البالغ في
حفز همم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للعلم .

وكان المسجد منذ نشأته يسمى جامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة ، وقد تكون
تسميته بالجامع الأزهر قد تأخرت قليلا عن التسمية الأولى ، ويرجح عنان^(١)
أن اسم الجامع الأزهر أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية في عصر العزيز
بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة
وهو مسجد الدولة الرسمي اسم الجامع الأزهر ، واستمر مسجد القاهرة الجامع
يعرف باسم جامع القاهرة^(٢) أو الجامع الأزهر ، حتى عصر المقريني في أوائل
القرن التاسع ، ثم تقلص الاسم القديم - جامع القاهرة - شيئا فشيئا وغاب عليه
اسم الجامع الأزهر ، أو جامع الأزهر حتى عصرنا .

إنشاء المكتبات :

هذا وقد عنتت الدولة الفاطمية عناية خاصة باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات
العظيمة ، وكان بالقصر الفاطمي مكتبة جامعة يفيض المؤرخون كما يقول عنان في
وصف عظمتها ونفاسة محتوياتها ، وكان بها ما يزيد على مائتي ألف مجلد في سائر
العلوم والفنون ، في الفقه والحديث واللغة والتاريخ والأدب والطب والكيمياء
والفلك وغيرها . وقال ابن أبي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر :
« ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن

(١) ٢٠ تاريخ الجامع الأزهر لعنان .

(٢) ورد في أخبار العزيز بالله أنه أقام طعاما في جامع القاهرة - وهو الأزهر
الشريف - لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان .

في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ، (١) . وكان بدار الحكمة مكتبة أخرى يرجع إليها الأساتذة والطلاب ، وبها عدد كبير من الكتب الفلسفية والرياضية والروحانية وغيرها مما يتصل بدروس الحكمة (٢) وكانت في الواقع خلفاً لمكتبة الاسكندرية الشهيرة . وكان للجامع الأزهر مكتبة خاصة به ، وكانت المساجد الجامعة تزود في هذه العصور بمجموعات من الكتب ولا سيما كتب الحديث والفقه . ولكن يوجد ثمة ما يدل على أن الأزهر كان له من خزانة الكتب نصيب حسن ، إذ كانت له مكتبة كبيرة ذات أهمية خاصة .

إنشاء دار الحكمة :

وفي عصر الحاكم (٣) استمر الأزهر يؤدي مهمته العلمية ، وإن كان الأزهر فوجي . بإقامة الخليفة جامعة جديدة سماها « دار الحكمة » أو دار العلم الشهيرة في سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م .

ولكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التي أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية ، ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة ، فإنها لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها في الشؤون المذهبية ، أن اضطربت أحوالها ، وضعف نفوذها العلمي ، هذا بينما كان الأزهر يسير في سبيل حياته الجامعية الوليدة بخطى بطيئة ، ولكن محققة ، ويسير في نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التي كادت في البداية أن تقضى على صبغته الجامعية الصحيحة . وكانت دار الحكمة يدرس فيها علوم الدين والأدب والفلسفة والطب والنجوم والرياضة .

وقد وقف الحاكم وقفية على الأزهر ودار الحكمة وغيرهما من المساجد ، ومنها : جامع الحاكم ، وجامع المقس ، وجامع راشدة ، لإقامة الشعائر الدينية فيها ،

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣-٢٥٥ . ولعله لم يقف المكتبة الفاطمية في ضخامتها سوى مكتبة قرطبة الشهيرة التي بلغت ذروتها في عهد الحكم المستنصر بالله . وقدر ما بها يومئذ من الكتب بستائة ألف مجلد .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ و ٢٣٤ .

(٣) ولد بالقاهرة عام ٣٧٥ هـ وتولى الخلافة عام ٣٨٦ هـ وقتل عام ٤١١ هـ .

وصيانة مبانيها ، ولبثت دار الحكمة تنافس الأزهر قرنا من الزمان ثم أغلقت
وكان من أساتذتها الرحالة الفارسي ناصري خسرو .

أعلام الثقافة في العصر الفاطمي :

من علماء المغاربة الذين حضروا إلى مصر : النعمان بن محمد الذي تولى القضاء
في مصر هو وأولاده وأسرته عهداً طويلاً في ظلال الحكم الفاطمي ، وكانت هذه
الأسرة تقوم بالقضاء والدعوة والتأليف في المذهب الشيعي ، وتتخذ من الأزهر
مكاناً مختاراً لنشاطها العلمي ، وكذلك ابن كلثوم الذي أشرف على تنظيم الأزهر
تنظيماً جامعياً علياً عالياً .

ومن أشهر العلماء الذين شهدوا عصر المعز والعزير : ابن زولاق المصري
المؤرخ^(١) (٣٠٦ - ٣٨٧ هـ) ، وعبد الغني المصري (٣٣٢ - ٤٠٩ هـ) وكان
حافظ معز في عصره^(٢) ، والحسن بن الهيثم المصري الفيلسوف^(٣) واشتهر بعد
عصر العزيز وتوفي عام ٤٣٠ هـ ، وابن يونس المصري المنجم المتوفى عام ٣٩٩ هـ^(٤) ،
والخوفي النحوي المتوفى عام ٤٣٠ هـ^(٥) ، والأدفي تليذ النحاس وتوفي عام
٣٨٨ هـ .

ومن الأدباء والشعراء في هذا العهد أبو الرقعة المتوفى عام ٣٩٩ هـ الشاعر^(٦)
وابن وكيع الشاعر المتوفى ٣٩٣ هـ^(٧) ، والتهامي الشاعر المتوفى عام ٤١٦ هـ^(٨)
والمسبحي المصري الكاتب (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ)^(٩) ، وأبو القاسم^(١٠) عبد الغفار
شاعر دولة العزيز والحاكم وقتله الحاكم عام ٣٩٥ هـ .. ولا شك أن هؤلاء الأدباء
والشعراء كانوا يحفلون بإلقاء ثمرات قرائحهم على تلاميذهم في حلقات الأزهر

-
- (١) ٢٣٨ ج ١ ابن خلكان ، ٢٢٥ - ٢٣٠ ج ٧ معجم الأدباء . . وله كتاب
في سيرة المعز وآخر في سيرة العزيز . (٢) ٥٢٧ ج ١ ابن خلكان .
(٣) ١١٤ و ١١٥ أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي .
(٤) ٨٥ و ٨٦ ج ٢ ابن خلكان . (٥) ٦ ج ٢ المرجع نفسه .
(٦) ٧ و ٧١ ج ٢ المرجع نفسه ، ٣١٠ - ٣٣٤ ج ١ من القيمة .
(٧) ٢٤٣ و ٢٤٤ ج ٢ المرجع نفسه ، ٣٥٦ - ٣٨٤ ج ١ القيمة .
(٨) ٥٣ - ٥٥ ج ٢ المرجع نفسه (٩) ٣٤٢ - ٣٤٣ ج ٢ المرجع نفسه .
(١٠) ٢٩٦ ج ٣ المرجع نفسه .

العلمية الحافظة (١).

ومن أعلام الفكر والأدب في هذا العصر المسيحي الكاتب والمؤرخ الشهير ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحارثي ولد بمصر سنة ٥٣٦٦ هـ ، وتوفي سنة ٥٤٢٠ هـ . وكان من أقطاب الأمراء والعلماء ، تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ، وأخذ بقسط من مختلف علوم عصره ، ومن المعقول أن يكون المسيحي وهو من أولياء الدولة الفاطمية وأقطاب علمائها من أساتذة المعهدين الفاطميين : دار الحكمة والأزهر . وشغف المسيحي بتدوين التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وهو أثر ضخم يتناول تاريخ مصر وما بها من الأبنية والعجائب ، وذكر نيلها وإقليمها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجري ، ولم يصلنا هذا الأثر الذي يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول ، ولكن الشذور التي وصلتنا منه على يد المقيزي وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوء بقيمة هذا الأثر ونفاسته . وكتب المسيحي كتباً أخرى في التاريخ والأدب والفلك واسكننا لم تلتق شيئاً منها (٢) .

ومنهم أبو عبد الله القضاعي للفقهاء المحدث والمؤرخ ، وهو محمد بن سلامة بن جعفر : ولد بمصر في أواخر القرن الرابع ، وتوفي بها سنة ٥٤٥٤ هـ . وكان من أقطاب الحديث والفقهاء الشافعي ، تولى القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا قيصرية قسطنطينية سنة ٥٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ، وكتب عدة مصنفات في الحديث والفقهاء والتاريخ ، منها « الشهاب » ، و « مسند الصحابة » وهما في الحديث وكتاب « مناقب الإمام الشافعي » ، و « أنباء الأنبياء » ، و « عيون المعارف » وهما مختصران في التاريخ ، وكتاب « المختار في ذكر الخطط والآثار » ، وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره (٣) .

(١) ويرى أن النساء كن يحضرن في الجامع الأزهر (٢٢٦ ج ٢ الخطط للمقيزي) . (٢) راجع في ترجمة المسيحي : ابن خلسكان ج ١ ص ٦٥٣ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ . (٣) راجع في ترجمة القضاعي : ابن خلسكان ج ١ ص ٥٨٥ . والسبكي في طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ، وأخبار مصر لابن ميسر في حوادث سنة ٥٤٤٧ هـ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ .

ومنهم الخوفى النحوى اللغوى . وهو أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد ،
وكان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل مدة طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ،
وألف كتباً كثيرة فى النحو والأدب ، منها كتاب إعراب القرآن ، وكانت وفاته
فى سنة ٤٣٠ هـ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين
واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفى سنة ٤٤٥ هـ .
ومنهم الفيروانى المتوفى سنة ٤٠٩ هـ . وابن برى م ٤٩٩ هـ ، والشاطبى م ٥٩٠ هـ
والقزاز .

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى
المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو وألف فيها عدة كتب
ضخمة ، واشتغل حيناً مديوان الإنشاء فى عهد المستنصر بالله وتوفى سنة ٤٦٩ هـ .
ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى تلميذ القضاعى . كان أيضاً من أئمة
اللغة والنحو وتوفى سنة ٥٢٠ هـ .

وابن القطاع النحوى المتوفى عام ٥١٥ هـ .

جوانب من الحياة الفكرية في هذا العصر

كان العصر الفاطمي أحفل عصور مصر القديمة بالعلماء والفكرين والأدباء والشعراء ، وسنذكر بعض هؤلاء ممن لم يسبق ذكرهم في إيجاز شديد :

من الأطباء في هذا العصر أبو الحسن علي بن رضوان وكان طبيباً عالماً بالعلوم الحسكية وما يتعلق بها وتوفي عام ٤٥٣ هـ ، وترك نحواً من مائة كتاب ؛ وكذلك شرف الدين عبدالله بن علي وكان شيخ الطب ومات عام ٥٩٢ هـ .

ومن الفلاسفة أمية بن أبي الصلت الأندلسي^(١) زار مصر سنة ٤٨٩ هـ وظل بها إلى أن نفاه الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥٠٩ هـ ، وله الرسالة المصرية ، وصف فيها مصر جغرافياً ، وعرض لبعض المدن المصرية ، وتحدث عن النيل ومنابعه وزيادته ونقصانه ، وكان مولده عام ٤٦٠ هـ ، وتوفي عام ٥٢٨ هـ .. ومن الفلاسفة كذلك الرشيد بن الزبير الأسواني وكان مع ذلك شاعراً توفي سنة ٥٦٣ هـ ؛ والقبط المصري أبو إسحاق إبراهيم بن علي وله كتب كثيرة في الطب والحكمة قتل عام ٦١٨ هـ .

ومن الأعلام في الفقه المالكي القاضي عبدالوهاب بن علي بن نصر ، مات بمصر سنة ٤٢٢ هـ^(٢) . وكان الحسن بن الخطير من فقهاء الحنفية مات سنة ٥٩٨ هـ ، ونبغ في فن القراءات محمد بن سراقبة الشاطبي (٥٩٢ - ٦٦٣) ودفن بسفح المقطم وقد تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة .

ومن الأعلام في الحديث عبدالغني بن سعيد الأزدي (٣٣٢ - ٤٠٩ هـ) ، وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، والمحدث أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد النعماني (٣٩١ - ٤٨٢ هـ) ، والسافى أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني وكان أوحده زمانه في الحديث (٤٧٠ - ٥٧٦ هـ) . وعبدالغني بن عبدالواحد الحبلي الحافظ

(١) ٢٨٠ : ٦ نفح الطيب .

(٢) ١٢٦ : ١ حسن المحاضرة

(٥٤١ - ٦٠٠ هـ) ، والمنذرى أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (٥٨١ - ٦٥٦ هـ) ، وابن العماد (٦٠٧ - ٦٧٣ هـ) .

ومن النحويين كما سبق ابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ ، وابن القطاع (٤٣٣ - ٥١٥ هـ) ، وهو على بن جعفر بن محمد عبدالله بن الحسين بن أحمد بن محمد ابن زيادة الله بن محمد بن الأغلب السعدي بن ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ابن خفاجة بن عبدالله بن عباد من سعد بن مالك من زيد مناة بن تميم بن مر من مضر المعروف بابن القطاع الصقلي ؛ وكان امام وقته بمصر في علوم العربية وفنون الأدب . ومن كتبه : تاريخ صقلية - الأفعال - أبنية الأسماء - الدرر الخطيرة في شعراء الجزيرة ، دفن بقرب ضريح الامام الشافعي (١) .

الحسن بن الهيثم :

والحسن بن الهيثم من أظهر شخصيات هذا العصر ، وهو مؤسس علم الضوء الذي يعد من العلوم التي اشتغل ببحثها القدماء من مصريين ويونانيين ؛ وذلك لاتصاله بالفلك ، وقد كان إقليدس ، - العالم اليوناني المشهور - يرى أن السبب في رؤية الأجسام هو : انبعاث أشعة من العين تسقط على الجسم المبصر ، والأجسام التي لاتقع عليها هذه الأشعة لاتبصرها العين . وهذا الرأي الخاطيء لم يطله إلا العالم ابن الهيثم ، الذي يعد بحق مؤسس علم الضوء ؛ إذ أن أبحاث القدماء فيه لم تكن وافية ، والموضوعات التي عالجوها لم تعمقوا كثيراً في دراستها . أما بحوث الحسن فقد تعددت نواحيها ، وتعمق في دراستها تعمقاً كبيراً شهد به علماء الإفرنجية ، فترجموا له كتابه عن البصريات أو الضوء المسمى « بالمناظر » . وقد فقد أصل هذا الكتاب العربي ، ولم تبق إلا ترجمته اللاتينية التي قام بها أحد علماء الغرب في أوروبا سنة سبعين ومائتين ألف . ونشرت هذه الترجمة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ألف ميلادية . وللحسن كتب أخرى غير كتاب « المناظر » ، فقد ذكر القفطي في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، أن للحسن نيفاً وستين كتاباً عددها وذكر أسماءها : منها ما يبحث في علم الضوء ، ومنها ما يبحث في علم الفلك . ومنها ما يبحث في الرياضيات ، وفيها المباحث

(١) ٣٣١ و ٣٣٢ بغية الوعاة السيوطي .

المبتكرة التي لم يسبقه إليها أحد ، ومباحث كانت مطروقة من قبل ، فصحبها وتوسع فيها ، وكثير من كتب الحسن في دور الكتب بأوروبا .

ويقص لنا القفطى قصة حياة هذا الرجل فيقول : « الحسن بن الحسن بن الهيثم أبو على المهندس البصرى نزيل مصر ، صاحب التصانيف والتأليف المذكورة في علم الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن ، متفناً فيه ، عالماً بغوامضه ومعانيه ، مشاركاً في علوم الأوائل . أخذ الناس عنه ، واستفادوا منه . وبلغ الحاكم بأمر الله الفاطمى صاحب مصر من العلويين — وكان يميل إلى الحكمة — خبره وما هو عليه من الإتيان لهذا الشأن ، فتأقت نفسه إلى رؤيته ، ثم نقل له عنه أنه قال : « لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته ؛ من زيادة ونقص ؛ فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال ، وهو في طرف الإقليم المصرى . فزاد إلى الحاكم شوقاً ، وسير إليه سرّاً جملة من مال ورغبة في الحضور ، فسافر قاصداً مصر . ولما وصلها خرج الحاكم للقائه ، والتقىا عند قرية على باب القاهرة المعزية ، تعرف بالحندي ، وأمر بإزالته وإكرامه ، وأقام ريثما استراح ، وطالبه بما وعد به من أمر النيل . فسار ومعه نفر من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم ، ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له . ولما سار إلى الإقليم ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهى على غاية من إحكام الصناعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ، ومثالات هندسية ، وتصوير معجز ، تحقق أن الذى يقصده ليس ممكناً ، فإن من تقدمه لم يعزب عنهم غم ما عليه ، ولو أمكن لفعّلوا . فأنكسرت همته ، وضعفت عزيمته ، ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة أسوان ، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعابته وباشره ، واختبره من جانبيه ، فوجد أمره لا يمشى على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ فيما وعده به ، وعاد خجلاً منخذاً ، واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه . « وولاه الحاكم بعض الدواوين . فتولاه رهبة لا رغبة ، وتحقق الغلط في الولاية ، فإن الحاكم كان مستمراً سفاكاً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ، فأخذ يفكر في أمر يتخلص به ، فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا إظهار الجنون والخبيل ، فاعتمد ذلك وشاع ، فأحيط على موجوداته بيد الحاكم ونوابه ، وجعل يرسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه ، وقيد وترك في موضع من منزله . ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم عام اثني

عشر وأربعمائة من الهجرة (١٠٢١ م) ، وبعد ذلك يبسير أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، وخرج من داره ، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام بها متنسكا متصنعا ، وأعيد إليه ماله ، واشتغل بالتصنيف والإفادة : د وللحسن بحوث في الانعكاسات والانكسار ، وهو الذى بين أن كثافة الهواء في الطبقات السفلى أكبر منها في الطبقات العليا ، وأن الهواء لا يمتد من غير نهاية ، وأنه ينتهى عند ارتفاع معين . وبين سبب انكسار الضوء في هذه الطبقات : بما ينشأ عنه أن النجم أو الكوكب الذى يرقبه العين يظهر في موضع أقرب إلى السمت من موضعه الحقيقي ، وعلل كثيرا من الظواهر الفلكية . وأبطل نظرية إقليدس في سبب رؤية الأجسام وعكسها ؛ فقرر أن الشعاع الضوئى يخرج من الشيء المبصر ويقع على العين . وشرح الحسن كيفية حدوث الرؤية ، وبين في ذلك تركيب العين وما يؤديه كل جزء من أجزائها من الأعمال ، ودل على ما كان له من باع طويل ، ودراية بتشريح العين وأجزائها ، وقد مات بالقاهرة عام ثلاثين وأربعمائة هجرية (١٠٣٨ م) ، وكان قد ولد بالبصرة عام خمسة وخمسين وثلاثمائة هجرية (٩٦٥ م) . وبذلك عاش نيفا وسبعين عاماً ، قضاه في خدمة العلوم في عصر كان العرب والمسلمون فيه قادة النهضة العلمية ، ومن تصانيفهم أخذ أهل الغرب وتقدموا . ، وبدأت النهضة في بلادهم .

علماء وأدباء :

ومن العلماء في هذا العصر الطرطوشى صاحب سراج الملوك وتوفى سنة ٥٢٠ هـ بالاسكندرية ، وأصله من الأندلس وكان شاعراً ، قرأ الأدب على ابن حزم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ (١) ، والحافظ أبو الخطاب الأندلسى المحدث (٥٤٧ - ٦٣٣ هـ) ودفن بسفح المقطم ، ويحيى بن سعدون القرطبي من الأئمة المتأخرين في القراءات والنحو واللغة والحديث (٤٨٦ - ٥٦٧ هـ) ، وقد تلبذ على أئمة اللغة والحديث في القاهرة وسواها من العواصم .
ومن الشعراء القاضى الرشيد بن الزبير ، وابن قلاؤس الاسكندرى (٥٣٢ - ٥٦٧ هـ) ، ومن الكتاب أبو المنصور بن نسطورس النصرانى حيث كتب للعزير والحاكم وأبو القاضى النهركى كتب للحاكم ولابنه .

(١) ٢٢٢ - ٢٣٢ : ٦ نفح الطيب نشر فريد رفاعى .

ومن الكتاب كذلك ابن خيران أبو محمد أحمد بن علي ، ولى ديوان الإنشاء بعد أبيه في عهد الظاهر نحو عام ٥٤١٦ هـ وتوفى نحو عام ٥٤٣١ هـ ، ثم محمد بن أحمد بن محمد العميدى وكتب للمستهنصر في صفر سنة ٥٤٢٢ هـ وكان نحوياً لغوياً وتوفى سنة ٥٤٣٣ هـ ، ثم تولى الكتابة بعده علي ديوان الإنشاء أبو الفرج الذهلي وأبو الطاهر النهركي ، ثم ولى الدين المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سنة ٥٤٤٣ هـ .

ومنهم أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن الشيخباز وقد قتل سنة ٥٤٨٢ هـ ، ثم ولى ديوان الإنشاء بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي بعد أن صرف عن الوزارة سنة ٥٤٥٢ هـ ، ثم ولى الديوان الشيخ علي بن منجب بن سليمان الصيرفي (٤٦٣ - ٥٤٢ هـ) ، ثم أبو الفتح بن قادوس المتوفى سنة ٥٥١ هـ ، ومن الكتاب الشعراء أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري ، وعمارة اليمني .

وآخر من ولى ديوان الإنشاء في مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال المتوفى سنة ٥٦٦ هـ .

ومن الأدباء أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي الطبيب الشاعر وتوفى في القاهرة .

النثر الأدبي في العصر الفاطمي

صور من النثر :

١ — من الكتابة السلطانية فصل لابن الصيرفي (١) من كتاب بشارة بالسلامة في ركوب الخليفة الفاطمي إلى مصلى العيد : وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا ، وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة واقتدارها ، وأوجب فيه — رغبة ورهبة — مسارعة النفوس المتخالفة إلى الطاعة وابتدارها ، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر وحافظت على ماتحززه من كريم الثواب وجزيل الأجر ، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة ، وعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرمان وأقوى الأذمة (٢) ، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله ، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه ، وقصد المصلى في كتاب لجبة (٣) ومواكب للتعظيم مستوجبة ، وعزة تتبين في الشائيل والصفحات ، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات ، قد غدت عددها محكمة ، وخيولها مطهمة (٤) ، وذوا بلها (٥) إذا ظمئت (٦) كانت مقومة ، وإذا رويت (٧) عادت محطمة . تتفقد صفائح من انتضيت أنصفت

(١) هو أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي ، كان من شيوخ الكتاب في دواوين الدولة الفاطمية ، وله عدة مؤلفات منها قانون ديوان الرسائل طبع بمصر . وينقل عنه صاحب صبح الأعشى كثيرا من الكتب الديوانية . مات سنة ٥٤٢ هـ .

- (٢) الأذمة : جمع ذمام ، وهو الحق والحرمة .
(٣) الكتبية : الجيش ، ولجبة : كثيرة الجلبة والأصوات لكثرة عددها .
(٤) المطهيم : التام البارع الجمال من كل شيء .
(٥) الذوايل : الرماح الذابلة القنا ، أي الجافة القصب .
(٦) ظمئت هنا : جفت وصلبت . (٧) وإذا رويت : أي من دماء الأعداء عادت بعد الحرب محطمة لكثرة ما طعن بها .
(م — ٧ أدب)

من الجائز الخائف ، ومتى اقتضبت^(١) صلاكان اقتضابها مبيضا للصحائف ، وفي ظلها مفاقل للآئين ، ومجدها مصارع للمنايدين . وهي للدماء هوارق ، وللهامات فوالق ، ولستغلق البلاد مفايح ، ولستفتحها مغاليق . ولما انتهى الى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء ، وأداها أفضل تأدية ، واستنزل رحمة لم تزل بصلاته متبادية ، وانتهى إلى المنبر فركبه ، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه ، ووعظ أبلغ وعظ ، وأبان عما للعامل في نصحه في الدنيا والآخرة من فائدة وحظ ، وعطف على الأضاحي المعدة له ، ففجرها جاريا في الطاعات على فعلها المتبادي ، وأضحت تتوقع التكميل بإنجاز وعيده في الأعادى ، فأنه يقضى بتصديقه . ويمن بتخييله وتحقيقه . وعاد إلى قصوره المكرمة مشكورا سعيه ، مضمونا نفعه ، مرضيا فعله ، مشمولا عبيده منه بما هو أهله . أعلبك أمير المؤمنين ذلك ، فاعلم هذا واعمل به ، وكتب في اليوم المذكور .

٢ — ولابن قادوس^(٢) من فصل له من منشور ، بما كان ينشر على الناس بوفاء النيل في الدولة الفاطمية :

« النعم وإن كانت شاملة للأمم فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولها بشكر تنشر في الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك في النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة : النيل المصرى الذى تبرز به الأرض الجرز^(٣) في أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس^(٤) ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة

(١) في اقتضبت تورية من الاقتضاب بمعنى الاقطاع ، أو بمعنى الخروج من غرض إلى آخر في الشعر أو الكتابة .

(٢) هو القاضي كافى الكفاءة محمود بن أسعد قادوس من رؤساء كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية .

(٣) الأرض الجرز : التى أكل نباتها ، ولم يصبها مطر ، فلم تنبت ثمانية ، أو هى الأرض التى لا تنبت .

(٤) البسابس : القفار الخالية .

بالجواهر واللجين والعقيان . فسبحان من جعله سبباً لإنتشار الموات ، ووفر به مواد الأرزاق والأقوات .

وهذا الأمر صادر إلى الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك ، وخلع على الفاضل فلان أبي الرداد في يوم كذا وكذا ، وطاف بالخلع والتشريفات ، والمواهب المضاعفات ، بالقاهرة المحروسة ومصر على جاری عادته ، وقديم سيرته ، ونودي على الماء بوفائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً ، واستبشر بالنعمة بذلك الخلاق ، وواصلوا بالشكر مواصلة لا تستوقفهم عنها العوائق ، وبدا من مسرات الأمم وإبتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد ، وينيلهم المنال السعيد ، ويقضى لهم بالمآل الحميد . وموصل هذا الأمر إليك فلان ، فاعتمد عند وصوله إليك إكرامه وإعزازه ، وإجمال تلقيه وأفضاله إلى ما جرت به عادة مثله من رجاء وتنويه واحتفاء ، وإكرام واعتناء ، ليعود شاكراً ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

٣ - ومن السجلات التي أنشأها الموفق بن الخلال (١) ، صاحب ديوان الإنشاء ما كتب به عن العاضد بالوزارة لشاور السعدى بعد أن غلبه ضرغام عليها ، ثم كانت له الكرة عليه ، وقد أورده صاحب صبح الأعشى (٢) نقبس منه ما يلى :

إن أمير المؤمنين لما اختصه الله به من المنصب الشريف ، وسما به إليه من المحل الشايع المنيف ، وفوضه إليه من تدبير خلقه ، وأفرده من اتباع أمره والقيام بحقه ، وناط به من المحاماة عن الملة الخنيفية ، والاجتهاد في أن يشمل أهلها بالحالة السنية ، والعيشة الهنية ، وإعائته في إظهار شعارها ، وتأيينه في إظهار علوها على الملك واقتدارها - يبذل جهوده في الاستعانة بمن تقوم به حجة عند الله بالاعتماد عليه ، ويتوق لنفسه في اختيار من يقوم برضا الله في إسناد الأمور إليه ، ويحرص على التفويض لمن يكنى في التدبير ، وتحيط غاية نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير ، قارباً إلى الله بالعمل فيما ولاه بما يرضيه ،

(١) هو أبو يوسف بن محمد الملقب بالموفق صاحب ديوان الإنشاء بمصر أيام الفاطميين (راجع ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ص ٥٣٩) .

(٢) ج ١٠ ص ٣١٠ .

وازدلانا باتباع أمره في كل ما ينفذه ويمضيه ، وقد كان أمير المؤمنين تصفح أولياء دولته ، وعظماء مملكته ، وأكابر شيعته ، وأنصار دعوته ، فوجدك أيها السيد الأجل أكملهم فضلا ، وأقلهم مثلا ، وأتمهم في التدبير والسياسة إنصافا وعدلا ، وأحقهم بأن تكون لكل رياسة وسياسة أهلا ، ففوض إليك من أمور وزارته ، وعول عليك في تدبير مملكته ، وجمع لك النظر فيما وراء سرير خلافته ، فحرت الأمور بمقاصدك السعيدة على إثثار أمير المؤمنين وإرادته ، واستمر أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته ، وشملت الميامن والسعود أتم اشتغال على تفصيله وجملته ، وانحسرت الأدواء ، وذلت بسطوتك الأعداء ، وزالت في أيامك المظالم والاعتداء ، وحسنت بأفعالك الأمور ، وظهر بك الصلاح ، وكان قبل وزارتك قليل الظهور ، فانبسطت الآمال واتسقت الأعمال ، وأقع الضلال ، وأمنت الأهوال ، وخلصت من الرأي السقيم ، وحظيت بالملك المعقم ، وغدا جندها ورعاياها ببركة رأيك في النعيم المقيم^(١) .

٤ — ومن كتاب للامام العزيز بالله نزار الفاطمي إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطي بالشام في سنة ٣٦٧ هـ .

« فبعد ما طمع قادة الحين الغالب ، والقدر الجالب ، وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ، ومنهل وباله ، ورحل من بيسان رحيل من استمجلته البلية ، واستدعته الرزية ، فخل بموضع يعرف بكفر سلام ، كافرا بمحدود الإسلام متجرئا على الله ، محاربا لنجل نبيه عليه السلام ، وأقام بها متلدا في حيرته ، مترددا في سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه ولؤمه ، إلى أن رحل فزل بكفر سابا البريد ، فأنبأ اسمها بما حل به من السوي المبيد ، والحزى الشديد .

وهذا النص يمثل بعض التمثيل حال النثر في هذا الزمن ، فالسجع فيه ملزم ، والبديع فيه قليل ، والأسلوب سهل منسجم .

٥ — وكتب في الدعوة إلى وليمة الكاتب على بن خلف^(٢) :

(١) ٣٢٨/٨ صبح الأعشى .

(٢) من كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية ، وله في مصطلح الإنشاء كتاب « مواد البيان » ، وكثيرا ما ينقل عنه صاحب صبح الأعشى .

ورقة منى - أطال الله بقاء سيدى - وجلسى بمن حله من خدمه، وتركه من صنائع كرمه، فلك مزين بأنجمه . فإن رأى أن يطلع فيه بدرأ بطلوعه ، وينقل قدمه إليهم ، ويكمل نقصهم بتامه ، ويضيف ذلك إلى تليد إنصامه - فعل ، إن شاء الله تعالى .

أسباب رواج الأدب والعلم في العصر الفاطمى:

كان الخلفاء عرباً يهتمون للبلاغة ، وكان الوزراء والقواد والولاة يقدرون الشعر والشعراء . ويميزونهم الجوائز السنية ، وكانت كذلك ثروة الدولة الواسعة سبباً من أسباب رواج الأدب والعناية بأهله ، وقد تم نظام الضرائب الذى وضعه الوزير يعقوب بن كلس فى المحرم عام ٣٦٢هـ؛ فأدى إلى رفع مستوى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وإلى زيادة الخراج .

وقد وصف الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، الذى زار مصر ما بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ هـ ، فى كتابه "سفرنامه" ، أو "زاد المسافر" ، ثروة البلاط الفاطمى وأهله ، وما كانت عليه البلاد من يسر ورخاء ، فقال : "إن القاهرة إلى ذلك الوقت كانت تظهر بمظهر القوة ، حتى فاقت غيرها من مدن العالم الإسلامى فى العظمة وال عمران . فكانت دورها محكمة البناء ، مبنية بالحجر ، يفصل بعضها عن بعض حدائق غناء ، وأسواقها وحوانيتها ملأى بالطرف النفيسة ، والأهالى يرتعون فى رغد من العيش ، وصار الأمن مستتباً ، لا يخشى أحد سلباً أو تعدياً ، حتى كان التجار لا يحفلون بإغلاق حوانيتهم فى الليل . وكانت الفنادق والحوانيت والحمامات ملكاً للخليفة ، ويوجد فى القصر الفاطمى ٣٠,٠٠٠ جارية ، و ١٢ بهواً ، و ١٠ أبواب . وموضع القصر وسط مدينة القاهرة . وأطلب فى وصف الصناعة المصرية فى العصر الفاطمى ، وأوضح أنه لم يجد فى أثناء زيارته للبلاد المصرية ما يحاكيها ولا يداها فى جميع الأقطار التى شاهدها فى أسفاره .

ولم تكن عظمة الفاطميين مقصورة على ما كان يحيط بالخليفة من أمة ونخامة ، وعلى الثروات الطائلة التى استحوذ عليها الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم ، وعلى نهضة مصر الصناعية فى عهدهم ، بل إن عظمتهم تجلت فى مظاهر احتفالاتهم بالأعياء والمواسم . فقد كان الشعب المصرى يحتفل بأعياده ومواسمه فى العصر الفاطمى : بمظاهر الابتهاج فتقام المآرب ، وتنظم الملاحى ، ويتم الناس الفرح والسرور . وفى هذه

الأعياد والمواسم كانت تغناء الشوارع والخوانيت ، ويحمل الفقراء الفوانيس ، مقابل إعطاء كل منهم درهما . كذلك كانت المساجد تغناء بالمشاهل ، وخاصة في ليالي الوقود الأربع . وفي كل ليلة منها كان يعقد بالجامع الأزهر مجلس حافل بالقضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم سائر ألوان الطعام والحلوى . وفي تلك الأعياد والمواسم ، كان الفاطميون يعنون بتنظيم الولائم والأسمعة الرسمية ، وكان الخلفاء يقيمونها في قاعة الذهب . وظلت الأسمعة لا تنقطع من قاعة الذهب في شهر رمضان ، وفي عيدي الفطر والأضحى . وكانت مقادير الأطعمة التى تقدم في هذه الولائم من الوفرة بحيث كانت تعم سائر طبقات الشعب . وفي المواسم الدينية كانت توزع جامات الحلوى ، وطباق الزلاية ، وماء الورد على رجال الدولة ، وكان يصنع في عيد مولد النبي عليه السلام عشرون قنطاراً من الحلوى ، توضع على ثلاثمائة صينية ، وتوزع في الجامع الأزهر . أما الاحتفال بوفاء النيل ، فكان يقام سمط عظيم في سرادق رحب على شاطئ النيل ، يجلس فيه كل من اشترك في الموكب .

وفي هذه الأعياد والمواسم ، كان الخلفاء الفاطميون يهودون على كبار موظفى الدولة بالخلع ، فكانت تقدم الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخى الخليفة ، وذلك في مواسم أول رمضان ، والاحتفال بجبر الخليج ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة من رمضان . كذلك كان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان الذين يحضرون إلى القاهرة حلالاً من الحرير الخالص بعضها مزركش بالذهب ، وهى اليوم أشبه بكسوة التشرىفات . وفي عيد الفطر كانت توزع النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الضيوف والموظفين على اختلافهم . هذا إلى ما كان يمنحه كبار الموظفين في غرة المحرم من النقود الذهبية التى كانت تضرب خصيصاً لهذا اليوم ، وتسمى نقود الغرة ، وهؤلاء الموظفون كانوا يعتبرونها بركة من الخليفة ، وتشبه هذه المرتبات الإعانات التى تمنحها المصارف والشركات لموظفيها في الأعياد .

وكان الخليفة إذا خرج في الموكب في تلك الأعياد والمواسم ، خرج معه أحد الموظفين يحمل كيساً من الحرير ، فيه خمسمائة دينار ، لتوزع في الطريق الذى يجتازه الخليفة على الرجال والنساء ، والقراء الذين يقرؤون القرآن على جانبي الطريق ، فكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود في أكياس خاصة ، في كل منها درهمان أو ثلاثة .

ويمكن القول بأنه لم توجد دولة من الدول التي حكمت مصر، أغدقت على رمضان ما أغدقته الدولة الفاطمية. ولا عجب في أن تبالغ الدولة الفاطمية في الكرم في ذلك الشهر، فقد كانت شهراً مباركا عليها، كريماً بها، إذ لم يستهل رمضان سنة ٣٥٨ هـ حتى كان الله قد فتح على الفاطميين مصر ذات الخير المستفيض بعد أن كانت جيوشهم قد تحطمت على حافة صحرائها مراراً، في مدى خمسين سنة قبل ذلك التاريخ. وفي رمضان سنة ٣٦٢ هـ أصبحت مصر مركزاً للدولة الفاطمية المشرقية الأطراف، عندما انتقل إليها في ذلك الشهر رابع خلفائهم في المغرب، وأولهم في مصر، المعز لدين الله الفاطمي، واستقر في القاهرة في قصره الشرقي في السابع من ذلك الشهر.

وفي عهد الفاطميين أنشئت المكتبات ودور العلم والجامعات. وقد فاقت مكتبة القصر في القاهرة غيرها من مكتبات العالم الإسلامي، وتقع في القصر الشرقي الكبير، وتحتوي ٢٠٠٠٠٠ مجلد، وقيل أن عدد كتبها بلغ ٦٠٠٠٠٠٠ مجلد، وقال آخرون: إن هذا العدد بلغ مليونين. ومهما يكن من أمر هذا العدد فإن المتفق عليه أنها كانت تحتوي على مصنفات في الفقه، وفي اللغة العربية، والحديث، والتاريخ، والسير، والفلك، والدين، والكيمياء. عدا المصاحف التي احتوتها، وبمجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة، وابن البواب، وغيرها من مشاهير الخطاطين في ذلك العصر، وكان فيها أيضاً ١٠٧٢٠ نسخة من تاريخ الطبري، منها نسخة بخط الطبري نفسه. وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يترجل، ثم يسير إلى دكة مرتفعة، فيجلس عليها، فيأتيه الخازن بنسخ من المصحف مختلفة الحجم، وبغيرها من المجلدات مما يوصي بشرائه، لمصادقة الخليفة على هذا الشراء. وهناك مكتبة أخرى عرفت باسم «مكتبة دار العلم»، وكانت ملحقة بدار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، والتحق بها عدد من القراء والفقهاء. وكان الخليفة الفاطمي يسكن في قصر نخم، هائل البناء، رائع المنظر، بديع الأثاث، جدرانه وسقفه حافلة بألوان الزخارف الفنية، وعلى نوافذه وأبوابه ستور من الحرير، أو الديباج منسوجة بالذهب، وأرضه مصنوعة من الرخام ومغطاة بالبسط والسجاجيد القيمة النادرة المثال، وله أسوار عالية، يرسها خمسمائة من الفرسان ومثلها من المشاة، ويعمل فيه ألوف الخدم والجواري الحسان.

ويكفي للدلالة على عظمة الخليفة الفاطمي نظرة إليه وهو في ملابسه التي تهرم الأنظار، وجلاله الذي تخشع له الأبصار، وحوله حاشية من الأمراء، وكبار زجال البلاط في ملابس مزركشة من الحرير والديباج موشاة بالذهب الخالص. ينتقل الخليفة في هذا الموكب الحافل إلى حيث يتعقد مجلس الملك في «قاعة الذهب»، وهي من أروع ما رسم مهندس، ومن أبدع ما نحت فنان، مؤثثة أثاثاً فخماً، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية، وكلها من رسم واحد، ولون واحد، وأرضها مفروشة بأنفس ما صنع الصانع من بسط. وكانت العظمة الملكية تنضج بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساندة، بأمر من رئيس القصر المعروف باسم «زمام القصر»، فيظهر شخص الخليفة، محاطاً بهالة من نور ومجد، وحوله جماعة من القراء يأخذون في ترتيل آيات الذكر الحكيم في نغم عجيب، ثم يأتي حامل الدواة فيضعها على طرف الحشية المخصص لها. وكان زمام القصر، وصاحب بيت المال، والحجاب والأمناء، يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد جلسوا في أمكنتهم المخصصة لهم. وعندئذ يقدم أحد الأمناء الأشخاص الذين يرى تقديمهم إلى الخليفة.

وقد بلغ عرش الخليفة الفاطمي من الأبهة والفخامة حدّاً يفوق الوصف، حتى قيل إن مقدار الذهب الذي استعمل في عمله زاد على ١١٠.٠٠٠ مثقال، وورصع الستر بألف القطع من الجواهر المختلفة الألوان، وكان موضوعاً قبالة العرش، وحلى بما زنته ٣٠٠.٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص.

وقد تمتع الخلفاء الفاطميون ببراء واسع. فقد كانوا يجلسون إلى موائد عليها الأطباق والأواني والصحاف والصواني والسكاكين، وكلها مصنوعة من الذهب الخالص. ولا يمل المتأمل من النظر إلى تحفهم الكثيرة النادرة. وكان أهم ما يسترعى النظر في عصر الخليفة المستنصر الفاطمي تلك الثروة الطائلة التي كان يملكها الخليفة حتى سنة ٤٦٠ هـ، والتي يضيق النطاق عن حصرها، والتي تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر قبل ظهور الشدة العظمى. وأمدنا ابن ميسر في كتابه «تاريخ مصر»، ببيان هن كنوز المستنصر، استمدته من مجلد ضخم يقع في نحو العشرين كراسة، اطلع عليه بنفسه. ويشتمل ذلك البيان على ذكر تلك الكنوز من طرف وأثاث، وملابس، وذهب وغير ذلك. ومن هذه

النفائس ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلّاور، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسرواني، وعشرون ألف سيف محلي بالذهب، وكلها مما بعث به البساسيري أحد قواد العباسيين حين عزم على إقامة الخطبة في بغداد للخليفة المستنصر سنة ٤٥٠هـ، ومن ثروة المستنصر وممتلكاته التي لا تقوم بحال سيفه الخاص، وسيف الخليفة المعز لدين الله، وسيف النبي عليه السلام، وسيف الحسين بن علي، وسيف جعفر الصادق، وسبحة من الأحجار الكريمة قومت بثمانين ألف دينار، وأعداد لا تحصى من السروج والأسلحة والرماح والحواتم والأكواب والمخار. واشتملت ثروته أيضاً على حصيرة منسوجة بالذهب زيتها ثمانية عشر رطلاً، وعلى ألف ستر مزركش بالذهب، تمثل الممالك المختلفة بملوكها، وأسمائهم، وموجز لحياة كل منهم، وعلى عدد من المصورات الثمينة المثقنة الرسم. كل ذلك عدا ثلاثين مليوناً ديناراً من الذهب، والفسطاط (الضرب) الذي خلفه له الظاهر الفاطمي، وكان منسوجاً من خيوط الذهب، ومقاماً على أعمدة من الفضة، وبلغت قيمته ١٤,٠٠٠ دينار.

كذلك تمتعت الأميرات بغنى وافرة، فاستحوذن على جانب كبير من الثروة. يتبين ذلك مما تركته كل من الأميرتين رشيدة وعبدية ابنتي الخليفة المعز. فقد تركت الأولى من مخلفاتها ما قيمته ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات، وخلفت الثانية كثيراً من خزائن الحلّ، من بينها إردب من الزمرد، وعدد كبير من الجواهر، والأحجار الكريمة، والأواني البلورية النفيسة؛ وأنفقت السيدة تغريد زوجة المعز الفاطمي أموالاً جمة في سنة ٣٦٦هـ على تشييد مسجدتها بالقراقة، وتولى زخرفته جماعة من الفنانين من أهل البصرة، كما بنت هذه السيدة قصر القراقة، وكان قصراً فخماً يسر الناظرين، به قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرين من الشمس؛ وتركست الملك بنت العزيز وأخت الحاكم ثروة ضخمة، من بينها ثمانمائة جارية وثمان جرات مملأى بالمسك والأحجار الكريمة، من بينها قطعة من الياقوت وزن ثمانية مثاقيل، وكانت مخصصاتها السنوية خمسين ألف دينار.

ولم تكن عظمة وزراء الفاطميين تقل عن عظمة ساداتهم الخلفاء، أو أفراد البيت المالكة. فقد كانوا يتمتعون بكل مظاهر الابهة والفخامة. يحدّثنا التاريخ أن

الوزير اليازورى استصنع مضرراً حوى مجموعة رسوم فنية ، أنفق عليها ثلاثين ألف دينار ، وعمل على إعداد مائة وخمسون فناً حتى أتمه في تسع سنوات ، ونقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم . كذلك فاقته ثروة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ثروة أسلافه من الوزراء ، فقد خلف ثروة طائلة ، نذكر من بينها أربعة آلاف قطعة من البسط والسطور ، وسبعة آلاف سرج تقدر بملايين الدنانير ، وأنواعاً مختلفة من الحرير المذهب ، وأربع حجرات مملأة بالسائد والمنسوجات ، وثلاثة عشر ألف ملعقة من الذهب والفضة ، وستة ملايين ونصف مليون من الدنانير ، وخمسة وسبعين ثوباً من الديباج ، وآلاف من التحف النادرة ، منها خمسة آلاف نرجسة من الذهب . وكان فى كل بيت من بيوته عشرة مسامير من الذهب ، اتخذت كشاجب لتوضع عليها الثياب ، كل مسبار وزنه ١٠٠ مثقال ، عليها العائم مختلفة الألوان .

وهكذا نجد مظاهر الحضارة المتعددة فى العصر الفاطمى ، والأعياد المختلفة ، والطبيعة السافرة ، ونوادى العلم والأدب ، وإنشاء المكتبات والجامعات ، وفى مقدمتها الأزهر ، كل هذا كان من الأسباب التى أعانت على رواج الأدب ونهضته ، وكانت الدولة الفاطمية تتجه إليها أنظار كل علوى فى بقاع الأرض ، فهذا الشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) يقول :

ما مقامى على الهوان وعندى	مقول صارم وأنف حى
أحل الضيم فى بلاد الأعادى	وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا	ى إذا ضامنى البهيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النسا	س جميعا محمد وعلى

وقد أكسبت الطبيعة المصرية الأدباء والشعراء حلاوة فى التعبير ، وعذوبة فى التصوير ، ويقول شاعر :

أسكان مصر جارر النيل أرضكم	فأكسبتكم تلك الحلاوة فى الشعر
وكان لتلك الأرض سحر وما بقى	سوى أثر يبدو على النظم والنثر

صور النثر الأدبى :

على أن الخطابة لم تكن مزدهرة فى هذا ، العصر وذلك لأن الدعوة السرية أضعفت من شأنها ، وكذلك الاستبداد السياسى ، وقد حرص الخطباء على زيادة

ألقاب التعظيم وعلى مزج الخطابة بالدعوة الفاطمية . وعلى قوة الأسلوب وجزالة التزام السجع فيه .

أما الكتابة فقد عني بها الخلفاء والوزراء عناية شديدة ، وكان من أبرز ألوانها هذه الكتب الرسمية التي تقرأ بعضها في «صبح الأعشى» ، ورسائل أدبية مطولة من مثل رسالة ابن القارح داعي الدعوة في عصر الحاكم الذي بعث بها إلى أبي للعلاء في معرة النعمان ، وكان رد المعري عليها هو رسالته الخالدة «رسالة الغفران» .

على أن ما بقي لنا من النثر الفاطمي ولو كان قليلا ، كبعض الكتب الرسمية التي ذكرت في صبح الأعشى ؛ يدل على تقدم النثر الفني ، وميله إلى الزينة : من سجع وبديع واقتباس ، مما هو ظل لحياة الترف في قصور الخلفاء ، كما يدل على تأثر بسعة الثقافة التي عظمت في هذا العصر .

وكان لديوان الإنشاء المصري في العصر الفاطمي أثر في رقي النثر ، وقد نشأ هذا الديوان في عهد الدولة الطولونية وكان أول من وليه أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبدكان ، ولرجاله آثار أدبية جليلة ، وكان ديوان الإنشاء أشبه بمدرسة يتخرج منها الكتاب .

ويذكر صاحب «صبح الأعشى» ما يتعلق بديوان الإنشاء في الدولة الفاطمية من وظائف ، وهي ثلاث .

١ - صحابة ديوان الإنشاء والمكاتبات . وكان لا يتولاها إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ويقال له عندهم كاتب الدست الشريف ، وإليه تسلم المكاتبات الواردة محتومة ، فيعرضها على الخليفة ويستشير الخليفة في أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المشول بين يديه .

٢ - التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم . وهي رتبة جليلة تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات ، يكون صاحبها جليسا للخليفة في أكثر أيام الأسبوع في خلوته ، يذكره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالى أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين ، ويقرأ عليه ملح السير ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، ويقوى يده في تجويد الخط وغير ذلك .

٣ - التوقيع بالقلم الجليل ؛ لتنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق . فإذا

رفعت المظالم حلت إلى صاحب القلم الدقيق ؛ فيوقع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من الوزير نفسه ، ثم يحمل إلى الموقع بالقلم الجليل لبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق ، ثم تحمل في خريطة^(١) إلى الخليفة فيوقع عليها ثم تخرج في خريطة لها إلى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه^(٢) .

ولصاحب الديوان صفات يجب أن يتحلى بها ، من العلم والاخلاق وللتجربة السياسية ، وأن يكون من أعلام الأدب وأمرأه البيان الملمين بكثير من العلوم ، وهو الذى يطلع على ما يكتبه كتاب الديوان في شئون الدولة ، ويتلقى المكاتبات الواردة وقرؤها للسلطان ، ويحجب عنها ويختار من يرسله السلطان إلى الخارج في أمور المملكة ، وله الإشراف على كتاب الدست وكتاب الدرج ولكل من هؤلاء عمله الخاص في قراءة الأحوال والفحص على السلطان وكتابة الولايات ونحوها .

ويشرح القلقشندي في الجزء الأول من صبيح الأعشى كل ذلك بإسهاب^(٣) . هذا والذي شاع من أنواع الرسائل في هذا العصر هو الرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن الدولة في شئونها ، والرسائل الإخوانية التي يكتبها الأدباء في مقاصد خاصة طوعاً لميولهم وتلبية لوجدانهم وللبواعث النفسية ، أما النوع الاجتماعي المتصل بوجوه الإصلاح والإرشاد ، فلم تنج له إليه الأذهان في ذلك العصر .

ومؤلف مسالك الألبصار يعنى عناية عظيمة بمصر من جميع جوانبها ، ومنها جانب النثر والشعر ، ولذا أمدنا المؤلف بقائمة لاشتهاء الشعراء من المصريين ، بلغ مجموعهم نحواً من خمسين ، وأولهم تميم بن المعز^(٤) .

(١) الخريطة: شبه كيس من جلد أو خرق

(٢) صبيح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ .

(٣) ص ٦١ ، ٢٣٠ .

(٤) ١٣٢٧ الحركة الفكرية في العصرين : الأيوبي والمملوكي الأول عبد اللطيف حمزة - طبعة أولى - دار الفكر العربي .

آثار أدبية من العصر الفاطمي وما بعده :

كانت مصر طوال العصور الأدبية تتم بالقصص ، وكان يتولى القصص في المساجد العامة قصاص رسميون ، من بينهم سليمان بن عذتر التجيبي ، المتوفى بعد سنة ٣٨٨ هـ ، تم تعاقب القصاص من بعده على اختلاف ألوانهم .

وفي القرن الرابع الهجري ازدادت العناية بالحكايات والقصص في مصر ، وكان القصاص الشعبيون والحكوميون في العصر الفاطمي يحتشدون لوضع الأخبار ، ويتنافسون في جمع القصص والروايات من كل مصدر ، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهمشيارى ، فقد جمع نحو ألف حكاية غريبة مما وضع من أحوال العرب والعجم ، ونقل ذلك عن المسامرين في عصره ، وعن الكتب المصنفة والأسمار والأساطير ، ولكنه لم يتم كتابه القصصى ، ويظن أن ما جمعه الجهمشيارى أصل د ألف ليلة وليلة .

ومن القصص والملاحم الشعبية المنسوبة للعصر الفاطمي قصة « عنترة » التي وضعها يوسف بن إسماعيل في العصر الفاطمي في عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، وهي تدور حول حرب داحس والغبراء ، التي ثارت بين قبياق عبس وذبيان في الجاهلية . وبعد العصر الفاطمي استمرت العناية بالقصص ، وخاصة في عمود الحروب الصليبية التي وضع ببواعثها قصة « سيف بن ذي يزن » ، و « الأميرة ذات الهمة » ، و « فيروز شاه » ، وسواها .

وبين القرنين الرابع والعاشر من الهجرة كان الرواة يتنافلون القصص والروايات ويجمعونها ويكتبونها ، يستمدونها من الأصول الفارسية والهندية حيناً ، ومن الأصول العربية أحياناً أخرى ، ولذلك ذهب بعض الباحثين إلى أن أصل كتاب « ألف ليلة وليلة » هو كتاب فارسي اسمه « هزار أفسانة ^(١) » ، أى ألف خرافة ، وذكر ذلك المسمودى م ٣٤٦ هـ في كتابه « مروج الذهب » . حين عرض لأخبار شداد بن عاد ومدينته « إرم » ، وكذلك ابن النديم م ٣٨٥ هـ في كتابه « الفهرست » .

(١) أفسانة بالفارسية معناها خرافة .

وذهب نولدكه إلى أن في كتاب « ألف ليلة وليلة » أصولاً فارسية مأخوذة من كتاب « هزار أفسانة » ، وأصولاً هندية ، وأخرى عربية تدور حول قصص وضعت في بغداد ، وقصص أخرى وضعت في مصر وأضيفت إلى الكتاب ، والنسخة المتداولة اليوم من الكتاب مأخوذة من النص المصري الذي جمعه قاص مصري نحو عام ١٧٨٠ م^(١) ، ويرجح بعض الباحثين أن التاريخ الذي جمع منه الكتاب واتخذ شكله النهائي ما بين عامي ٩٢٣ و ٩٣٣ هـ (١٥١٧ و ١٥٢٦ م)^(٢) . والكتاب ٢٦٤ قصة قسمها جامع الكتاب على ألف ليلة .

أهمية الفسطاط في تاريخنا الأدبي :

بنو عمرو بن العاص عقب الفتح مدينة « الفسطاط » وجعلها مقر الإمارة . وبقيت كذلك إلى العصر العباسي ، فبنى « أبو عون » قائد جيش العباسيين المقتفين أثر مروان (آخر خلفاء الأمويين الهارب إلى مصر) « مدينة العسكر » شمال الفسطاط حيث نزل عسكره ، فسكنها أكثر ولادة بنو العباس إلى زمن « ابن طولون » وكانت القبطية هي المستعملة في الدواوين إلى أن حلت محلها العربية عام ٨٧ هـ - ٧٠٦ م ، في ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان .

ويقول « المقرئ » ، في وصف موضع الفسطاط ما يأتي :
« أعلم أن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان قضاء ومزارع فيما بين النيل والجليل الشرق الذي يعرف بالجليل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع والمعلقة ، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقوم فيه ماشاء ، ثم يعود إلى دار الإمارة ومنزل الملك بالاسكندرية . وكان هذا الحصن مطلاً على النيل ، وتصل السفن في النيل إلى بابه الغربي الذي كان يعرف بباب الحديد وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهي الجهة الشمالية

(١) ص ١١ من الكتاب الشهري للهِلال عدد أغسطس ١٩٥٥ - وفي ص ١٢ من الكتاب أن المجموعة الأصلية التي وصلت للقاص المصري كانت مائتي قصة ، وأضاف إليها نحو خمس وستين قصة .
(٢) ٢٧ في أصول الأدب للزيات طبعة ١٩٤٦ .

أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس
وديارات للنصارى

وكان قاضى الفسطاط ينيب عنه قضاة البلدان الأخرى . أو يعينهم الوالى
رأساً . وكان مجلس القاضى إما فى المسجد الجامع غالباً ، وإما فى داره ، وقبلها
يجلس فى دار الإمارة . ولم يكن يشترط فى القاضى أن يقضى بمذهب خاص ، بل
يكون مجتهداً أو على مذهب أحد الأئمة . وكان منصب القاضى فى ذلك العهد من أهم
المناصب وأكثرها عملاً ، وكان من أعماله الفصل فى الدعاوى والأوقاف
والنفقات ونصب الأوصياء ، وأحياناً تضاف إليه الشرطة والمظالم وبيت المال ،
ولذلك كان القضاة يختارون من أغزر الناس علماً وأكثرهم فضلاً . ومن أعظم
من اشتهر منهم بالفضل والاستقامة والعدل القاضى « غوث » بن سليمان التوفى
سنة ١٦٨ هـ ، ولى قضاء مصر مراراً ، ولم يمنع عن الوصول إليه متظلم قط . ومنهم
أيضاً « المفضل » خلفه ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب المبنى عليها الحكم
بأكملها . وقد كان الكثير من القضاة يتنحى عن تقلد هذا المنصب لكثرة أشغاله
وخطورة مسئوليته ، ولم يقبله « أبو خزيمة » إلا بعد أن نادى الحاكم بالجلاد .

لقد كانت الفسطاط بعد إنشائها عام ٢١ هـ - ٤٦١ م عاصمة مصر الأدبية ،
كما كانت عاصمة مصر السياسية منذ الفتح الإسلامى - وقد ظلت مجمع العلماء
والأدباء والشعراء ، ومقصد المفكرين من كل مكان فى العالم الإسلامى حتى بعد
إنشاء القاهرة عام ٣٥٨ هـ ، وكان مسجد الفسطاط (مسجد عمرو) منذ الفتح
متنبدى لأهل الفضل والأدب ، وظل كذلك حتى بعد إنشاء الأزهر
عام ٣٥٩ هـ .

وظل الفسطاط بعد ذلك عسوراً مدينة تحتفظ بمكانتها الأدبية ، ولبثت
حلقاتها وإليها الأدبية شهيرة بين أدباء المشرق والمغرب . وإن كان الجامع الأزهر
أخذ بعد إنشائه ينافس المسجد الجامع فى حلقاته ومجالسه الأدبية منذ عهد الخليفة
العزى بالله ، إذ استأذن وزيره الشهير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨ هـ أن ينظم
بالأزهر على نفقته بعض مجالس القراءة والفقهاء . وفى خاتمة القرن الرابع ، فى عهد
الحاكم بأمر الله ، أنشئت دار الحكمة بالقاهرة ونظمت مجالسها ، فكانت مشوى

للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية بجانب الأزهر ، مما جعل الفسطاط تفقد أهميتها السياسية والرسمية ، ولكنها احتفظت عصوراً أخرى بأهميتها الاجتماعية والأدبية وفي فترات كثيرة كانت تتفوق على القاهرة بطابعها الأدبي . وهذا ما يشهد به بعض أدباء المشرق والأندلس والوافدين على مصر في عصور مختلفة . ومن هؤلاء أمة ابن عبد العزيز أبي الصلت الأندلسي م ٥٢٩ هـ الذي وفد على مصر في أوائل القرن السادس الهجري في عهد الأفضل شاهنشاه . ودرس الحركة الفكرية والأدبية في مصر يومئذ ، وكتب عنها رسالة لم يصلنا سوى صفحات قليلة منها ، تحدث فيها ابن أبي الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها ، وبجاسم واجتماعاتهم ، وعن الفسطاط مكانتها إذ كانت لاتزال مركزاً هاماً للحركة العلمية والأدبية ، ولا ننس أن نذكر أنه في عهد الدولة الفاطمية أحرقت مدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ ، وكانت الدولة الفاطمية تنتمي إلى عبيد الله المهدي^(١) وقد ولد بالكوفة عام ٢٦٠ هـ ، وقام دعائه بنشر الدعوة لحكم آل البيت ولإمامة عبيد الله المهدي في اليمن والشام ومصر والمغرب ، وكان داعيته في المغرب — شمال إفريقية — أبو عبد الله الشيعي ، الذي نجح في دعوته نجاحاً منقطع النظير ، وتمكن من قيام الدولة الفاطمية على أنقاض ملك بني الأغلب ، وصارت عاصمة الدولة هي القيروان ، ثم بنيت المدينة وصارت العاصمة ، وقد مات عبيد الله عام ٢٢٢ هـ ، خلفه ابنه القائم نزار (٢٢٢ - ٢٤٤ هـ) ومات عن أربع وخمسين عاماً ، خلفه ابنه المنصور إسماعيل العبيدي (٢٣٤ إلى ٣٤١ هـ) ومات عن تسع وثلاثين عاماً ، خلفه المعز (٣٤٥ - ٣٦٥ هـ) ، وكان ميلاد المعز عام ٣١٩ هـ ، قد سارت جيوشه من القيروان يوم الجمعة ١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨ هـ ، منتهزاً قاتله جوهر فرصة اختلال أمور مصر بموت كافور الإخشيدي في ٢٠ جمادى الأولى عام ٣٥٧ هـ ، ودخلت جيوش المعز مصر في ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ ، وكانت عاصمة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص إلى أن فتحها جوهر هي مدينة الفسطاط^(٢) ، وكانت من أعمر الأمصار الإسلامية وأغناها وأكثرها

(١) اسمه سعيد بن أحمد بن حسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح ، وهو ينتمي إلى العلويين من ذرية فاطمة ، وفي عام ٢٠٤ هـ كتب في بغداد حجة بانكار نسبة عبيد الله المهدي إلى العلويين ، ووقع عليها أعلام الشيعة وكثير من أئمة العلماء .
(٢) هي مصر القديمة الآن .

رخاء ، وقد وصفها القاضي محمد بن سلامة القضاى المتوفى عام ٤٥٤هـ فقال : كان فيها من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد ، ومن الحمامات ألف ومائة وسبعون حماما ، ومن الشوارع المسلوكة ثمانية آلاف شارع ، وكانت أسواقها عامرة بكل شيء من أنفس البضائع الى أكل الكاليات ؛ ولما احتاجت قطر الندى الى ألف تكة (من التي تساوى الواحدة منها عشرة دنانير ذهبيا) جاء رسلها الى سوق الفسطاط بعشرة آلاف دينار فوجدوا ما يطلبوه ميسورا بأسرع وقت ، وكانت الفسطاط عامرة بالمنازل الشاهقة ، وكانت فيها دار عبدالعزيز بن مروان ، وفي داخل هذه الدار خمسة مساجد واسعة وحمامان وعدة أفران ؛ أما بضاعة العلم في الفسطاط فكانت أغلى البضائع وأنفسها وأكثرها رواجاً ، وفضلها عن الأسواق التي كانت للكتب ، فقد كانت صناعة النسخ واسعة النطاق يعيش منها آلاف من المشتغلين بالعلم ، لأن المكتبة كانت زينة المنزل في كل أسرة مثقفة ، وحلقات العلم تعقد في المساجد التي بلغ عددها ستة وثلاثين ألف مسجد ، وكان جامع عمرو الذي يسمى تاج الجوامع مباءة التحديث والتدريس من عهد الصحابة الى زمن الأئمة : الليث بن سعد ومحمد بن إدريس الشافعي وسواهما (١) .

ولما وصل المعز في أوائل رمضان عام ٣٦٢ هـ خرج أعيان الفسطاط وأشرفها وعلباؤها لاستقباله في الجيزة ، واستعدت الفسطاط لاستقباله ، وسار موكبه من الجيزة ، ثم جاز النيل الى الشاطئ الشرقى ، وأبى أن يدخل الفسطاط وجعلها وراء ظهره وأمر موكبه بالاتجاه الى عاصمته التي سميت المنصورية ، ثم صدر أمر المعز في ذلك الحين بأن تسمى القاهرة المعزية ؛ وقد جمع المعز أشرف الفسطاط من العلويين ، وفي مقدمتهم أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني ، وأبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الحسيني الرسى ، وأحد أبناء الشريف أبي محمد عبدالله بن احمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم بن طباطبا بن اسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ، وسل أمامهم نصف سيفه وقال هذا نسبي ، ثم

(١) استمرت الحلقات العلمية كل يوم بلا انقطاع في جامع عمرو وكانت لا تقل عن بضع وأربعين حلقة في عام ٧٤٩ هـ - حسن المحاضرة للسيوطي

١٣٦ : ٢ .

(م - ٨ الادب)

نثر عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حسبي . . وقد حكم بعد المعز ابنه العزيز
(٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ثم الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ هـ) ، ثم الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ) ،
ثم المستنصر^(١) (٤٣٧ - ٤٨٧ هـ) ثم المستعلي (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، ثم الأمر
(٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، ثم الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) ، ثم الظاهر اسماعيل
ابن الحافظ (٥٤٣ - ٥٤٩ هـ) ثم ابنه الفائز عيسى (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) ، ثم العاضد
(٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) وهو آخر الخلفاء الفاطميين .

وفي زمن العاضد أحرق الفاطميون الفسقاط ، وذلك عام ٥٦٤ هـ ، وكان
وزراء العاضد هم شاور وضرغام والعاذل بن رزيك ، وقد تغلب شاور على الحكم
ثم غلبه ضرغام فاستعان شاور على منافسه بملك الشام السلطان نور الدين محمود
ابن زنكي ، فساعده بجيش قوى هزم جيش الفاطميين بقيادة ضرغام في بلبس ،
وفي المقس^(٢) كذلك ، وعسكر الجيش الفاتح بباب اللوق وقتل ضرغام في جمادى
الآخرة عام ٣٥٩ هـ وتولى شاور الوزارة للعاضد الفاطمي ، وفي سبيل أن يخرج
شاور جيش نور الدين محمود^(٣) من مصر استعان بالصليبيين في فلسطين عام
٥٥٩ هـ ، وحارب جيش نور الدين في مصر في وقائع احترق فيها وجه الخليج
خارج القاهرة بأسره وقطعة من حارة زويلة كما حاربه في بلبس مستعيناً بمدد من
بجيوش الصليبيين تقدم حتى بلبس ، وقد خرج أسد الدين وجيشه من مصر عام
٥٥٩ هـ ، ثم عاد إليها بجيش قوى عام ٥٦٢ هـ وأقام بالجيزة محاذياً للفسقاط
وقاتل الجيش الفاطمي ومن جاء لنجدة الفاطميين من الصليبيين فهزم الفاطميون
وأعوانهم هزيمة ساحقة ثم فتح أسد الدين الإسكندرية والهيعة ، وحول
الإسكندرية وقعت حروب بين شاور وأعوانه وبين جيش أسد الدين عاد بعدها
أسد الدين إلى دمشق في ١٨ ذى القعدة عام ٥٦٢ هـ وكان مركز المقاومة ضد

-
- (١) في مدة حكمه قام المعز بن باديس أمير المغرب بإزالة ذكر الفاطميين من فوق
المنابر في القيروان وغيرها - وفي عام ٤٤٤ هـ كتب محضر من ديوان الخليفة
العباس القائم بأمر الله يأنكار نسب العبيديين .
- (٢) مكانها ميدان باب الحديد اليوم .
- (٣) كان برياسة أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي ، وكان صلاح
الدين أحد القواد فيه .

الفاطميين في الفسطاط ، فأمرُوا بإحراق مدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ بحجة أنهم مضطرون إلى إحراقها خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها ، ولذلك أمرُوا أهل الفسطاط بالخروج السريع من بيوتهم ، واستمر الحريق أربعة وخمسين يوماً بلياليها ، حيث محيت من الوجود هذه المدينة الإسلامية بما فيها من ذكريات وأبجاذ إسلامية ومكتبات ومدارس وسواها .

ومع ذلك فقد أخذ الناس في عهد الدولة الأيوبية يعمرُون الفسطاط ويسكنونها ويقيمون فيها وينظمون الحلقات الأدبية في مسجدها الجامع ، ولكن لم يمكن أن تصل إلى حالتها التي كانت عليها من قبل .

وقد وفد ابن سعيد الأندلسي إلى مصر بعد ذلك بنحو قرن ، نحو سنة ٦٣٧ هـ - ١٢٤٠ م ، ولبت بها أعواماً طويلة يدرس شئونها وأحوالها ، وكتب عن الفسطاط التي مازالت آنذاك تحتفظ بأهميتها الأدبية وما زالت مأوى للأدباء ومركزاً لأبناء الأدب ، ويفرد ابن سعيد في كتابه « المغرب في حلى المغرب » فصلاً كبيراً الفسطاط عنوانه : « كتاب الاغتباط في حلى الفسطاط »^(١) يتحدث فيه عن المدينة ، وزياراته لها واجتماعاته بأدبائها ، ولاسيما شاعرها الكبير جمال الدين أبي الحسن الجزار ، أشهر شعراء مصر في هذا العصر ، وما لقيه من كرم وفادته وشهده من رائع أدبه ، وقد كان الشاعر الكبير يومئذ ، على ما يظهر شاباً في عنفوان شاعريته إلى أن توفي بعد ذلك بنحو أربعين سنة في ٦٧٩ هـ ، وهو صاحب الأرجوزة التاريخية الشهيرة المسماة « بالعقود الدرية في الأمراء المصرية » ، وفيها يستعرض ذكر أمراء مصر وملوكها منذ عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر بيبرس^(٢) ، وكانت الفسطاط قد استردت كثيراً من بهائها السالف ، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيام المدينة الجديدة التي أنشأها الملك الصالح في جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط

(١) هذا الكتاب في مجموعة الكتب التي يضمها كتاب « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد الأندلسي . ومعه أربع مجلدات مخطوطة بدار الكتب هي الوحيدة منه . وليست متصلة ولا متناسقة لأنها جزء من الكتاب الأصلي فقط (رقم ٢٧١٢ تاريخ) . وقد نشر المستشرق تاكلفت منه قسماً هو « كتاب العيون الدعج في حلى بني طنج » .

(٢) نشرت هذه الأرجوزة برمتها في حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٤١) ،

سنة ٦٣٨ هـ واتخاذها قاعدة للسلطنة ، وانتقال البلاط والحاشية اليها ، وسكن كثير من الأمراء والكبراء بالفسطاط في الضفة المقابلة لنهر النيل ، وهو ما يشير اليه ابن سعيد في قوله ، « وقد نفخ روح الاعتناء والنور في مدينة الفسطاط الآن لجوارتها للجزيرة الصالحية جزيرة الروضة ، وكثير من الجنود قد انتقل اليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر ، » .

ويشير ابن سعيد في كتابه السالف الذكر إلى ليالى الفسطاط واجتماعاتها ، وأشهرها ما كان يعقد في القرافة بما يلي المقطم في قبة الإمام الشافعي التي كانت قد أنشئت على قبره ، وكان المسجد الجامع قد عفت أهميته شيئاً فشيئاً منذ قام الجامع الأزهر وغيره من المساجد والمدارس الجامعة بمدينة القاهرة ، ولكننا نراه ما يزال حتى القرن السابع مشوى للأدب واجتماعاته . ورغم عفاؤه وقدمه ونسيان أمره ، كانت تعقد في عرصاته حلقات للقراءة والدرس ، وهذا ما يشير اليه ابن سعيد أيضاً خلال وصفه للمسجد الجامع في منتصف القرن السابع ، غير أن هذه الحلقات لم تكن من الأهمية والرونق والانتظام مثلما كانت عليه في القرون الأولى ، يوم كان المسجد الجامع مجتمع الأمراء وأقطاب التفكير والأدب ، وكانت يومئذ أقرب إلى الصبغة المدرسية ، ومع ذلك فقد بقي للمسجد الجامع ذكرياته الأدبية المجيدة . ويقول ابن فضل العنبري في كتابه « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، في حديثه عن المسجد الجامع : « حكى علي بن ظافر الأزدي . قال : روى لي أن الاعرج أبا الفتوح بن قلاص وابن المنجم اجتمعا في منار الجامع في ليلة فطر ظهر بها الهلال للعيون ، وبرز في صفحة بحر النيل كالنون ، ومعهما جماعة من غواة الأدب الذين ينسلون اليه من كل حدب . لحين رأوا الشمس فوق النيل غاربة ، وإلى مستقرها جارية ذاهبة ، وقد شمردت للمغرب الذيل ، واصفرت خسوفاً من هجمة الليل ، والهلال في حمرة الشفق ، كحاجب الشائب أو زورق الورق . فاقترحوا عليهما أن يصنعا في ذلك الوقت التزيه ، على البديهة ، فصنع ابن قلاص :

انظر إلى الشمس فوق النيل عارية	وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
هابت وأبقت شعاعاً منه يخلفها	كأنما احترقت بالماء في الفرق
والهلال ، قبل وافي لينقذها	في إثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

وصنع ابن المنجم :

يارب سامية في الجوف فت بها أمد طرفي في أرض من الأفق
حيث العشية في التثيل معركة إذا رأها جبان مات للفرق
شمس نهارية للغرب زاهية بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
وللهلال انعطاف كالسنان بدا من سورة الطعن ملقى في دم الشفق

وحكى علي بن ظافر أيضاً ، قال : أخبرني ابن المنجم الصواف بما معناه : قال :
صعدت إلى سطح الجامع بمصر في آخر رمضان مع جماعة فصادفت به الأديب
الأعز أبا الفتح بن قلاؤس ونشو الملك علي بن مفرج بن المنجم وشجاعا المغربي
في جماعة من الأدباء ، فانضممت إليهم ، فلما غابت الشمس وفاتت ، اقترح الجماعة
على ابن قلاؤس وابن المنجم أن يعملوا في صفة الحال ، فكان ما صنعه نشو الملك :

وعشى كائما الأفق فيه لازدورد مرصع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمس س ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب دية أرافأعطى الرهين نصف سوار

وكان الذي صنعه ابن قلاؤس :

لانتظن الظلام قد أخذ الشمس س وأعطى النهار هذا الهلالا
إنما الشرق أقرض الغرب دية نارا فأعطاه رهينه خلخالا

والشاعر المصري الإسكندري الأشهر ابن قلاؤس كان من شعراء النصف الأخير
من القرن السادس الهجري (٥٣٢ - ٦٠٧) وكذلك ابن المنجم من شعراء هذا
العصر . فقد كان المسجد الجامع ، حتى أوائل القرن السابع متدي لكابر الأدباء
والشعراء ، وكانت الفسطاط لاتزال شهيرة بلبا ليلها وحلقاتها الأدبية ، حتى بعد ذلك
بنحو نصف قرن على نحو ما يشير إليه ابن سعيد الأندلسي .

ومنذ أواخر القرن السابع الهجري بدأت الفسطاط تفقد أهميتها الاجتماعية
والأدبية شيئا فشيئا ، وأخذ المسجد الجامع يغمره النسيان والعفاء ، وقلبا نظفر في
غير القرن الثامن بما ينبيء عن مكانة الفسطاط أو أهميتها الاجتماعية أو الأدبية ،
بل نرى الفسطاط في هذا العصر تنتهي إلى ناحية متواضعة لمدينة القاهرة ، ونرى
القاهرة تغمر بعظمتها وبهاثها وأهميتها العلمية والأدبية عاصمة الإسلام الأولى
في مصر ، ونراها مشوى كل حركة فكرية أو أدبية . ونرى الجامع الأزهر
كعبة العلماء والأدباء لاني مصر وحدها بل في العالم الاسلامي كله .

الشعر في عهد الدولة الفاطمية

بدأ الشعر في هذا العصر ينضج ويستحكم ويكثر ناظموه المجيدون ، ويرجع سبب ذلك إلى نضوج مصر العقلي والثقافي والأدبي بعد مرور نحو ثلاثة قرون ونصف على الفتح الإسلامي ، وإلى عظمة الدولة وقيامها على الدين ، وعلى حب آل البيت ، وإلى بيئة مصر الشاعرة ، وإلى كثرة الأعياد والموائد ومظاهر الملك والدين وإلى نضوج ذوقهم ، وخصب شاعريتهم حتى كان من الفاطميين شعراء كتميم ، وقد قرب الفاطميون إليهم الشعراء وأغدقوا عليهم إغداقاً شديداً ، فرأينا المعز يقرب إليه ابن هاني الشاعر الأندلسي ، وكان يتمنى أن يكون في حاشيته في مصر ، ولكن المنية عاجلته وهو في طريقه إليها فقال المعز فيه : كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك ، وكذلك قرب يعقوب بن كلس الوزير إليه الشاعر أبا حامد الانطاكي المعروف بأبي الرقعمق ، وكان أكثر شعره وقفاً على مدح الخلفاء الفاطميين : المعز والعزير والحاكم ، ومدح جوهر وابن كلس (١).

وقد أفرد العباد الأصفهاني في كتابه « فريدة القصر وجريدة العصر » جزءاً خاصاً لشعراء مصر بلغ عددهم نحو المائة شاعر .

وما يدل على عناية الخلفاء بالشعر واحتفالهم بالشعراء ، ما حكاه المقرئ عند كلامه على المنظرة التي كانت تطل على بركة الحبش التي شيدها الخليفة الأموي : « في هذه المنظرة طاقات وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى

(١) قال فيه صاحب اليتيمة : « هو نادرة الزمان ، وجملة الإحسان ، ومن تصرف بالشعر الجزل ، في أنواع الجد والهزل ، . . . ومات عام ٣٩٩ هجرية . ومن شعره .

ليالي النيل لا أنساك ما هتفت ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لي سلفت قطعتهن وعين الدهر ترعاني
مع سادة نجب غر غطارفة في ذروة المجد من ذهل بن شيان
وكان أحد المداح المجيدين (٧٠ و ٧١ ج ١ ابن خلسكان) .

جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب ، فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة مخترمة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده . . . وقد كان للشعراء بجانب هذه الصلات والجوائز في هذه الدولة مرتبات ، وكان الشعراء يتقدمون بالمدايح في كل موسم أو عيد ؛ وما كان أكثر أعيادهم ومواسمهم ، فينالون من مواهب الخلفاء القدر الكثير ،

حكى المقرئى عند الكلام على فتح الخليج ، بعد أن وصف الاحتفال باليوم وصفاً دقيقاً ، أنه بعد جلوس الخليفة يستأذن صاحب الباب لحضور الشعراء للخدمة ، فيزمر بتقديمهم واحداً بعد واحد ، ولهم منازل على مقدار أقدارهم .

فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد ، وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب ، ففي بعض السنين تقدم شاعر يقال له ابن جبر ، وأنشد قصيدة مطلعها :

فتح الخليج فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرفا الإعطاء
فانتقد الناس عليه في قوله « فسال منه الماء » وقالوا أى شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة ابن جرير وأنشد :
ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حق إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول
فانتقدوا عليه في البيت الثاني ، وقالوا (أهلك وجه الامام بسطوات المعاول عليه) ، مع أنه قصد فتح السد بالمعاول ، ولكنه اشؤم طالع خلط بين الضمائر . ثم تقدم شاعر يقال له كافي الدولة أبو العباس أحمد ، وقال قصيدة منها :

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد للنيل أم لك يابن بنت محمد
أم لاجتماعك معاً في وطن وافيتا فيه لأصدق موعد
فأمر له على الفور بخمسين ديناراً وخلع عليه وزيد في جاريه .
ومن مجالس الأدب في مصر ما يروى من أنه في أواخر الدولة الفاطمية

معصر ، اجتمع بمجلس احد الامراء جماعة من الادباء والفقهاء ، وجرى حديث الشعر ، ومن يرتجله ارتجالاً ، ويرسله على البديهة إرسالاً ، ورووا من ذلك أخباراً . وكان القاضي المهذب أبو الحسن على جالساً ينصت إليهم ، ولا يخوض معهم ، فأقبل عليه الأمير وسأله ما عنده ، وكان معروفاً عن القاضي أن له في ارتجال الشعر بحجة مطبوعة ، وملكة مذكورة فأجاب : « كنت في مبدأ عمرى أملى الشعر إملاء — كالمحفوظ — على من يكتبه ، وربما سبقته بالإملاء ولا أتوقف » . فعجب الأمير من قوله عجباً بدا منه الاستبعاد لما يقوله ، فتحركت حمة الشيخ وأنفته لنفسه ، وقال : « إن كان ذلك مضى فقد أبقى الله منه بقية . اقترحوا شعراً أنشدكم على مثاله في وزنه ورويه وموضوعه » . قال الأمير فأنشدته :

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها لقاء عدو أو وعيد أمير
فلن يمتنعوا عيني من دائم البسكا ولن يظهروا ما قد أجن ضميري
فأنشد القاضي مبادراً كأنه يحفظه :

صبرت على جور الزمان وصرفه وإن كنت يوم البين غير صبور
وإن الذي يبغى اعتلاقاً بدها لمستمسك منها بمحل غرور
أرى الناس قد فكروا العناية تخرجاً فهل لك يوماً في فكاك أسير؟
ولم أر فيمن أستمع به سوى عذول . فن لي فيكم بعذير ؟
وما كنت ممن يصبح الحب قادراً عليه ولكن ذاك فعل قدير

قال الأمير : « فزاد عجبى لقوة ذكائه ، وسرعة بديهته ، وأظهرت فرط استحسانى لما أتى به » . فقال : « أنشدنى غير هذا لثلاث تقول إنه محفوظ لى » . فامتنعت تخرجاً ، فأبى إلا أن أنشد ، فأنشدته :

وما فارقت لبني عن تعال ولكن شقوة بلغت مداها
فانطلق قائلاً :

وكل منى النفوس إلى انقطاع وإذا بلغت — لعمرك — متنها
أناديها وليس تحيب قولى كأنى قد دعوت به سواها
سألقى دونها نبل الأعادى وأرى منهم من قد رماها
وأصبر للتجنى كل يوم وما أنا بالصبور على قلاها
سلاها — حين مال القلب عنها ولم يعلق سواها — هل سلاها ؟

غدا الإعراض حظ مؤملها وأمسى اليأس غاية من رجاها
أود ومهجتى فى راحتها ، مدى الأيام ، لو جعلت فداها
قال الأمير : « وحين انتهى إلى هذا ورأيت شدة تجمعها ، وفرط تحفره ،
وما يمانية فى إحضار ذهنه — قطعتة إشفافاً عليه . »

ومن شعراء مصر الأوائل أبو محمد الحسن بن على بن وكيع المتوفى
عام ٣٩٣ هـ ، وهو شاعر بارع وعالم جامع ، قد برع فى إبانة على أهل زمانه ،
وله كل بديعة تسحر الأوهام ، وتستعيد الأفهام (١) . وقد عرف ابن وكيع بابتكار
معانيه وحسن تصرفه ، وقد اشتهر هو وتميم بن المعز بالتخميس ، ومنهم محمد بن
القاسم ، وكان شاعر الحاكم ومن شعره :

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها لكنها رقصت من عدله طرباً
ومنهم كذلك الصالح بن رزيك وكان وزيراً للفائز والعاقد وتوفى
عام ٥٥٦ هـ ، وله فى كتاب « الروضتين لأبى شامة ، قصائد جيدة النسخ ، ويقول
العماد فيه : « نفق فى زمانه النظم والنثر ، وقرب إليه الفضلاء ، واتخذهم جلساء ،
وله قصائد كثيرة مستحسنة ، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام ، وما يظن أحد أن
ذلك شعره لجودته وإحكام معانيه وحكمته ، فيقال إن المذهب بن الزبير كان ينظم
له ، والجليس بن الحباب كان يعينه ، وله ديوان كبير وإحسان كثير . »

وكان الصالح واليا بمينة بنى خصيب من أعمال صعيد مصر فلما قتل الظاهر
إسماعيل الخليفة الفاطمى أرسل أهل العصر إلى الصالح واستنجدوا به فدخل
القاهرة وتولى الوزارة فى أيام الخليفة الفائز واشتغل بالأمور السياسية وتدير
أحوال الدولة ، وكان فاضلاً سمحاً فى العطاء سهلاً فى اللقاء محباً لأهل الفضائل .
ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه استمر الصالح على وزارته وزادت حرمة
وتزوج العاضد ابنته ، وكان العاضد تحت قبضته فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة
فى قتله . وهو الذى بنى الجامع الذى على باب زويلة بظاهر القاهرة . وخرجت
الخلع لولده العادل ثانى يوم وفاته ولقب العادل الناصر ، وكان الصالح قد دفن

(١) ١/٣١٧ يتيمة الدهر للثعالبي ، وراجع ترجمته فى ابن خلكان ٢٤٣

بالقاهرة ثم نقله ولده العادل سنة ٥٥٧ هـ في تابوت وركب خلفه العاضد إلى قبره الذى بالقرافة الكبرى .

وقد أورد له صاحب كتاب الروضتين^(١) قصائد أرسلها إلى أسامة بن منقذ^(٢) يحرض فيها نور الدين على قتال المشركين ثم ، أورد نقلا عن الهادي الأصماني في الخريدة :

• الصالح أبو الفارات طلائع بن زريك سلطان مصر في زمان الفسائر وأول زمان العاضد ، ملك مصر واستولى على أمر صاحب القصر ونفق في زمانه النظم والنثر وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي العطاء ، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام ، وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته وإحسانه معاني حكمته ، فيقال إن المذهب بن الزبير كان ينظم له والجلس بن الحباب كان يمينه . ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

أنظر إلى ذى الدار كم قد حل ساحتها وزير
ولكم تبهت آمنة وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا إليه من الفناء غدا نصير

وعجيب من الهادي أن يحمده الصالح شعره لالئى إلا أنه جيد محكم ، وهل مقام الوزارة وعلو المسكنة يناقيا القدرة الشعرية والسبق في ميدان البيان ؟ .

ومن شعراء هذه الفترة المذهب بن الزبير ، قال في الروضتين :

• لم يكن في زمانه أشعر منه ، وله شعر كثير ، فاجاء في إحدى قصائده في مدح الصالح بن رزيك :

(١) ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (بالقرب من حماه) وعلماؤهم وشجعانهم . سكن دمشق ، ثم انتقل إلى مصر فبقى بها أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد إلى الشام وأقام حتى ملك صلاح الدين دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

ولقد بعثت إلى الفرنج كتاباً كالأسد حين تصول في خفان
لبسوا الدروع ولم تخل من قبلهم أن البحار تخل في غدران
وله قصيدة كتب بها إلى الداعي باليمن يستمطفه ، لما قبض على أخيه
الرشيد فأطلقه :

ياربع أين ترى الأحبة يعموا	هل أنجدوا من بعدنا أو أتهموا؟
نزلوا من العين السواهل إن نأوا	ومن الفؤاد مكان ما أنا أكم
رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم	وجد على مر الزمان نخم
وتعوضت بالأنس روحى وحشة	لا أوحش الله المنازل منكم
لا تبعثوا لى فى النسيم نجمة	لنى أغار من النسيم عليكم
لنى امرؤ قد بعث حظى راضياً	من هذه الدنيا بحظى منكم
فسلوت إلا عنكم وقنعت إلا	منكم وزهدت إلا فيكم

وقد توفى سنة ٥٦١ هـ .

ومنهم الجليل بن الحجاب ، قال فيه العماد : « جليس صاحب مصر ، فضله مشهور ،
وشعره مأثور ، وكان أوجد عصره فى مصر نظماً ونثراً وترسلاً وشعراً ، مات
سنة ٥٦١ هـ .

ومنهم عمارة الهنئى وكان شاعراً كبيراً سياسياً ، كانت حياته مزيجاً من النعيم
والشقاء ، ونهايته المحزنة جديرة بأن تثير العطف والإشفاق . ولد سنة ٥١٥ هـ
وكان عربياً فقيهاً أديباً ، وله كتاب ذكر فيه أحواله وأخباره باليمن ثم بمصر ،
فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه فيها مذهب الإمام الشافعى . قال :
« ولى فى الفرائض ، مصنف يقرأ باليمن وفى سنة ٥٣٩ هـ ، زارنى والدى وخمسة من
إخوانى بزبيد ، فأنشدته شيئاً من شعرى فاستحسنه ، ثم قال . تعلم والله إن الأدب
لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بدم الناس ، واستحلفنى ألا أهجو مسلماً
بيت شعر ، خلفت له على ذلك . »

وحج مع أم فاتك ملك زبيد ، وحصل له وجاهة عندهما فأثرى وكثر ماله .
ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن . ثم حج سنة ٥٤٩ هـ فطلب منه والى
الحرمين السفارة عنه إلى الدولة المصرية . قال : « فقدمتها سنة ٥٥٠ هـ ، والخليفة
يومئذ الفائز ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزبك ، فلما حضرت السلام

علمهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت به النعم
وفي هذه القصيدة يقول :

فهل درى البيت أنى بعد زورته ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سراقها بين التقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدسة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللتبوة آيات تضيء لنا على الخفيين من حكم ومن حكم
وفيها يقول :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقدحى الدين والدنيا وأهلها وزيره الصالح الفراج للنعم

قال عمارة : « وكان الصالح يستعيدهما مراراً ، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب ، ثم أفيضت على خلع من ثياب الخلافة مذهباً ودفع إلى الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحل المال معي إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي . »

ولما انتالت عليه الصلوات ، وطاب له بمصر المقام قال :

ليالي بالفسطاط من شاطئ مصر سقى عهدك الماضي عهداً من القطر
ليال هي العمر السعيد وكل ما مضى من سواها لا يعد من العمر
أفادتي الأقدار فيها مواليا صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على ألا ترد إرادتي ولو ستمتهم نثر الكواكب في حجرى

وكان من أظهر أخلاق عمارة الوفاء ، فلما قتل الصالح بن رزيك وجلس شاور في دار الذهب ، وقام الشعراء والخطباء ينالون من بنى رزيك أبي عمارة أن يسمهم بهجاء . فكان مما قاله :

زالت ليالي بنى رزيك وانصرفت والحمد والذم فيها غير منصرف
إلى أن قال :

ولم يكونوا خدواً ذل جانبه وإنما غرقوا في سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمي عدالك سوى تعظيم شأنك فاعذرتي ولا تلم
ولو فتحت في يوماً بدمهم لم يرض فضلك إلا أن يسد في

فشكره شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك .

ولما زالت دولة الفاطميين ، وكان لهم غلصا وفضلهم ذا كرا ، امتلأ قلب
عمارة حزنا عليهم ، وحسرة على ماضي أيامهم ، ولكنه اضطر إلى مدح صلاح
الدين ، فن مدائحهم فيه قوله :

صحت به مصر وكانت قبله تشكو سقاما لم يعن بطبيب
عجبا لمعجزة أنت في عصره والدر ولاد لكل عجيب
رد الإله به قضية يوسف نسقا على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى مصر على التدريج والترتيب
وهو كما ترى شعر ضعيف لم يخرج من القلب .

وما زالت ذكرى الفاطميين تعاوده ، والأسف عليهم يحتاجه ، حتى نظم قصيدته
المشهورة في رثاء دولتهم ، وهي تشرح كثيرا من أحوال الفاطميين وعاداتهم
وأيامهم ، وتعد من أجود الشعر في رثاء الدول .

قال المقرئ : وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله وتمحلت له الذنوب ،
وأول هذه القصيدة :

رمى يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حل الحسن بالحلل
ومنها :

لحن ولحن بني الآمال قاطبة على لجمعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلافتها من المكارم ما أربي على الأمل
وفيها يتدد بالفظائع التي أوقعها بهم بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين على ؟
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما ملكتم بين حكم السبي والنفل
ومنها في ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم على طلال
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم تشكرو من الدهر حيفا غير محتمل

وكسوة الناس في الفصلين قد درست
وموسم كان في كسر الخليج لكم
وأول العام والعيدان كان لكم
والأرض تهتز في عيد الغدير بما
والخيل تعرض في وشى وفي شية
ولاحتمتم قري الأضياف من سعة
وما خصتم ببر أهل ملئكم
وللجوامع من أحباسكم نعم
ورث منها الجديد عنهم وبلى
يأتى تجملكم فيه على الجبل
فهن من وبل جود ليس بالوشل
يهتز ما بين قصرىكم من الأسل
مثل العرائس في حل وفي حلل
أطباق إلا على الأعناق والعجل
حتى عمتهم به الأقصى من الملل
لمن تصدر في علم وفي عمل

وانهم في أول الدولة الأيوبية بالآمر على الدولة ، فقتل عام ١٥٦٩ هـ .
ومن الشعراء كذلك محمد بن القاسم شاعر الحاكم ومن شعره :
مازلت مصر من سوء يرادها لكنّها رقصت من عدله طربا
والشعر المصري الفاطمي خلال هذا العصر (٢٥٨ - ٥٦٧ هـ) أقسام ثلاثة :
قسم نظم في مدح الخلفاء والوزراء ومن شعرائه المذهب ابن الزبير ؛ والمذهب
الموصلى ، وعمارة التينى ، وشعر تعليمى فى الدعوة من مثل شعر المؤيد الشيرازى
داعى الدعاة ، وشعر يمثل بيئة مصر الشاعرة كما فى شعر تميم وشعر العقيل أبى الحسن
هلى بن الحسين بن حيدرة العقيل وكان من الأشراف ، وكان ينظم الشعر لنفسه فى
الحب والطبيعة والوصف ، وكان يجيد التشبيه فهو خليفة ذى الرمة وابن المعتز ،
كما سلك مسلك أبى نواس فى الخمر وتوليد المعانى منها .

نماذج من الشعر الفاطمي

قال تميم ابن المعز^(١) يصف فوارة في بستان :

وقاذفة بالماء في وسط بركة قد التحفت ظلامن الأيك بسججا^(٢)
إذا انبثقت بالماء سلته منصلا وعاد عليها ذلك المنصل هو دجا^(٣)
تحاول إدراك النجوم بقذفها كأن لها قلبا على الجو محرجا
وقال أيضا في الفخر :

ألقى الكمي فلا أخاف لقاءه ويقل إقدامي شبا الحدثنان^(٤)
وأكر في صدر الخنيس معانقا لدوت حين يفر كل جبان^(٥)
ويزيدني كل الخطوب تعظما وتسلب الأيام عز مكان
وعلى أخلاق الزمان فلم أضق ذرعا بأياي وغدر زمان
وكما يمل الدهر من إعطائه فكذا ملأته من الحرمان
وكما يمر لمعشر بسعادة فكذا يكر لمعشر بهوان
فاذا رماك بشدة فاصبر لها فلسوف يأتي بعدها بليان^(٦)
وسل الليالي عن نفاذ عزيقي وسل الحوادث عن ثبات جناني

(١) هو أبو علي الأمير تميم بن معد المعز لدين الله الفاطمي باني القاهرة ، لم يكن ولي عهد أبيه لأن العهد كان لأخيه نزار ، وله شعر رقيق وكان في الفاطميين كابن المعتز في بني العباس توفي سنة ٣٧٤ هـ .

(٢) السجسج : الذي لا حر فيه ولا برد .

(٣) المنصل : السيف كالمنصل . الهودج : محل له قبة كانت النساء تركب فيه .

(٤) الكمي : الشجاع المقاتل . والشبا : جمع شباة : وهي : الحد .

(٤) الخنيس : الجيش

(٥) اللبان : اللين والرخاء .

(٦) الضريبة المضروب .

تخبرك هنى أننى لم ألقها بين العرائم واهن الأركان
أصبحت لا أشتاق إلا للندى أيضا ولا أهوى سوى الإحسان
وإذا السيوف قطعن كل ضريبة قطع السيوف الفاطمات لسانى^(١)
وينسب له فى الغزل :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولى بالشكر
وسفحت قولى ، وقالت : متى سمجت؟ حتى صرت كالبدرا
والبدر لا يرنو بعين كما أرنوا ولا يسم عن نحر
ولا يميظ المرط عن ناهد ولا يشد العقدة فى نحر^(٢)
من قاس بالبدر صفاتى فلا زال أسيراً فى يدى هجرى
وقال أبو الحسن التهامى^(٣) يرثى ابنا له مات صغيراً :

حكم المتية فى البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
بيننا يرى الإنسان فيها مخبراً حتى يرى خيراً عن الأخبار
طبعت على كدرو أنت تريدها صفواً من الأفذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جدوة نار
فإذا رجوت المستحيل فإنما تنبى الرجاء على شفير هار^(٤)
فالعيش نوم المتية يقطة والمرء بينهما خيال مسار
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت منقادة بأزمة المقدار^(٥)

(١) الضريبة : المضروب .

(٢) المرط : كساء من صرف ونحوه يتخذ إزاراً .

(٣) هو أبو الحسن على بن محمد التهامى . أصله من بلاد العرب من تهامة .
جاء الأفطار وطوف البلاد ومدح الرؤساء فى الشام وبأديتها ، وأقام بينهم ،
وبعشه جاسوساً إلى القاهرة على الفاطميين ، فقبضوا عليه وسجنوه ثم قتلوه سنة
٤١٦ هـ . وكان مليح الشعر بدويه ، وذاعت مرثيته هذه وكانت سبب اشتهاه .

(٤) الشفير : حافة الشئ وطرفه . وهار : منهار ، أى قائماً تنبى الرجاء على حافة
كثيب منهار ، فلا يستقر بناء ، أى لا يتحقق رجاء .

(٥) المقدار : ما يقدره الله من شأن .

فأفضوا مآربكم عجالا إنما أعماركم سسفر من الأسفار
وتركضوا خيل الشباب، وحاذروا أن تسترد فأنهن عوار^(١)
فالدهر يخدع بالمني، ويغص إن هني، ويهدم ما بني بيوار^(٢)
ليس الزمان وإن حرصت مسالما خلق الزمان عداوة الأحرار
يا كوكبا ما كان أقصر عمره وكذلك عمر كواكب الأسفار^(٣)
وهلال أيام مضى لم يستدر بدرآ، ولم يمهل لوقت سرار^(٤)
عجن الخسوف عليه قبل أوانه فحاه قبل مظنة الإبدار
واسئل من أترابه ولداته كالمقلة استلت من الأشفار^(٥)
فكان قلبي قبره، وكأنه في طيه سر من الأسرار
إن يحتقر صفرا قرب مفخم يبدو ضئيل الشخص للنظار
إن الكواكب في علو محلها لترى صفاراً وهي غير صفار
ولد المعزى بعضه، فاذا انقضى بعض الفتى فالكل في الآثار
أبكيه، ثم أقول معتزلاً له : وفقت حين تركت الأم دار
جاورت أعدائي، وجاور ربه شتان بين جواره وجواري
أشكو بعادك لي، وأنت بموضع لولا الردى لسمعت فيه سراري^(٦)

(١) وتركضوا خيل الشباب : أى اعملوا فيه وانعموا قبل أن يسترد فإنه عارية .

(٢) أغصه : أذافه الغصة ؛ وهي الهم والحزن .

(٣) الكواكب التي تظهر على الشرق في السحر : كالزهرة في قسم من فصول السنة وكمطارد كذلك ، قصيرة مدة الظهور ، لأن الشمس تطلع عقب طلوعها فينسخها ضوءها .

(٤) استدارة البدر : في وسط الشهر ، وسراره : أى خفاؤه جملة ، وذلك يكون آخر ليلة من الشهر ، وهي التي يظهر بعدها الهلال الجديد .

(٥) الأتراب والندات : من يولدون في زمن واحد .

(٦) السرار : المسارة ؛ أى الكلام بهمس . والمعنى أنه لولا الموت لسمع ولده صوته وهو يتكلم خافتاً ، فهو في قبره قريب منه ، ولكن الموت يجعل هذه المسافة القريبة شقة شاسعة ومكاناً نائياً .

(م — ٩ أدب)

والشرق نحو الغرب أقرب شقة
 هبات قد علقنتك أشراك الردى
 ولقد جريت كما جريت لغاية
 فاذا نطقت فأنت أول منطقى
 أخفى من البرحاء ناراً مثلها
 وأخفض الزفرات ، وهى صواعد
 وشهاب زند الحزن إن طاوعته
 وأكف نيران الأسى ، ولربما
 ثوب الرياء يشف عما تحته
 وقال على بن النعمان (٥) فى صديق :

صديق لى له أدب
 رعى لى فوق ما يعرى
 صدقة مثله نسب
 وأوجب فوق ما يجب
 فلو نقدت خلائقه
 لهرج عندها الذهب

وقال أبو الحسن على بن عبد الرحمن (٦) فى الهجاء :

وذى حرص تراه يلم وفرا
 كنكلب الصيد : يمسك وهو طاو
 لواربه ، ويدفع عن حماه (٧)
 فريسته لياكلها سواء (٨)

-
- (١) الخمسة الأشبار : مسافة بعد اللحد عن ظاهر الأرض .
 (٢) البرحاء : الحزن المبرح . والوارى : المتقد بالنار .
 (٣) الزند : العود الأعلى الذى يقتدح به النار وورى الزند : خرجت ناره .
 (٤) عارض ابن نباتة هذه القصيدة بقصيدة له فى رثاء ابنه ، مطلعها :
 الله جارك إن دمعى جارى يا موحش الأوطان والأوطار
 (٥) هو القاضى أبو الحسن على بن النعمان ، قاضى العزيز الفاطمى ، توفى
 سنة ٣٧٤ هـ .
 (٦) هو الشهير بابن يونس المنجم المصرى من فلكيى المصريين زمن الفاطميين ،
 توفى سنة ٣٩٩ هـ .
 (٧) الوفى : المال الكثير .
 (٨) طاو : جوعان .

وقال الحسن بن الزبير الأسواني^(١) في الشوق إلى الشام :

يا رب الله يا رب الخ
وحملت من نشر الخزا
ونسجت ما بين الفصو
وهززت عند الصبح من
فلأت صفحة وجهه
فكأنما ألفت في
مرى على بردى ؛ عسا
نهر كنصل السيف تك
صقلته أنفاس النس
أحبابنا ما بالك
وحياة حبكم ، بتر

ل إذا اشتملت الروح بردا^(٢)
مى فاعتدى للتد ندا^(٣)
ن ، إذا اعتنقن ، هوى وودا
أجياها للزهر عقدا
حتى اكتسى آسا ووردا
ه منهما صدغا وخدا :
ه يزيد في مسراك بردا^(٤)
سو متنه الأزهار غمدا
يم بمرهن ، فليس يصددا^(٥)
فيتا من الأعداء أعدى !
به وصدكم ما خنت عهدا^(٦)

وقال عمارة النيني^(٧) في وصف دار :

(١) هو القاضي المذهب الحسن بن الزبير من كبار الأدباء والشعراء في دولة الفوالم المصريين ، توفي سنة ٥٦١ هـ .

(٢) الروح : النسيم .

(٣) الخزامى : نبت عبق الزهر . والذشر : الشذا . والند : نبت طيب الرائحة .

(٤) البرد بضم الراء : جمع برید ؛ وهى مسافة كل منزلة لخيل البرید ، وسكن الراء للشعر .

(٥) يصددا : يصدأ . وخفف الهمز لضرورة القافية .

(٦) أقسم أولا بحياة حبه لمعشوقه ، ثم أقسم بترية مواصلة المعشوق له ، أى أنه لما لم يواصله ، صار حكم الوصل كالنيت المدفون في قبر ، فهو يحلف به لإجلالا .

(٧) هو نجم الدين أبو محمد عمارة الحسكى ، من أهل اليمن ، دخل مصر مؤديا

رسالة من أمير مكة إلى الخليفة الفاتز الفاطمى ، فأعجبته مصر فأقام بها ، وأكرمه

ملوكها ، فلما أباد صلاح الدين الأيوبي ملك الفاطميين في مصر دبر عمارة مع شيعة

الفاطميين المكاييد لإعادة دولتهم ، وعلم بهم صلاح الدين فصلهم وفيهم عمارة

سنة ٥٦٩ هـ .

أنشأت فيها للعيون بدائعاً دقت فأذهل حسنها من أبصرا (١)
فن الرخام : مسجيرا ومسهما ومنمنا ومدرها ومدنرا
وسقيت من ذوب النضار سقوفها حتى يكاد نضارها أن يقطرا (٢)
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصورا
فيها حدائق لم تجدها ديمة : كلا ولا نبتت على وجه الثرى (٣)
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا والنخل والرياحان إلا مشمرا
والطير مذ وقعت على أغصانها وثمارها لم تستطع أن تنقرا
وبها من الحيوان كل مشبه لبس الحرير العبقري مصورا
لا تعدم الأبصار بين مروجها ليثا ولا ظبياً بوجرة أعفرا (٤)
أنست نوافر وحشها لسباعها فظباؤها لا تتق أسد الشرى (٥)
وكان صواتك الخفيفة أمئت أسرابها ألا تخاف فتذعرا
وبها زرافات كأن رقابها في الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشأ تريك من المها روقاً، ومن بزل المهاري مشفرا (٦)
جبلت على الإقعاء من أعجازها فتخالها في التيه تمشي القهقري

وقال عمارة اليني في رثاء دولة الفواطم . وفيها إشارة لكثير من أيامهم وعاداتهم :

-
- (١) المسير : المخطط . والمنعم : المزخرف : والمسهم والمدرم والمدنر : ما فيه صور السهام والدراهم والدنانير .
(٢) النضارة : خالص الذهب .
(٣) الديمة : المطر يدوم .
(٤) وجرة اسم مكان ببلاد العرب كبير بين البصرة ومكة تسكنه الوحش من الظباء وغيرها .
(٥) الشرى : مأسدة بقرب الكوفة .
(٦) الروق : القرن . والمهاري : جمع مهريه وهي الناقة المنسوبة إلى بلاد مهرة شرق حضرموت . أى أنها أشبهت بقر الوحش في القرون ، وأشبهت الإبل في المشافر .

رمى يادهر كف المجد بالشلل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل
لطفى ولطف بنى الآمال قاطبة
قدمت مصر فأولتني خلافتها
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة
بأنه زرساحة القصرين وابك معى
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما
والخيل تعرض من وشى ومن شية
وللجوامع من أحباسكم نعم
وربما عادت الدنيا لمعقلها

وجيده بعد حل الحسن بالعطل
سقيت مهلا (١) أما تمشى على مهل
على خيعتنا فى أكرم الدول
من المكرم ما أرى على الأمل
كلها أنها جادت ولم أسل
لك الملامة إن قصرت فى عدلى
عليهما لا على صفتين والجل
يهتز ما بين قصرىكم من الأسل
مثل العرائس فى حل وفى حل (٢)
لمن تصدر فى علم وفى عمل (٣)
منكم وأضحت بكم محولة العقل

وقال فى كسر الخليج يمدح العاضد سنة ٥٩٩ هـ :

سجودا فهذا صاحب الركن والجز
تمل أمير المؤمنين مواسماً (٥)
ركبت إلى كسر الخليج وإنما
ولما رأيت البر بجرأ من الظبا
غدوت بفتح السد فى زحف أرعن
يرد ظلام النقع فجرأ كأنما
ومنها :

ووارث علم النمل والنحل والحجر (٤)
تزورك من صوم شريف ومن فطر
ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر
تهجيت من بحر يسير إلى نهر
يسدهوب الريح بالأسل السمر (٦)
أسنته مطبوعة بسنا الفجر

وكم قدرة يا آل رزبك منكم تعبر بالإحسان عن شرف القدر

-
- (١) المهل : القطران أو الزيت أو درديه أو ما ذاب من حديد .
(٢) الوشى : النقش والتجسين وخلط لون بلون .
(٣) الأحباس : ما يحبس من الثروة لتكون غلاته لوجه الخير .
(٤) الحجر : الخيل .
(٥) تمل مواسماً : أى عيش متمتعاً بها . (٦) الأسل السمر : الرماح .

ولو لم تكونوا آمريين على الورى
فكيف وقد أضجى امام زمانكم
فدمتم له ما دام شعري فإنه
لكنتم أحق الناس بالنهى والأمر
لكم جامعاً بين الكفالة والصر
سببق إلى أن ينقضى عمر الدهر

وقال يمدح الإمام العاضد :

الشعر يعلم أن قدرك أكبر
لكن مدحك خدمة مفروضة
شرفت أمير المؤمنين مواسم
قسمت كما قسم الزمان لفاخر
وأجلها يوم الخليج فإنه
يوم خلعت عليه ليل عجاجة
وأفاك فيه النيل وهو من الحيا
قد جاء معتذراً إليك وتائباً
لولا تعثره بأذيال الثرى
لو لم تغبر بالندى في وجهه
ولو انه لاقى ركابك أبيضاً
ولقد عدمناه فثبت نيابة
إن كان من نهر فكفك لجة
شتان بينكما أبحر واحد
بما نقول وأن فضلك أكثر
أمر المقل بفعلها والمكثر
أضحت تورخ باسمكم وتسطر
لم ينصرم ومقدم ومؤخر
من بينها يوم أغر مشر
شهب الأسنة في دجها زهر
خجل يقدم رجله ويؤخر
من ذنبه الماضى ومثلك يعذر
ما كان مذكوراً عليه العثير (١)
ما لاح قط عليه لون أغبر
صرفاً لكدره العجاج الأكر
عز الغنى بها وأثرى المعسر
أو كان من مطر فوبلك أغزر
كيد أناملها الكريمة أبحر

وقال من قصيدة يذكر حريق منظره على الخليج لآل رزيك ويذكر دارهم
الأخرى وما فيها من الستور والتساوير :

لم تحترق دار الخليج وإنما
طلبت بقاع الأرض دون وهادها
أو هل تزور النار ساحة جنة
أنشأت فيها للعيون بدائماً
شبت لمن يسرى بها نار القرى
فوقدت في رأس شاحمة الذرى
أجريت فيها من نذاك الكوثر
دقت فأذهل حسنها من أبصر

(١) العثير : التراب .

ومنها :

لا تعدم الأبصار بين مروجها ليثاً ولا ظلياً بوجرة أعفرا
أنست نوافر وحشياً بسباعها فظباؤها لا تتق أسد الشرى
وبها زرافات كأن رقابها في الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشأ تربك من المها روقا ومن بزل المهارى مشفرا (١)
جبلت على الإقواء من أعجازها فتخالها للتيه تمشى القهقرا
يأبها الملك الذى اعتصمت يدي منه بجبل غير منقسم العسرا
اسمع جواهر خاطر لو لم يغص في بحر جودك لم يقل ذا الجوهر
روى منابت كرمها السكرم الذى أضحى بينبوع السدى متفجرا
وقال يمدح المظفر فارس المسلمين أبا الملك الصالح :

سرت نفحة كالمسك أزهى وأعطر وأردية الظباء تطوى وتنشر
بعيشك هل فى الأرض غيرى عاشق وهل فارس الإسلام إلا المظفر
شهاب أمير المؤمنين الذى غدت بدولته الأيام تسمو وتفخر
أغر لوأنا ما عرفنا حديثه لحدثنا عنه سرير ومنبر

ومنها :

تهلل بشرا واستهل أناملا فله بدر مشمس الجو عطر (٢)
أرى الناس جساآل زريك رأسه وبدر له تاج ورزبك جوهر
دعوا يا بنى الأحياء يحيى وجمعفرا فكل بنى زريك يحيى وجمعفرا
ولا تذكروا كعبا وعمرا وعنترا نخادمهم كعب وعمرو وعنترا
وخلاوا حديث البخترى فإنتى له بخترى لم تناسبه بختر (٣)

(١) الروق : القرن . والبزل : جمع بازل وهو البعير الذى انشق نابه بدخوله
فى السنة التاسعة والمهارى : الابل المهرية المنسوبة إلى مهرة .

(٢) استهل المطر : انهل .

(٣) البخترى بن أبى صفرة ، كان من أكمل فتيان العرب جمالا وبيانا
وشعرا ، وكان بنو المهاب يحسدونه لفضله (الأمانى ج ٢ ص ١٣٦) .

وكنت أظن الشعر بعد طلائع
فأحييتك تلك السجايا بمثلها
يضيغ فينسى أو يموت فيقبر
حياة بها ميت المسكارم ينشر
وقال يمدح الناصر بن الصالح :

دانت لأمرك طاعة الأقدار
وسما على الشعرى محلك في الورى
وتواضعت لك عزة الأقدار
فسمت بذلك همه الأشعار
ومنها :

وامدد يدك أبا الشجاع مشوبة
وقال محمد بن عاصم الموفقى من قصيدة في وصف دير القصير :

غردت بينها الطيور فطارت
كم خلعت العذار فيه ولم أر
ع مشيا بمفرق وعذارى
كم شربنا على التصاوير فيه
بصغار محوثة وكبار
فسقى الله أرض حلوان فالنخ
ل فدير القصير صوب العشار

وقال أبو عبد الله محمد بن النعمان وهو من قضاة الفاطميين في صدر دولتهم :

رب خود عرفت في عرفات
حرمت يوم أحرمت نوم عيني
سلبتني من حسنبا حسنا
واستباححت حماسى باللحظات
من جفوني سواكب العبرات
حين راحت للرعى بالجمرات
ولقد أضرمت بقلبي جمرأ
لم أنل من مئى مئى النفس حتى
خفت بالحيف أن تكون وفاقى
وقال تميم بن المعز :

أما والذي لا يملك الأمر غيره
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً
ومن هو بالسر المكتم أعلم
لإعلانه عندي أشد وآلم
وإن كنت منه دائماً أتبسم
وقال حمارة اليمنى يذكر أيامه بمصر في عهد الفاطميين :

ليالى بالفسطاط من شاطئ مصر
ليال هي العمر السعيد وكل ما
سقى عهدك الماضى عهد من القطر
مضى من سواها لا يعد من العمر

وما زالت ذكرى الفاطميين تعاوده ، والأسف عليهم يحتاجه ، حتى نظم قصيدته المشهورة في رثاء دولتهم ، وهي تشرح كثيراً من أحوال الفاطميين ومفاخرهم وأيامهم ، وتعد من أجود الشعر في رثاء الدول .

قال المقرئى وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة (رحمه الله) وتمحلت له الذنوب ، وأول هذه القصيدة :

رميت يا دهر كف المجد بالثلل وجيده بعد حل الحسن بالعطل
ومنها :

لطفى ولطف بنى الآمال قاطبة على خبيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها من المسكارم ما أربى على الأمل
وفيها يندد بالفظائع التي أوقعها بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الأفرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين على ؟
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما ملكتم بين حكم السبي والنفل
ومنها في ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم على طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورث منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان في كسر الخليج لكم يأتي تجملكم فيه على الجبل
وأول العام والعيديان كان لكم فيهن من وبلى جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في عيد الغدير بما يهتز ما بين قصر بكم من الأسل
والخيل تعرض في وشى وفي شية مثل العرائس في حل وفي حلل
ولاحتملتم قرى الأضياف من سعة الأ طباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل
والجوامع من أحباسكم نعم لمن تصدر في علم وفي عمل
ومن المدائح في قائدين من قواد الدولة :

النائبان عن المنية والمنى في قسمة الأرزاق والأعمار
والمصلحان فساد كل طوية مرتابة بالعرف والإنكار

القائمون إذا تطاول ناكث
والحاملان عن الممالك نقل ما
والرافعان غداة كل كريمة
والموقدان لهم بكل ثنية
ولقد جمعت أبا الشجاع إليهما

ومنها :

وغدت علاك صحيفة عنوانها
وبنت بمد أيبك شاخ رتبة
أعلتنا لما طلعت ببرجها
يا خابط العشواء بعد طلائع
يا ظمى الآمال إنك نازل
يا خائف الضارى نصحتك فأتد
واسلم لأيام غدا بك أهلها
وقال أبو حامد الأنطاكي يمدح أبا الفرج يعقوب بن كلس وزير العزيز
الفاطمي :

قد سمعنا مقاله واعتذاره
والمعانى لمن عنيت ولكن بك عرضت فاسمى يا جاره
ومنها :

سحرتنى الحاظه وكذا كل مليح الحاظه سحاره
ماعلى مؤثر التباعد والإعراض لو آثر الرضا والزياره
وعلى أنفى وإن كان قد عسذب بالهجر مؤثر إيثاره
لم أزل لأعدمته من حبيب أشتى قربه وآبى نفاذه
ومنها :

لم يدع للعزيز فى سائر الأثر ض عدوا إلا وأحمد ناره
(١) نقض الحبل حله . والإمرار : القتل الشديد . والمراد بالنقض والإمرار :
الحل والعقد فى الأمور .

كل يوم له على نوب الدهر سر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخد سل وفي حومة السدى كراهه
هي قلت عن العزيز عداه بالعظايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تم سى وتضحى نفاعه ضراره

وقال :

ليلي بتنيس (١) ليل الخائف العاني تفنى الليالي وليلى ليس بالفاني
أقول إذ لج ليلي في تطاوله ياليل أنت وطول الدهر سيان
لم يكف أنى في تنيس مطرح نجيم بين أنجان وأحزان
حتى بليت بفقدان المنام فا للنوم إذ بعدوا عهد بأجفان

ومنها :

ليالى النيل لا أنساك ما هتفت ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبر إلى هفوات فيك قد سلفت قطعتهن وعين الدهر ترهاني
كم بالجزيرة من يوم نعمت به على تصاحب نايات وعيدان
سقىا ليلتنا بالدير بين ربا باتت تجود عليها سحب نيسان (٢)

وصعد العزيز على المنبر يوما فرأى فيه رقعة كتب له فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحقاه
إن كنت أعطيت علم غيب فاذا كنا كنا كاتب البطاه
وصعد في بداية ولايته المنبر يوم جمعة فوجد في أعلى درجاته رقعة فيها هذه
الآيات :

إنا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا فاذا كنا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته فأنسب لنا نفسك كالطائع
أولا دع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم يقتصر عنها طمع الطامع

(١) تنيس : مدينة قرب دمياط .

(٢) نيسان : شهر من شهور السنة المسيحية .

أبو علي تميم بن معد صاحب مصر

(٣٣٧ - ٣٧٤ هـ (٩٤٧ - ٩٨٥ م)

نسب الشاعر وحياته :

أبو علي تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي ، يقول فيه ابن خلكان :
« كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب . وكان تميم فاضلاً شاعراً ماهراً
لطيفاً ظريفاً ، وأشعاره كلها حسنة . وكانت وفاته في ذي القعدة سنة ٣٧٤ هـ
بمصر ، هكذا قال صاحب الدول المنقطعة ، وزاد العتيقي في تاريخه أنه توفي يوم
الثلاثاء مع زوال الشمس لثلاث عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور وأن أخاه
العزير نزار بن المعز حضر الصلاة عليه في بستانه وغسله القاضي محمد بن النعمان
وكفنه في ستين ثوباً ، وأخرجه من البستان مع المغرب وصلى عليه بالقراءة وحمله
إلى القصر ، فدفنه بالحجرة التي فيها قبر أبيه المعز ، وقال محمد بن عبد الملك الهمداني
في كتابه الذي سماه المعارف المتأخرة ، إنه توفي سنة ٣٧٥ هـ (١) ، وقال غيرهما
إنه ولد سنة ٣٣٧ هـ (٢) ،

حضر الشاعر مع والده من بلاد المغرب إلى مصر عام ٣٦٢ هـ وهو في
الخامسة والعشرين من عمره ، بعد أن تثقف ثقافة واسعة ، واكتسب نضوجاً فكرياً
وأديباً كبيراً ، وذاعت شهرته الأدبية ، وقد فقدنا شعره في هذه الفترة .

أولما قدم مصر تفتحت عينه على نهضة أدبية شعرية في قصر والده ، فأخذ
يشارك الأدباء والشعراء في ميدان البلاغة ، تساعده فطرة موهوبة ومملكة مواتية
وخيال شاعر ، ولكنه نه فوجيء بموت أبيه سنة ٣٦٥ هـ وحرم هو الخلافة وتولاها
أخوه نزار ، وأخذت الوشايات تكثر . ولكن تيمماً سلك مسلكاً يبنى عنه كل هذه

(١) ويروى صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة أنه توفي في عام
٣٦٨ هـ (١٣٣ ج ٤) فحزن عليه نزار أخوه ، وكان له ثلاث إخوة : نزار
وعبد الله وعقيل ، وقد مات عبد الله وعقيل قبل وفاته ورثاهما في شعره ، كما كان له
سبع أخوات (٧٧ ج ٤ النجوم الزاهرة) .

(٢) ص ٣٧٢ و ٣٧٣ ج ١ ابن خلكان .

الوشايات ، وجعل مثله في الشعر والحياة ابن المعتز ، فتشبه به ، وثبتت بذيله ، وهو إن لم يزاحمه لم يقع دون مطاره كما يقول ابن فضل الله العمري ، وحياة تميم ونشأته وثقافته وشخصيته تشبه إلى حد كبير حياة ابن المعتز ، وأخذ تميم يبعد عن نفسه التشبهات في المطامع السياسية ففعل ما فعله ابن المعتز بميله إلى اللهو والمجون ومجالس الشرب والطرب ، وقد أجاد تميم في الوصف والتصوير والمدح والغزل والتشبيه والزهد والفخر والشكوى كما كان ابن المعتز ، بل عارض تميم ابن المعتز في قصائده ، وناقضه في هجائه للعلويين ، فدافع عنهم تميم ورد على خصومهم ردا مفعجا

ومن حياة اللهو التي وردت عن تميم ما حكاه المقرئ في الخطط ص ١٥٤ و ١٥٥ ج ٢ من أن الناس كانوا يخرجون في أيام النيروز وغير ذلك من أيام اللهو إلى بركة الحبش ، فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتي فارس من عبيده بالعسس عليهم في كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أرهم وينصرفوا ، فيسكرون وينامون كأيام الإنسان في بيته ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة ، ويركب الأمير تميم في عشارى ويتبعه أربعة زوارق مملوءة فاكة وطعاما وشرابا فإن كانت الليالي مقمرة وإلا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم بإعادته وسألهم عما عز عليهم فيأمر لهم به ويأمر لمن يغنى لهم ، وينتقل منهم إلى غيرهم يمثل هذا الفعل عامة ليلة ، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التي على هذه البركة (١) ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام ، ويتفرق الناس ، وكانت قصور تميم تزخر بالجوارى .

وأسلوب تميم سهل ممتنع دون عجز عن الجزالة ، وكان يستعمل الأساليب المصرية الفصيحة ، فاستعمل كلمة « بوس » بمعنى التقبيل في شعره وهي معربة عن الفلرسية ، وكلمة « كيس » لحافظة النقود ، وكلمة « مفاليس » وكلمة « قرص » ، واشتمل شعره على بعض المحسنات البديعية ، وخاصة الاستعارة والتشبيه والكناية . وتمتاز معانيه بالوضوح والجلال ، وأغلبها متداول مشهور ، وله معان مبتكرة جميلة قليلة ، من مثل قوله :

أجنى ثمار الخمر من مضحك شفاهه من ورق الورد

(١) كانت في ظاهر القسطنطينية من قبلها فيما بين الجبل والنيل (١٥٢ ج ١ المقرئ)

وقد أثنى عليه وعلى شعره جميع الأدباء والنقاد ، وذكروا كثيراً من عتاراته كالحصري^(١) ، وابن خلكان^(٢) ، والثعالبي في اليتيمة والعمرى صاحب مسالك الأبصار .

وكان واسع المعرفة^(٣) ، وكان يحتذى مثال ابن المعتز ويقف في التشبهات بجانبه^(٤) .

ولتقيم مراسلات أدبية مع الرسى ، وهو من أسرة مشهورة ؛ فقد كانت في هذا العهد أسرة الرسى أصيلة في روض القريض ، عريضة في مضمار البلاغة ، والرسيون من ولد الحسين ، ونسبتهم إلى الرس جبل بين التين وعمان ، ونزلوا مصر وأقاموا بها مكرمين ، وركنوا إلى العلوم والآداب ، ومنهم أبو عبد الله الحسين بن الرسى الذي تروى له أخبار مع تميم ومراسلات شعرية^(٥) .

ولتقيم ديوان شعر مخطوط بدار الكتب المصرية وهذا الديوان صورة من الأدب المصري . فيه الخصائص المصرية بقدر ما فيه من الخصائص العربية ، فهو شاعر مصري صميم ، وإن لم يكن مصري المولد والنشأة والتربية .

ويرى المتتبع لهذا الديوان أسماء لمواطن وأوصافاً لجهات معروفة بالقاهرة وضواحيها حتى اليوم ، كما يكشف هذا الكتاب عن الحالة الأدبية في العصر الفاطمي ، وكذلك المذاهب الإسلامية والحوار المذهبي في ذلك العهد . والاحتفاظ بهذا الديوان ضروري للتاريخ والأدب ، ولا سيما إذا عرفنا أن العصر الفاطمي قد ذهب آثاره وانطوى سجل التاريخ على خلفاته . فلم يفتح إلا على القليل منها . فقد تقرأ في المصادر التاريخية أن مائة من الشعراء هأؤا أو رثوا أو مدحوا أحد الخلفاء الفاطميين . ثم لا تجد هؤلاء الشعراء ولا أشعارهم فقد أحرقوا مكتبات وضاع بعضها بين تموج الحوادث وأعاصير الانقلاب السياسي . فكل وزنة نثر عليها الآن تعد ذات قيمة غالية بالنسبة لموضوع الأدب المصري بالذات . ومما جاء في مقدمة هذا الديوان :

(١) ١٨٣ - ١٩٠ : ٣ زهر الآداب . (٢) ١٧٢ - ١٧٣ : ١ وفيات الأعيان .

(٣) راجع ص ٢١٧٠ - ٣٠٠٣ ج ١٢ مسالك الأبصار وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤) ٤٧٨ العدد ١٢ من المجلد الخامس من دائرة المعارف (٥) ١٨٣ : ٣ زهر

أما بعد فإن الأمير الكبير تميم بن المعز لدين الله العلوى ، كان قد ولى إمارة
ممالك الشعر ، وألقى إليه زمام التصرف في أقطار النظم والنثر . وذلك لركوب
يراعته كل صعب من فنون الإقتان ، وسهل لتسلق براعته كل حزن من ضروب
سحر البيان ، قد خطب في كل فن من شعبه على منبره ، وتحلى في كل ندى من رتبة
بحلى ردائه ومزوره ، وصاول فيها الفحول ، وقاوم بها كل بازل^(١) صؤول ، ولم
تذله ركة^(٢) الطمع فتستزل مديحه ، ولم تخالجه ميانة السوق فتغش خطابه الملوكي
صريحة ، بل كان مقصود الثناء ، مصمود الفناء ، السنة المدائح في مكارمه مطلقة
الأعنة ، وهو لم يبد في غير أبيه وأخيه الإمامين بلفظة سنة . ومن أحسن ما قيل
فيه قول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويهما السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم^(٣)
وقد جمع في هذا السفر ما وجد من فنون نظمه ليكون دليلا على المفقود من
أفانين حكمه ، وسبيلا إلى التزده في طرائق أدبه وعلمه^(٤) .

صور من حياة تميم :

قال يرثي أخاه عقيلًا في قصيدة منها :
قسمة الموت قسمة لا تجور كل حى بكأسها مخجور
وكان العزيز مبرزًا بعين شمس فغاب تميم عنه بالقاهرة لمرض ألم به أربعة
أيام ، فكتب إليه أبياتا رائية معتذرا :
أغيب ولى مهجة لا تزال إليك سراها وتبكيها
وقال يفضل العلويين يرد على ابن المعتز في قصيدته : أى ربح لآل هند ودار :
جداك الفيت من محلة دارى وثوى فيك كل غاد وسارى

-
- (١) البازل : البعير الذى فطر نابه ، أى انشق بدخوله في السنة التاسعة .
(٢) الركة : المطر القليل ، ويعنى به هنا القلة والحرص .
(٣) أورد ابن خلكان البيتين في مدح تميم بن المعز بن باديس الإفريقى
(٤) ١/١٢٧ - طبع بولاق) . (٤) ص ٤٠ و ٤١ ديوان الشاعر المخطوط .

حكمت بعد قاطنك الليالى فى مغائى رباك بالأفكار
ورمك الخطوب منهم بين ورحيل القطين موت الديار
وهى قصيدة طويلة .

وقال وقت الخروج من الشام عام ٣٧٤ هجرية :

قالوا الرحيل خمسة تأتى سراعا من جمادى
فأجبتهم إني اتخذت له البكا والحزن رادا
سبحان من قسم الهوى بين الأحبة والبعادا
ومن قصيدة له فى مدح المعز :

ومن كان ذا علم بالزمان وأهله تيقن أن الناس كلهم وغد
ومن قصيدة له يهنئ فيها العزيز :

أتيت به أبا المتصورا فرداً تنير به الليالى وهى سود
وله يمدح المعز ويهنئه بيوم عيد وبشفائه من علة :

ألا كل يوم من زمانك عيد وهل فوق إشراق الضياء مزيد؟
ومدح العزيز بأرجوزته : دم العشاق مطلول .

وكتب إلى العزيز :

مرض الجود والنوى والإكرام وشكا ما شكوته الإسلام
ومن شعره يرثى جارية له :

كانت رضى النفس ونيل المني ولذة العيش وطيب المدام
خلائق كالشهد معسولة وعشرة كالروض غب الغمام
أنهى إلى العود وأوتاره ذا الغناء الحائز حد التمام
وله يفخر بقصيدة مطلعها :

هوى أنافت بي على الهمم قبل الفطام ومبلغ الحلم
وسما بقدرى فى العلا أدبى حتى وطئت كواكب الظلم

وله يمدح العزيز ويهنئه بالعيد بقصيدة طويلة :

تميط الأذى عن حاملها الصوارم ويبنى المعالى الكرام المكارم
ومنها :

وأبيض يحكى البدر غرة وجهه وتحكى يديه فى السباح القمام

وله أرجوزة نونية في مدح العزيز مطلعها :

يا رب ليل عطر الأردن من نسيم الزجس والسوسان
كأنما أنجمه الدواني في أفقه روضة اقحوان
ومنها :

يا ابن معز الدين والإيمان وابن الملوك الشم من عدنان
لولاك ما نلت مدى الأمان ولا احتلبت درة الزمان

وله يمدح العزيز بقصيدة طويلة جداً أولها :

نعت بالبين غربان فأحبابك أظعان
ومنها :

عسى أن ترجع الأيام صبحي كما كانوا
ومنها :

إمام حبه فرض من الله وإيمان
أبا المنصور إن الناس طرا لك قد دانوا
وقد نادتك بالطاعة والإخلاص بغدان

وكتب مستشفعا في الحسن بن عبد الله بن طنج إلى العزيز :

تكرمت حتى جرت حد التكرم وألبست أثواب الغنى كل معتمد

وله يمدح المعز من قصيدة مطلعها :

لولا معد أمير المؤمنين لما عز الهدى وفشت في عصرنا النعم

وله يمدح المعز :

يا سراج الظلام جنح الظلام ومبيد العساة يوم اللطام

وله كذلك يمدح العزيز بقصيدة طويلة مطلعها :

دعاني فليس الرأي ما تريان نهاني الحجى عن كل ما تصفان

وكذلك يمدح العزيز بقصيدة طويلة مطلعها :

أسرب مها عن أم سرب جنة حكيتهن ولستن منه

(م — ١٠ أدب)

وله قصيدة طويلة مطلعها في رثاء أهل البيت :

من كنت مولاه فقد أضحي أبو حسن وليه
جلت بسفك دم الحسين وقتله عندي الرزية
ماذا أبيع بكر بلاء من النفوس الهاشمية

وله في العزيز من قصيدة طويلة جدا :

لبن مصر العلي وما جمعت به من المكرمات والدين
وله في العزيز :

لبنك يا ملء أعين الزمان دوام السرور ونيل الأمان
وإنك أنت الإمام الذي أبان له الفضل نص القرآن

ألوان من شعر تميم

قال تميم (١) :

يا بني هاشم ولسنا سواء في صغار من العلا وكبار
إن تكن ننتى لجد فإننا قد سبقناكم لكل غفار
ليس (عباسكم) كمثل (على) هل تقاس النجوم بالأقار ؟
يا بني فاطم إلى كم أقيمكم بلساني ومنصلي واتصاري
نفسدوها مني نتيجة فهم بين حد الأفلال والإكثار
غير أن البيان يظهر فيها ساطعا نوره بغير استتار
حجج كلها تأملها العا لم بانت له بيان النهار

وقال :

ألا يا أيها الطير الموافي لقد أطلقت من فكري سراحى
تذكرت الزمان وما دهاى به من حادث القدر المتاح
ولو لا قيت ما ألقى لضافت عليك موارد البعد الفساح
لعمل الله يفرج ما ألقى ويأخذ للبراض من الصراح

(١) المرجع : ٢١٣ : ٣ ظهر الإسلام ، وفي ص ٢٣٢ كتاب المعز لدين الله الأبيات الثلاثة الأولى ، وفي ٢٣٠ الأدب في عهد الفاطميين بمصر لعبد الحميد عبده خليل الثلاثة الأبيات الأخيرة .

وكتب إلى منكوب :

إن الأمور إذا اشتدت معاقدها
كذلك الدهر إن جاءت فوادحه
كم من مهم قريب خيف سطوته
ما أحسن الصبر فالبس وإن عظمت
والله لو كان لي حكم على زمني
وقال مفتخراً من الكامل (١) :

ألقي الكمي فلا أخاف لقاءه
وأكر في صدر الخيس معانقاً
ويزيدني كره (٢) الخطوب تعظماً
وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق
وكما يمل الدهر من إعطائه
وكما يكر لمشر بسماة
فاذا رماك بشدة فاصبر لها
وسل الليالي عن نفاذ عزيمة
ينبرك عني أني لم ألقها
أصبحت لا أشتاق إلا للندى
وإذا السيوف قطعن كل ضريبة
وقال تميم (من الكامل) (٣) :

يادهر ما أقساك من متلون في حالتك ، وما أقلك منصفاً

(١) المرجع : ٤٤٠ : ١ : البيئمة ؛ والبيت الخامس في وفيات الأعيان صفحة ١٧٢ ، ١ ، ٤٠ : ٢ : الفصل ، ٢٠ صفحات من الأدب المصري .

(٢) رواية البيئمة : كل

(٣) مراجع القصيدة :

ص ٤٢٦ ج ١ البيئمة للثعالبي نشر محي الدين عبد الحميد ، ٢١٣ : ٣ : ظهر الإسلام
٣٩ ج ٢ الفصل ، ٢٤٩ و ٢٥٠ الأدب في عهد الفاطميين بمصر للأستاذ عبد الحميد
خليل وهي رسالة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة ، ٢٣٠ المعزدين الله ، ١٤٨ : ٢ : زهر

أتروح للنكس الجهرل ممدأ
فإذا صفوت كدورت شيمة باخل
لا أرتضبك وإن صفوت لأنى
زمن إذا أعطى استرد عطاءه
ماقام خيرك يا زمان بشره
وقال: (٢)

وذى عجب من طول صبرى على الذى ألاقى من الأرزاء وهو جليل
يقولون ماتشكو؟ فقلت متى شكا
وإن امرأ يشكو إلى غير نافع
عدائى أن أشكو إلى الناس أنى
ويعنى الشكوى إلى الله عليه
سأسكت صبراً واحتساباً بأنى
ويقول: (٣)

ليس من ساد عن ورائة جد
يستحق الثنا ويستوجب الشكر
إنما السيد المعلى المفدى
ورمى ليل كل خطب بهم
واقفى العز بالظبا والعوالى
فكنا تنتمى المكارم والمه
لاكن جرى برجل سواء
لا ألفت العلا ولا ألفتى
أوترفت أو تشاغلعت عنها
لا ولا ابيضلى سنى المجد إن لم
وألقى العداة عنه بعزم

أر لحظ من الحظوظ مباح
ر ويحوى مدائح المداح
من علا للعلا صدور الرماح
بذكاء أضوا من المصباح
واشترى الحمد بالثنا والسياح
جدد ويستعيد العدو الملاحى
وسما طائراً بغير جناح
إن توشحت دونها بوشاح
بأباطيل قينة أو براح
أستجد غسله بنزف الجراح
علوى يفل حد الصفاح

(١) رواية ظهر الاسلام: تقوم: والرواية الأولى أبلغ.

(٢) المرجع: ١٤٧: ٢ زهر

(٣) ١٧١ فى أدب مصر الفاطمية.

وبطش يفرى الجاجم والد
أنا فرد النهى ورب المعالي
أنا مفتاح قفل كل نوال
أنا كالجد في الأمور إذا ما
لا كراض من العلا بادعاء
فسل المجد عن صباحى وليلى
هل يسر العلا مقالى وفعلى
ها كها كالصهيل فى حلبة الفخر
وجاءت فى رواية أخرى :

لا ألقت العلا ولا ألفتنى
لا ولا ابيض لى سنا المجد إن لم
أنا فرد النهى ورب المعالي
أنا مفتاح قفل كل نوال
أنا كالجد فى الأمور إذا ما
فسل المجد عن صباحى وليلى
هل يسر العلا مقالى وفعلى
وقال فى الزهد (١) :

يا عجباً للناس كيف اغتدوا
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن
من شك فى الله فذاك الذى
يجيئهم بعد البلى مثل ما
وقال :

يادهر كم يشتد حربك
يادهر ما ذنبى إليك
بينى وبينك فى الذى
أوليتنى ربى وربك

(١) ص ٢٥٠ و ٢٨٠ فى أدب مصر الفاطمية .

وقال تميم (١) :

إذا فزع الشوق حب القلوب	كواها بشدة تلهابها
أرقت لبرق أضواء الدحي	وأذهب حللك أطنابها
تعلل ما بين حوذاها (٢)	وطيب ثراها ولبابها
بصفراء شابت ولم تحتلم	وأخجلها طول أحقابها
سلاف إذا انتسبت للنديم	غدا الكرم أوكد أنسابها
كان السقاء لها يقسمون	شعاع الشموس لشراها
تطوف علينا بها غادة	كان الضحى بين أثوابها
إذا سلطت سحر أجفانها	دلالات أشارت بعناها
دعاني فلست بمستحسن	لطرق المجنون وآدابها
ألا قل لمن ضل من هاشم	وراق اللحوق بأربابها
أأوساطها مثل أطرافها	أأرؤسها مثل أذنانها؟
أعباسها كأي حربيها	(على) وقاتل نصابها؟
وأول مؤمنها بالإله	وأول هادم أنصابها
بني هاشم قد تعاميت	خلوا المعالي لأصحابها
أعباسكم كان سيف النبي	إذا أبدت الحرب عن نابها؟
أعباسكم كان في بدره	يزود الكتائب عن غابها؟
أعباسكم قاتل المشركين	جهارا ومالك أسلابها
أعباسكم كوصى النبي	ومعطى الرغاب لطلابها
أعباسكم شرح المشكلات	وفتح مقفل أبوابها

(١) يعارض بها قصيدة ابن المعتز التي مطلعها :

ألا من لعين وتسكابها تشكى القذى وبكاها بها
ألا من لنفى وأوصابها ومن لدموعى وتسكابها

وقصيدة تميم موجودة في ٢٥٣ - ٢٥٦ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٢) نبات سمى حلوطيب يرتفع طول الذراع له زهرة حمراء في أصلها صفرة

ووزنه مدورة .

عجبت لمرتكب بغيه يقول فينظم زور الكلام
ويحكم تنميق أذهابها ولكم حرمة يا بني بنته
ولكن بنو العم أولى بها وكيف يحوز سهام البئين
بنو العم ؟ أف لغصابها هذا أنزل الله آتى القرآن
أثعمون عن نص إسمائها ؟ لقد جازى القول عبد الإله (١)
وقاس المطى بركابها ونحن لبسنا ثياب النبي
وأنتم جذبتهم بهدايا ونحن بنوه ووراثه
وأهل الوراثة أولى بها وفيما الإمامة لافيكم
ونحن أحق بجلابها ومن لكم يا بني عمه
بمثل التبول وإنجابها ؟ ومن لكم كوصى النبي
أب فتراموا بنشأها ألسنا لباب بني هاشم
وساداتكم عند نسائها بنا صلتهم وبنا طلتهم
وليس الولاة ككتائبهم ولا تسفهوا أنفسنا بالكذاب
فأتم كلحن قوافي الفخار فأنتم كلحن قوافي الفخار

وقال يفتخر على بني العباس :

أقروا لنا يا آل عباس بالعللا فلستم لها يا آل عباس أكسبا
سبقناكم للدين والهجرة التي تأخر عنها جدمكم وتحجبا
وكنتم بنو عم النبي محمد وكنا بنيه وهو كان لنا أبا
وليس بنو أعمامه في دنوهم كمثل بنيه خلطة وتنسبا
نبا جدمكم عن نصره يوم بعثه وجد علي جدنا عنه ما نبنا

وقال يذم الدهر (١) :

فد - هرك تتقي فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصي الرحمن فيما أنت راكب

(١) يريد به عبد الله بن المعتز .

(٢) ص ٢٥٠ و ٢٨٠ من أدب مصر الفاطمية .

لأمنت من نار الجحيم وفي الحياة من النوائب
إن لم تراقب من له حكم عليك فن تراقب ؟
وله يمدح المعز :

شكا العود بالأوتار شكوا فاطربا وترجم عن معنى الضمير فأعربا
فلم يك شك مثله بث شجوه فأفرح محزونا وفك معذبا
ولإني سبقت الدهر للبعد والعلل وسدت جميع الناس شرقا ومغربا
وما ذاك إلا أنني بسعادتي غدوت قريبا من معد مقربا
وله يرثي أهل البيت (٢) :

نأت بعد ما بان العزاء سعاد لخشو جفون المقلتين سهاد
نأت بعدما ألفت مكايدها النوى وقرت بهم دار وصح وداد
وقد تؤمن الأحداث من حيث تنق ويبعد نوح الأمر حين يراد
أعاذل لي عن فسحة الصبر مذهب وللهو غيري مآلف ومصاد
ثوت لي أسلاف كرام بكر بلا هم لشغور المسلمين سداد
فكيف بلذ العيش عفوا وقد سطا وجار على آل النبي زياد
تساق على الإرغام قسرى نساؤهم سبأيا إلى أرض الشام نقاد
يسقن إلى دار اللعين صواغرا كما سبق في عصف الرياح جواد
فعر على (الزهراء) ذلة (زينب) وقتل (حسين) والقلوب شداد
وقرع يزيد بالقضيب لسنه لقد مجسوا أهل الشام وهادوا
وقال (١) :

إذ الدهر أعطاك القياد بملكا ودارت بما ترجو عليك سعاد
فلا نعم فيه عين قلبك حيرة وخذ وأفد من كل ما تستفيد
يموت الفتي طفلا وكهلا وعبطة ويبقى على الأيام والدهر جوده
فكن يبيع الناس فيه مشاركا فعما قليل سوف تصحو رعوده

(١) المرجع ٢٨١ و ٢٨٢ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٢) المرجع : ٢٨٤ الأدب في عهد الفاطميين بمصر

ولا تتكبر إن قدرك فوقاً ما كنت وإن الكبير ما لا يريد
وزد لعطاء الله ذل تواضع فإنك والأفوام طرا عبيده
وقال في والده المعز^(١) وقد عمل شمسية للبيت الحرام :

إليك مدت رقابها العرب والملك ماء عليك منسكب
وأنت في دوحة النبوة لا تألف إلا عداتك الرب
ألست من يرهب الإله ولا يصد عن حدوده سبب
فكذا تصدع الملوك إذا صالت وتنق الضلالة الشب
ويزدهى الدين بالمعز لدين الله والمرهفات واليلب^(٢)
وكل رحرحة عزائم دلا صها والرماح والقضب
وهذه الدولة التي زخرت فلم يسمها الزمان والحقب
يا حبذا دهرك الزلال إذا أمر دهر وعصرك الشنب
وحبذا الشمسة التي نصبت يقصر عنها المديح والخطب
قايس العيد وهي حالته وأخفت اليوم وهي منتصب
ينهب ياقوتها العيون فما يكمل الأمر حيث ينهب
دوائر أهدقت بهزتها أهلة لا تجفها السحب
كأنما درها وجوهرها نجوم ليل ساؤها ذهب
نظمتها للهدى وليته وإن مخطن الكواكب العرب
في كبد المسجد الحرام بها شوق وللبيت نحوها طرب
فلا تمشى بأهله زمن إلا بما تشتهى وترتقب
عليك صلاة الإله ما طلعت شمس، وما انهل عارض لجب

وقال يمدح الخليفة المعز لدين الله ويهنئه في يوم عيده ويذكر إفاقة
من عمله وهزيمة القرمطي: ^(٣)

(١) المرجع ١٦٨ في أدب مصر الفاطمية .

(٢) الترس أو الدرع الجمانية .

(٣) المرجع : ٢٧٧ و ٢٧٨ الأدب في عند الفاطميين بمصر .

الأكل يوم من زمانك عيد
 زمان كريمان الشبية ناعم
 ولكن يوم العيد خص بموقف
 يلوح عليه من تجليك روتق
 فلا تحسبوا اللفظ الذي سار خطبة
 تليج هذا الملك عنك وأشرق
 لهنك أن الله فوقك مالك
 وأنتك غرس الله فينا وإننا
 وقد شرد الله الأعادي والضي
 بعز يسود الخافقين ودولة
 فرحت وحسن البرء مثلك زاهر
 فأى أبادى الله نبدا بشكرها
 وللناس آمال ضروب وأنفس
 وليس لنا إلا عليك معول
 فلا زالت الدنيا ونورك لبسها
 وقال يرثي والده الخليفة المعز لدين الله الفاطمي :

كيف لاتعدم الجسوم القلوبا
 فقدوا بعدك القلوب اللواقى
 وامعزاه وامعزاه حتى
 فليندق غيرى الحياة فإنى
 من يعزى الجياد أم من يسلى
 وقال يمدح العزيز (١) :

رأيت معداً كالحسين وإنما
 تعرب فهداً مثلاً ذاب رقة
 به يشتقى السمع الأصم بلفظه
 كأن ضياء الشمس رده نوره
 وليس يبالي أن يروح ويغتدى

وهل فوق إشراق الضياء مزيد
 وعصر قديم بالمعز جديد
 له كل أيام الحياة صعود
 ويظهر فيه من سنائك وقود
 ولكنه حتى لهم وعقود
 ترائب من أفعاله وخدود
 ودونك كل المالكين عبيد
 عروسك ينمى فضلها ويزيد
 وأعقب نار الحادثات خمود
 لها فوق أعنان السماء صعود
 وشخص الضنى كالمارقين طريد
 لديك وأى المكرمات نعيد
 تسوق إلى أوطارهم وتقود
 وليس لنا إلا إليك محييد
 ولبسك فيها صحة وخلود

وترى نضرة الوجوه شحوبا
 شقها واجب فشقوا الجيوبها
 يغتدى الدمع بالدماء خضيبا
 لا أرى للحياة بعدك طيبا
 مجلس الملك والسرير الكئيبي

تطول على المولود إن أنجب الجند
 وظرفا فما في وصف مثلى له حد
 وتشفى برؤيا وجهه الأعين الرمد
 وأهدى إليه قلبه الأسد الورد
 من المال صفرا حين يصبوله المجد

(١) المرجع ١٦٤ فى أدب مصر الفاطمية

كأنك لا ترضى لنفسك خلة إذا لم يكن في كل كف لها رقد
ولست تبالي أن تروح بعيشة تضيق إذا كانت علاك هي الرغد
ولولا احتمال النفس كل مشقة إذن لتساوى في العلا الحرو والعبد
حجبت سنى شعري زماناً ولم يزل لدى مصونا لا يبين ولا يبدو
ونزهته دهرأ فلما هزرتي هزرت حساماً ليس ينبو له حد
كهذا السيف لا تستخبر العين عتقه إذا لم تفارقه الخائل والغمد
فسار بمدحى فيك كل مهجر وغنى به في السهل والوعر من يحدو
وصاغته عليك حسناً وزينة وصيغ لها من حلى ألفاظه برد
وليس لكل الناس يستحسن الثنا كما في كل الطلى بحسن العقد
وكم لك عندي من بد وصنعة أقر بها منى لك اللحم والجلد
فلا يعجب الحساد أن وددتني لحق لمثل من مثالك ذا الود
رأيتك يفنى العذر حقدك كاه فترضى ولا يفنى مواهبك القصد
ولا تواعد الجاني إذا زل بل له إذا اعتذر المعروف عندك والوعد
وتجحد ما تولى يدك من الندى وإن كان عند المجتدى للندى جحد
ولو كفر العافون نمالك لم يكن لطبعك منك الآن عن كرم رد
وتهتز للمدح اهتزاز مهند تناوله يوم الوغى بطل نجمد
عليك صلاة الله ما لاح بارق وماحن مشتاق تداوله الفقد

ويقول لأخيه العزيز ولعل هذه الآيات مكحلة لما سبق : (١)

ومالى لا أحوى بك العز والمنى وأنت على كل الأمور قدير
وكيف أخاف الحاسدين وبغتهم وأنت عليهم لى يد وأمير
كلانا لأصل واحد ولوالد إذا ما دعانا الانتساب نصير
فلا تنس منى ناعماً وابن والد ووالدة ما فيه عنك نفور
يود بأن تبقى عزيزاً مسلماً ويفدك من صرف الردى ويحير
ويقول للعزيز (٢):

فيا ابن الذى استنبط الوحي عنهم وأضحى بهم وجه الزمان ينير

(١) المرجع ٢٢٨ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٢) المرجع ٢٨٠ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

ويا ابن الملوك الشهم من آل هاشم
لك الأول العالی الرکی الذی انتهى
إذا عد قوم للفخار عشيرة
ومن طاب منهم ظاهر وضمير
به المجد يوما والأوائل زور
غدا لك من آل النبی عشير

وقال للعزیز (١)

جئت الخلافة لما أن دعيتك كما
كالأرض جار عليها الغيث منهجلا
ما أنت دون ملوك العالمين سوى
نور لطيف تنهى منك جوهره
مدني من العاة الأولى التي سبقت
فأنت بالله دون الخلق متصل
وأنت آيتي من نسل مرسله
لوشئت لم ترض بالدنيا وما كنها
ولو تفاعلت الأبواب فيك درت
وإني لميقاته موسى على قدر
فزانها بضروب الروض والزهر
روح من القدس في جسم من البشر
تناهيا جاز حد الشمس والقمر
خلق الهيولى وبسط الأرض والمدبر
وأنت لله فيهم خير مؤتمر
وأنت خيرته الغراء من مضر
مشوى وكنت ملك الأنجم الزهر
بأنها عنك في عجز وفي حصر

وقال تميم يخاطب أخاه الإمام العزیز: (٢)

ولما اختلفنا في النجوم وعلها
فن مؤمن منا بها ومكذب
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
فعلبتنا تأويل ذلك كله
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
وأن جميع الكافرين مصيرهم
لجمعتنا بعد اختلاف ومرية
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
فعدنا إلى أن الكواكب زينة
مستخرة مضطرة في بروجها
وفي أنها بالنفع والضر قد تجرى
ومن مكثر فيها الجدال ولا يدري
وتعلم ما يأتي من الخير والشر
بما فيه من سر وما فيه من جهر
وكان بها دون البرية ذا خبر
بما قال، والكهان من شيعه الكفر
إلى النار في يوم القيامة والحشر
وألفتنا بعد التنافر والزجر
يجلي ظلام الشك عن كل ذى فكر
وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
تسير بتدبير الإله على قدر

(١) المرجع : ١٤٦ في أدب مصر الفاطمية .

(٢) المرجع : ٧٤ و ٧٥ في أدب مصر الفاطمية .

وأن جميع النيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علت منه الأئمة إنما روه عن المختار جدهم الطهر
وقال تميم يمدح العزيز وهي أول قصيدة له فيه عام ٣٦٥ هـ :

وجارية مرهفة القد	ظالمة مظلومة الخد
كالقمر الطالع لكتنها	في حسنها كالرثا الفرد
في ليلها البدر وفي دعصها	غصن به رمانا نهد
تبسم عن برق وعن لؤلؤ	منظم أحلى من الشهد
بننا معاتحت ظلال الدجى	من مفرش الورد على مهد
أجنى ثمار الخمر من مضحك	شفاهه من ورق الورد
كأننى ليث وغى خادر	مع شادن أحور فى برد
تسكتنى ما عندها من جوى	منى كما أكتم ما عندى
تخفى وتبدي لى وجدا كما	أخفى من الحب وما أبدى
أصد عنها ظالما كلبا	زادت من الوصل على الصد
لا ند فى الحسن لها مثلبا	أنى فى الحب بلا ند
لا زالت الجيزة معمورة	بسكل مخطوف الحشا نهد
إنى ألد العيش فيها بما	أولى عزيز الدين من رفد
المجد بسام إلى ما جسد	أروع بسام إلى المجد
كأنما راحته مزنة	تبسدى بلا برق ولا رعد
كأنما فى الجزم آراؤه	مشتقة من قضب الهند
الملك ذو عقد ولكنه	فى عصره واسطة العقد
ما السيف أمضى منه فى عزه	فى غمده قسد سل من غمه
يا أيها البدر الذى جده	محمد أكرم من جد
ويا عزيزا هو عز الهدى	والدين والدنيا بلا جحد
ومن ألان الدهر حتى لقد	ألان صلب الحجر الصلد
أين معز الدين أكرم به	من والد بل منك من ولد
قل لنزار تميم الله ما	نرجوه من حل ومن عقد
أصبحت لى مولى أرى حبه	وسيلة للصمد الفرد
من يرج رده خلفه عدة	فأنت من بين الورى ردى

يا ليت خدى لك أرض فما آنف أن تمثى على خدى
نفديه بالأنفس من ماجد بر جواد واسع الرغد
واسلم لعز الملك والدين ما ناح حمام الأيك للفقد
قصرت فى مدحك لكنتى أوصل المدح كما أبدى
فإن تسأخنى فى نعمة يقصر عن حمدى لها جهدى^(١)

وأرسل الخليفة العزيز إليه يطلب منه توجيهه المراكب التى تسير يوم فتح الخليج ، فأفندها وكتب معها :

بعثت بساكنات طائرات تفوت اللحظ وهى بلا جناح
ولو أنى استطعت بعثت روحى يقيمك حماية القدر المتاح
لأنك إن نبا سيقى حسامى وأنت إذا دجا ليلى صباحى
ومد العزيز يده إليه ببنفسج وورد فقال نعيم :

مد العزيز يمينه ببنفسج وبوردة مقطوعة لم تنهج
حيا فأحيا مهجتي بتحية كالوصل وافق منية من مرتجى
وأشار مبتدئا إلى بوجهه لحسبته وجه الصباح الأبلج
أنا من نداء ومن فواصل كفه فى روضة أنف وعز منتج
وكتب إلى العزيز فى علة عرضت له :

بجورك الله من سقم ومن وصب وحسبك الله من داء ومن نصب
سيعلم الدهر إن لم يثن عنك يدا بأنه فاقه عينيه عن كشب
لأنه بك أضجى فى تصرفه يعطى ويأخذ فى الأحداث والنوب
يادهر أسرفت عدوانا منيت به يادهر حسبك فارجع عن ذوى الحساب

وله يحنى العزيز بعيد :

فواضب الراى أمضى من شبا القضب والحزم فى الجد ليس الحزم فى اللعب
والعز ليس براض عن علا ملك ما لم تعنه سيوف الهذب بالقضب
وليس يستطعم الراحة طيبة من لا يخوض إليها شدة التعب
وتركك الشئ مما تستريب به عجز وداعية تفضى إلى العطب
إذا استربت بشئ فاح ظلمته فذاك أننى ليل الشك والريب

أعلى المراتب ما تنبه مجتهداً
بت ساهرا عند رأس الأمر ترقبه
وأفضل الحلم حلم عند مقدرة
يمنا العزيز من العلياء منزلة
خلافة علوى أصل مورثها
لقد حويت أبا المنصور مرتبة
أنت المسمى المرجى قبل مولده
هناك عيد أعدت السعد فيه لنا
برزت فيه بروز الشمس كاسفة
تأملوا منك بالأبصار إذ نظروا
وقال يميني العزيز بالنيروز (١) :

لهمتك نوروز تباشرت العسلا

وعادت بك الأيام فيه أو أنسا
وزادت مدود النيل حتى كأنها
كأن بنان الماء فاضت على الثرى
فقد غصت الخلجان حتى كأنها
فدام لأهل المصر عمرك إنهم
سعود وإقبال وخصب ونعمة
عليك صلاة الله ياخير خلقه
وله يمدح العزيز حين ظفر بأبي تغلب بن حمدان (بعد أبيات) :

يا من تنفى بعذابي به
لو فتشوا جسمي ما أبصروا
لما تشكيت إليّ الهوى
وزارني تحت رواق الدجى
فبات يعطيني من وسله
إني لأستعذب منك العذاب
غير الآسى يسرح بين الثياب
بالسن الدمع رثى واستجاب
والليل في صبح جناح الغراب
أضعاف ما أعطى من الاجتناب

(١) ٢٧٨ و ٢٧٩ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

قل لأبي منصور يا خير من أقام أو حث لمجد ركاب
ويا إماما قابلت ملكه لوائح الإقبال من كل باب
وهبك القدرة والنصر من حباك بالحكم وفصل الخطاب
لأن ابن حمدان عدا رشده ورام أن يظفر جهلا غاب
يا ابن معز الدين أبشر فقد مدت لك الأمل طوع الرقاب
لأنك الغرة من هاشم والصفو من ساداتها واللباب
وابن الصفو والحجر وابن الهدى وابن الهدى وابن الكتاب
كم من يد أو ليتنى حجة أبت بنعماها لخير المآب (١)

وقال (٢) (من الطويل) يمدح العزيز وقت نزوله بفلسطين قبل الظفر بالأتراك :

إذا حان من شمس النهار غروب تذكر مشتاق وحن حبيب
وعندهم علم وإن شطت النوى بأن لهم قلبي على رقيب
ولهم كبدى دونى قلبي ومهجتى ونفسي التي أدعى بها وأجيب
فأية حزنى لوعسة وصباية وعنوان شوقى زفرة ونجيب
وما بلد الإنسان إلا الذى له به مسكن يشتاقه وحبيب
إلى الله أشكرو شكك بين وفرقة لها بين أحشاء المحب ديب
وأن ظنون الناس إفاك وباطل وظن أمير المؤمنين مهيب
يسير به قلب على الخلق قلب وصدر بما تعيا الصدور رحيب
وحل ديار المارقين فأصبحوا وكلهم خوفا إليه منيب
بدا لهم منه إمام مؤيد وكلهم مما أتاه هيسوب
فلم يجدوا غير الإنابة حيلة ولو قدروا ما أذعنوا ليتوبوا
وما كان فيها جيشه غير نفسه وعزم أكل للخطوب شروب
وما حاربك الترك إلا وبينها وبين الهدى والمكر مات حروب
وما جحدوا الحق الذى لك فضله ولكن بهم عنده غنى وهروب

(١) المرجع ١٤٧ أدب مصر الفاطمية .

(٢) مرجع الأبيات : ١٣٧ : ١ : اليتيمة ، وفي ٢٩٣ : ١ من المرجع نفسه :
روى البيت الرابع والخامس ثم أعقبهما بالبيت الثانى ، وهو فى ٢٧٣ الأدب فى عهد
الفاطميين بمصر ، و ٢٣١ المعز لدين الله .

رعاك الذى استرعاك أمر عباده فالك فى هذا الانام ضريب
وله يمدح العزيز يوم نوروز :

أرائى إذا هذبت فيك قصيدة من المدح واتماني الكلام المذهب
وإن رمت تقرظا لبرك عاقى لسانى وراح القول فيه يكذب
لأنك مجبول على الفضل والملا وأن العطايا فيك طبع مركب
بك انصلحت أيامنا بعد جورها وذل الزمان الجاح المتغلب
فان طاب نوروز وعيد فإنما من اجلك أضحي ذاوذا وهو طيب
وقال (١) من قصيدة من الطويل أولها :

سرى البرق فارتاع الفؤاد المذهب وحار الكرى فى العين وهو مذنب
ويقول فيها :

وبات ضجيعى منه أهيف ناعم وأدعج نشوان ، وألمس أشنب
كان الدجى فى لون صدغيه طالع وشمس الضحى فى صحن خديه تغرب
وإنى لآلتى كل خطب بمجة يهون عليها منه ما يتصعب
وأستصحب الأهوال فى كل موطن ويمزج لى السم الزعاف فأشرب
وأغضى على مثل الأسنة صابرا ولوشئت لم أصبر ولل سيف مضرب
ولست بإقبال وإن سر فارحا ولا من عجيب يعجب الناس أعجب
فإنى بلوت الدهر ثم علمته وجربت ما لم يلق قبلى مجرب
إلى أن يقول :

أسأل حظاً من لئيم ومقرف وأخضع للنكس البخيل وأطلب ؟
وأترك بيض الهند وهى شوافع إذا جردت فى حاجة لا تخيب
إذا لم أرد وزد المنايا مخاطرأ بنفسى فلا جنبت ما أنجيب
فما الحر إلا من تدرع عزمة ولم يك إلا بالقنا يتنكب
ومال أخاف الحادثات كائن جمبول بأن الموت ما منه مهرب

(١) راجع القصيدة فى ٤٣٧ : ١ اليقظة ، وهى فى ٤٠ : ٢ الفصل مع نقص ،
وفى ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٤٩ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر تأليف الأستاذ عبد الحميد
عبد خلیل - والكتاب رسالة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية - مع نقص وزيادة .
(م - ١١ الأدب فى مصر)

خليلي مافي أكؤس الراح راحتي
ولكنني للمجد أرتاح والعللا
واللحم يوم البطش مني حية
ومن بين جنبيه كنفسى وهمتى
ولى من نزار حمة شدد نسجها
وقربى تراضعنا جميعاً لبانها
فلا يتهنى (٢) الحاسدون بغيرهم
إمام له من كل نفس مراقب
محبه حتم على كل مسلم
ألذ من الشهد المصطفى مذاقه
وأسمى من المقدار عزما وبطشة
هنيئاً لك الأعياد يا عيدها الذى
ليهنك أن الفضل أجمع كله
وأنت أنت المصطفى الملك الذى
ولولاك كان الملك فى غير أهله
عليك صلاة الله ما طلع الضحى
وقال (من المنسرح) (٤) :

وليلة يتهى على طرب
أقبل البرق من ترائبها
سقتنى الراح وهى خذاها
إذا أرادت مزاجها جعلت
فيها قوة معتقة
حبابها الثغر حين يمزج لى
أولها مشبه لأخراها
وألم الشمس من نحيابها
بأكؤس اللحظ وهى عينها
بآخر اللحظ فى فى فاهها
وليس إلا الحدود مأواها
وتقلها اللثم حين أسقاها

(١) ويروى: مركب .

(٢) ٢٢٨ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

(٣) ١٤٨ فى أدب مصر الفاطمية .

(٤) ٤٣٨ و ٤٣٩ : ١ اليتيمة .

تخالها الشمس في ثلاثها
 لله أيا مننا التي سلفت
 فالقصر من جيرة الملوك إلى
 إذ نجتني اللهب من أصائلها
 إن عرضت لذة ملكناها
 سل الصبا والأنا من سمي
 ألت أعطى العلا حقائقها
 ولست أرضى من الأمور بما
 لا أدعى الفضل قبل يشهد لي
 وإن رمتنا الخطوب عن عرض
 المظني الحرب كلما اضطربت
 كأنما الدهر من مخافته
 لكل ملك من الوري شبه
 أقول يا مالك الملوك ولا
 نفس كأن السماء مسكنها
 فهو لسان التقى ومقلته
 صور من جوهر النبوة إذ
 فن يطعه يفز بطاعته
 ومن هذه القصيدة :

إن يجوبوا وصلها فاحجبوا
 بعيدة الدار وهي دائية
 في ناظر القلب شخص مرآها
 أعارت الراح لون وجنتها
 وقال ليكتب على خمار :
 أنا من رقة الهوى والهواء
 وقال للعزير :

رضيت بكم هاتفة القضاء
 إلى كم تهدم الأحداث ركني
 وإن أضحت تكدر صفو مائي
 وترمى بحور واعتداء ؟

لا بل تخال الشمس : إياها
 بدار جزوى ما كان أحلاها
 أعلى ربها إلى مصلاها
 والعز من فجرها ومغداها
 أو صنعت خطه جوينها
 والمجد عن راحتي وجدواها
 منى وأجرى اللذات مجراها
 لا أجد المكرمات ترضاها
 به أداني الدنيا وأقصاها
 فاض نزار بها لجلاها
 وفارس الخيل حين يلقاها
 يقتل بالخسر أو حياها
 وما أرى للعزير أشبهاها
 أقول في مدحه شهنشاهها
 وممة كالزمان أدناها
 وهو يمين العلا ويسراها
 كان الوري طينة وأموها
 ومن عصاه فقد عصى الله

يعاقبنى الزمان بغير ذنب
ويسمى بي لمن لو جاء ساع
حياتي بين واش أو حسود
وما أنا يا أبا المنصور إلا
أحين ملكتنى والناس طرا
بجيتك مبغض لى ساعياي
فيثلبنى ويرجع سالما لم
وقد بلغتنى أملى فتمم
وعيشى زائد طيباً إذا لم
وتخذائى يدى وذوو اصطفايى
به عندى لخصب بالدماء
وساع بي يسر بطول دائى
كأتدرى على محض الوفاء
ورحت خليفة فى ذا القضاء
يروم لديك تقصى فى خفاء
تهجك عليه أسباب الإخاء
تم لك السلامة فى البقاء
يكدره لديك بنو الزناء

وقال يمدح العزيز وقد تناول دواء:

لست أدري من المعلى المنها
أهنيك يا شقيق المعالى
بشرك السعود والنصر والعز
إنما أنت حجة الله لاحت
لك هدد الزمان عهد جميل
وقال^(١) فى العيد يهني أخاه العزيز:

للعيد فى كل عام
وأنت فى كل يوم
ونعمة وسعود
يا من تصلى المعالى
ومن يبر اليتامى
لو كان للفضل يوماً
لأن منك استعا
فأنت شمس ضجاء
كفأك فى كل سلم
يوم يعيد سنه
عيد يلوح علاه
للمعتفين وجاء
إليه حين تراه
من كل خلق سواه
منى لكنت مناه
ر الزمان حسن حلاه
وأنت بدر دجاء
سحاب صوب نداه

(١) ١٦٣ فى أدب مصر الفاطمية .

وحسن رأيك في الحر ب سيفه وقناه
فاسلم لسعدك يا من يديم نحس عداه
وقال يمدح الخليفة العزيز :

ومهمه مشتبه الأرجاء جهنم الفيافي موحش الهماء
عارى الربا إلا من النكباء صلد عزاز شاسع الفضاء
أجرد مثل الصخرة الصماء مشتبه الإصباح بالإصماء
يستر فيه رونق الضحاء ما ترفع الريح من الهباء
تعزف فيه الجن بالعشاء عزف قيان الشرب بالغناء

ثم يصف ناقته التي عبر عليها هذه البيداء ويقول :

قطعت مشيع الحوباء بعزمة صارمة صماء
قطع نجوم الليل للظلماء حتى إذا قلت دنا التناث
أصبح قدامى ما ورأى والشمس قد حلت ذرا الجوزاء
والصبح قد ذاب على الهواء كالثلج أو كالفضة البيضاء

ومنها :

ماذا على مقاتك التجلاء والشفة الوردية اللعساء
وقلبك المقلوب للجفاء لو قلب الداء إلى الدواء
وروضة باكرة الأنداء موقنة البيضاء والكحلأ
ظاهرة الجراء والصفراء كأنها الموشى من صنعاء
باكرتها في فنية وضاء بأ كؤس مترعة ملاء

ويصف الساقى ثم يقول :

نشرها كريمة الآباء صفراء لا تقهرها بماء
كانها في البطش والصفاء عزم العزيز الملك والآباء
القائل الفاعل للعلياء ووارث الحكمة والأنباء
يا ابن الهدى والعترة الغراء فل بك الملك شبا الأعداء
وطال في عزته القعساء حتى لقد جاز مدى السماء
إمامة مهدية اللواء ودولة دائمة البقاء

محفوفة بالعز والبهاء . همت بالعدل بنى حواء
وسستهم بمحكم الآراء . سياسة الوالد للأبناء ،
كأنك المقدار في الإمضاء . وكل من عاداك في ضراء
وكل من والاك في سراء . أنت عمادى وبك اعتلاى
وجنتى في السلم واللقاء . وأنت في كل دجى ضيائى
لا والدم الجارى بكر بلاه . ومن بها من دائم الثواء
بنى على وبى الزهراء . ذوى التنادى وذوى العلاه
ماحلت عن مستحسن الصفاء . فيك ولا عن خالص الوفاء
في ظاهر منى ولا خفاء . فكيف أنسى من الآلاء
عاد عليك العيد باستعلاء . والعز فى ملك والنماء
ونيل ما ترجو بلا إرجاء . ما أرق الصب بكاء ورقاء

وقال يمدح العزيز عند ظفره بالتركي وأصحابه :

أعدلا وما عدلتنى التهى . ولا طرد الحلم عنى الصبا
وكيف تلومين صعب المرام . وتلحين مثلى كهل الحجا
بلوت الزمان وأحداثه . على السلم منهن لى والوغى
إذا قلت لم أعد فصل الخطاب . وإن صلت أيقظت عين الردى
أرتقى التجارب ما قد بدا . فقتت به كل ما قد خفا (١)
ولم يبلغ العمر فى من سنيه . ثلاثين حتى بلغت المدى
إذا الجد لم يسم بالمره لم . ينل بالنباهه أقصى المنى
تهمون على صعاب الأمور . ويصغر عنى جميع الورى
أنا ابن المعز سليل العلا . وصنو العزيز إمام الهدى
سمابى معد لى غاية . من المجد ما فوقها مرتقى
فرحت بها فاطمى النجار . حسينيه علوى الجنى
وما احتجت قط إلى ناصر . ولا رحت يوما ضعيف القوى

ومن هذه القصيدة فى رواية أخرى : (٢)

تهمون على صفار الأمور . ويصغر عنى جميع الورى

(١) خفا : ظهر . والمناسب هنا : خنى : استتر .

(٢) ١٧١ فى أدب مصر الفاطمية .

أنا ابن المعز سليل العلي وصنو العزيز إمام الهدى
وما احتجت قط إلى ناصر ولا رحت يوما ضعيف القوى
ولم أستشر في ملم ينوب مشيراً أرى منه مالا أرى
ولست بوان إذا ما أمر زمان ، ولا فرح إن حلا

وقال يمدح العزيز (١) بهزيمة مفتكين التركي في دمشق وطلبه العفومن العزيز :

ولنا لقوم نروع الزمان وللسنا نراع إذا ما سطا
ومنا الإمام العزيز الذي به عاد سيف الهدى متضى
سعى للشام وقد أصبحت بها الحرب نزاعة للشوى
فكشفت من ليلها ما سجا وقوم من زينها ما الترى
ولما تقابلت الجحفلان وعاد كجنح الظلام الضحى
ولم يبق في الصف من قائل هلم ، ولا من مجيب : أنا
وقد دلفت في الصدور الرماح وصلت لببيض السيوف الطلى
وغنت على البيض بيض المذكور غناء يعيد الفرادى ثنا
كأن الرماح سكارى تجول بها الخيل في النقع قب العلا
فلولا الإمام العزيز الذي تداركها وهي لا تصطلى
فسكن عارض شوبوها وأمسك من سجله ما انهمى
بدا لهم دارعا في الفجاج كصيح بدا طالعا في الدجى
يكر ويسم في موقف عبوس السكاة به قد بدا
ولم يخذل السيف منه يدا ولم يسكن الروع منه حشا
يقود إلى الحرب من جنده أسود رجال كأسد الشرى
فلو فت الحرب قوما إذن لفدتك صارخة بالعدا
فلم تصدر الرمح حتى اثنى ولم تغمد السيف حتى انفرى
ولم يحمل الموت حتى حملت ولولاك ما خاب ذاك اللظى
فما انفرجت عنك إلا وأنت بها الفارس الملك المتقى
لجاءك منهم ملوك الرجال وفدتك منهم ذوات اللى
ولاذوا بعفوك مستأمنين ولم يجدوا غيره ملتجا

(١) ٢٢٧ في أدب مصر الفاطمية .

ولما رأى فتحها مفتكين
تولى لينجو خفت به
ولو طلب العفو قبل الهروب
ولكنه اعتاد فيها الإباق
ورام الخلاص وكيف الخلاص
ولم يك كفؤك في حربه
وقد هزم الأسد حتى انتهك (١)
فراح وحشو حشاه أسي
أريتهم وقعات تزيد
ببغداد من ذكرها جولة
فأنفس دبلها تغتدى
إذا سمعوا بالإمام العزيز
يخافون من بأسه وقعة
ينادى « بويه » بنيه بها

ومنها في مدح العزيز :

فمن حد سيفك تسطو المنون
ولو فآخرتك جميع الملوك
منحتك من فطنتي مدحة
فدونكها فيك شيعية
سأصفيك شكراً ومدحاً إذا

ومن مدائحه للعزيز :

يا صفة الله من بريته
ويقول
أنت المسمى المرجى قبل مولده
وسر هليائه الذي ظاهره
والخامس القائم المذكور في الكتب

(١) أي حتى انتهى إليك .

ويقول :

إنك من معشرهم جمعوا شغل المال ودوخوا البشر
لم يألف الدين غيرهم نقرأ له ولم يرض غيرهم زمرا
وفي هذه الأبيات تظهر عقيدة الشيعة واضحة.

وقال في العزيز (١) :

يا حجة الرحمن عند عباده وشهابه في كل أمر مشكل
من لم يكن في صومه متقرباً بك يا إمام فصوره لم يقبل
وقال يمدح العزيز (١) :

فيا بن الوصي ويا بن البتول ويا بن نبي المهدي المصطفى
ويا بن المشاعر والمروتين ويا بن الحطيم ويا بن الصفا
وأرسل إلى الرسي الشاعر (٢) :

أبا عبد الإله ووجه ودي مزال عن أسرته القناع
سلام وأنت فيما صح عندي صديق ما لخلته انصداع؟
تأخرت الرسائل منك عنى وأبطلت عن تعامدي الرقاع
أسو يا ابن إبراهيم عنى فأسوأ أم أعاب أم أراع؟
ومثلك لا يبيع أخاً يبخس على حال ومثلي لا يباع
ولسنا نلتق لقيماً اجتماع فيفتننا عن الكتب اجتماع
ولكن تعرب الأفلام عنا إذا اقترنت بشخصينا البقاع
وأكثر حظنا في البعد أنا أمنا أن يروعا الوداع
وقد أجابه الرسي بقصيدة (٣) ، وقال للحسين بن إبراهيم الرسي (٤)

وليس الإخاء الذي بيننا يبدع إذا ما استوى وانعقد

(١) ص ١٤٧ في أدب مصر الفاطمية .

(٢) المرجع : ٢٥١ في أدب مصر الفاطمية .

(٣) راجع بعضها في ص ٢٥٢ في أدب مصر الفاطمية .

(٤) ٢٥١ في أدب مصر الفاطمية .

لأننا إلى والد واحد تفرعنا حين ندعى وجد
وقال يرثي أخاه عبد الله (١) :

كل حى إلى الغناء يسير والليالى تسعة وغرور
وإلى الله يرجع الملك والخلق ويقضى الأمير والماءور
كيف لم تسقط السماء على الأرض ولم تهو شمسها والبدور
يوم مات الأمير، بل يوم مات الصبح وفيه ، بل يوم مات السرور
يوم بل الثرى عليه من الدمع وقدت على القلوب الصدور
كيف لا تأثر المصائب في النفوس على من هو النفيس الأثير
وكذا الرزء بالعظيم عظيم وكذا الرزء بالحقير حقير
وسمعت الزفير وهو صراخ ورأيت الدموع وهى بحور
فى أوان هو الشتاء فأسمى بلهيب الأنفاس وهو هجير
شيعت نعشه ملائكة الله سه وروته رحمة وطهور
ويقول (٢) :

زمن منقض وعمر قصير وحياة الإنسان فيها غرور
فاتق الله إن أردت نجاة إن تقوى الإله فوز كبير
أى خلق يكون أنقص من ليس يدرى لأى حال يصير

ويقول يودع رجلاً مسافراً إلى بغداد (٣) :

أيها المزجى مطيته إذ حده الشوق والذكر
نحو بغداد يورقه دلج الرجال والبكر
عج على ماء الفرات وقف كوقوف الصب يعتذر
من مشوق نحوه قلق ماله عن ذكره صدر
فهناك الدهر مقبل والصبيا ريان ينمصر
ياربنا القاطول لا بعدت عنك بي الأيام والقدر

(١) ٢٨٣ و ٢٨٢ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

(٢) ٢٨٤ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

(٣) ٢٨١ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

كل ما في الناس من أمل لك أطويه وأدخر
وقريب أن يزورك في ظفر ما مثله ظفر
ثم يصفو في ذراك لنا طيب عيش ما به كدر

وكتب من الرملة الى بعض الأهل بالقاهرة عند سيره إلى الطواحين (موضع
قرب الرملة من أرض فلسطين بالشام) :

الجسم ينقص مذكركم سقا والشوق يكثر في قلبي ويزداد
لا تحسبوا أنني للهو بعدكم أحن أوللذيذ العيش أقتاد
قد عزني فيكم صبري وفارقي تجلدى فالأسى إلى بعدكم زاد
كانني واله قد شردت فئات كرها وأمسى لها في الحى أولاد

وأنفذ إليه ابن الرسى رجلا أوله : برق بدا تحت الغسق ؛ فكتب
تميم يجيبه :

وسمحة قبل الطلب لكل من دب وهب
باصكية بلا وصب كأنما الجو انقب
منها بمسك واختضب حتى إذا الرعد خطب
وناح شجوا وانتحب وجاء فيها وذهب
ومزق البرق الحجب كأنه لما اضطرب
سلاسل من ذهب أو مارج من الذهب
حتى إذا القطر انسكب واحتفل السيل وعب
فقم إلى الراح فشب بالماء منها ما صلب
وسقنى بنت العنب أقض من اللهو أرب
إنا لأم ولأب يجمعنا خير نسب
إلى النبي المنتخب فارضع بنا ندى الأدب
فإنه أعلى الرتب وخير موهوب وهب

وكتب إلى الحسين بن إبراهيم الرسى يستعير منه كتاب القيان والمغنين :

عند أهل العلوم والآداب تبغى كتب جواهر الآداب

فتفضل يا من حوى قصبات السجق في كل جيئة وذهاب
بكتاب القيان إني إليه ذو غليل ولوعة واكتئاب
مستعيرا له لأنسخ ما فيه فيغدو مستودعا في كتابي
ثم يأتيك بعد ذاك سريعا ولك الشكر وهو خير ثواب
واستهدى منه أخوه عقيل نيلوفرأ فبعث به إليه وكتب معه :

بعثت بصفرة لون المحب وجمرة توريد خد الحبيب
ويحكى وذاك في حسنه ومحض وفائك طيبا بطيب
وكتب إلى بعض أصحابه :

شهد الظرف والأدب لك بالمجد والحسب
يا شقيق الندى الذي عنده المال يذهب
والذي سلت له فضلها العجم والعرب
إنما الجود خير ما أتى يسبق الطلب

وقال من الطويل (١) :

إذا هب سلطان المريس (٢) ناخا سميأ وحل القر كل نقاب
ومد على الأفق الغمام ثيابه فقم فالقه في عدة وحراب
بكن وكاهون وكأس مدامة وكيس وك؟ وافروكباب (٣)
جمعت لك الكافات ستا ولم تكن بمجموعة قبلي لرب كتاب

وقال : (٤)

ولى صاحب لا يمرض العقل جهله ولا تأذى النفس منه ولا القلب

(١) المرجع : ١٤١ : ١ : اليتيمة - ولا بن سكرة :

جاء الشتاء وعندى من حوائجه سبيع إذا القطر عن حاجا تناحيسا
كن وكيس وكانون وكأس طلا بعد الكباب وك؟ ناعم وكسا

(١٤٥) ١ : الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح محمد خفاجي (

(٢) ربح جنوبية مصرية غير محبوبة بل هي من الزوايع والأهاسير .

(٣) الكن : البيت : المدامة : الخبز . الكيس صرة الدراهم .

(٤) المرجع : ٢٦٨ الأدب في عهد الفاطميين بمصر ، ٢٤٨ في أدب مصر الفاطمية

إذا قلت دلا، في قصة لم يقل دلي، وإن قلت هالك الكأس قال مبادرا سريعا إذا لبي، صبور إذا دعي غدوت به يوما إلى بيت حائق وقد نفخنا ريح الصبا بمنافس فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسف مدثرة أما أوهها فقيصر قصيرية ديرية هرقلية^(٢) فلنا قرعنا بابها ابتدرت لنا وقالت لنا أهلا وسهلا ومرحبا من انتم فقلنا عصبية من بنى الصبا فقالت: على اسم الله خطوا رحالكم وراح نفي أقذارها طول عمرها أرق إذا رقرقتها في زجاجة كأن سراجا في ترائب دنها فقلت لها هاتي بها^(٤) وتعجلى لجاءت تجر الزق خلني^(٥) كأنه فلما مزجناها بدا فوق رأسها وطافت بها هيفاء مخطفة^(٦) الحشا تمايل ردفاها وأدرج خصرها

وإن قلت أصبو قال لا بد أن أصبو ألا هاتها طال التنادم والشرب يهون عليه في رضا خله الصعب وللقيم دمع لا يكف له سكب هيرية الأنفاس طاب لها الترب إلى زولة شمطاء منزلها رجب^(١) وحسبك ملك جده قهصر، حسب نقاصر منها الخطو، واحدودب الصلب وفي يدها نجم يحيط به قعب وقل لكم منى البشاشة والرحب دعاهم إليك القصف والعزف واللعب فمندی الفتاة الرود^(٣) والأمرد الرطب لجاءت كما يذرى مداومه الصب وألطف من نفس تداولها الحب إذا أقبلت من كيلة الدن تنصب ولايك فيما قلت خلف ولا كذب على الأرض زنجي بلا هامة محبوب حباب كما ينساب من سلكه الحب معاطفها سلم وألحظها حرب ليانا ولطفنا مثل ما تدرج الكتب

(١) الزولة : المرأة الخفيفة الظريفة .

(٢) منسوبة إلى هرقل مدينة بالروم .

(٣) الشابة الحسننة .

(٤) ويروى كيل لنا ، ١٤٩ في أدب مصر الفاطمية .

(٥) في المصدر نفسه : نحموى

(٦) رواية المصدر نفسه : هم ضرمة

شكا كشحها الزنار بما يجيمه
أغار على أعطافها كلما اتت
أحلت لي الصبياء تقبيل وجهها
كأنني وقد أضجعتها وعلوتها
وما فض لامي صاها بجنابة
فلما أغاظتني بإظهار كفرها
وضرعت فخذها دما بمصمم
وقلت لها أرمأنا علوية
فأبرحت حتى أنابت وأسلت
أما حسنات المدامة واسقني
كأن الثريا في ملأه فجرها
سلام على دير القصير^(٢) ومرحبا
فكم لذة فيه قضيت وغلة
منازل يستن^(٤) الصبا في عراعها
وشكره أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الرسي على هدية منه :
وصلت هديتك التي أرسلتها
حكمت لنا طيبا خلائفك التي
فاسلم وعش فيما تحب فإنه
فأجابه تميم :

إني بعثت بها إليك وإنها
كالنهر يستهده مني ربه
منك استعار الحسن كل محسن
وظرفت حتى فقت كل مظرف
لذوات أطراق وذات حياء
أنت الأحق بها وبالإهداء
فذلك انتساب محاسن الأشياء
ولطفت حتى فقت لطف الماء
لكن خيرا منه حسن صفاء

(١) القلب : السوار .

(٢) موضع قرب حلوان على النيل على رأس جبل .

(٣) الشعب ويحرك : تهيج الشر .

(٤) يستن أى ينشط ويمرح .

وكذب إلى إبراهيم الرسمى الشاعر^(١):

يا شاعرا جل عن أن	يتقاس بالشعر
ويا طريفا بليغا	أربى على البلغاء
قد جاء شعرك يشفى	قاريه من كل داء
كالتقرب بعد بعد	والوصل بعد جفاء
وأنت للنفس أشهى	من الغنى والبقاء

وقال من الطويل^(٢):

شربنا على نوح المطوقة الورق	فأردية الروض المفوفة البلق
معتقة أفنى الزمان وجودها	فجاءت كفوت اللحظ أودقة العشق
كان السحاب الغراصبجن أكوما	لنا ، وكان الراح فيها سنا البرق
فبتنا نحت الكأس فينا ، وإننا	لنشربها بالحث صرفا ونستسقى
إلى أن رأيت النجم وهو مغرب	وأقبلن ^(٣) رايات الصباح من الشرق
كان سواد الليل والفجر طالع	بقية لطح الكحل في الأعين الزرق

قال الثعالبي : أحسن في هذا البيت ما شاء .

وقال تميم في الطرد :

قد أغتدى والليل في دجاء	والصبح لم ينض به سناه
على حصان شتج ^(٣) نساء ^(٤)	ذى غرة أولها أذناه
جاز بها مسيلها مسداه	حتى لقد كادت تغطي فاه
تسبق أقصى لحظة خطاه	لا يطأ التراب ولا يلقاه
كأنه يطير في مجسراه	إذا دعا ليث الفلا لباه
أمرع للشيء إذا ابتغاه	من مبلغ السهم لمتناه
تحسد منه يده رجلاه	حتى يكاد وهو في معداه
تسبق أولاه به أولاه	أشوش في مشيته تياه

(١) ٢٥١ في أدب مصر الفاطمية .

(٢) المرجع ٢٩٣/١ ، اليتيمة ، ٣/١٨٤ زهر الآداب .

(٣) رواية زهر الآداب : وأقبل . (٤) منقبض . (٤) عرق .

ثم يصف البازي فيقول :

وأشهب مخالبه شبيه كأن فصي ذهب عيناه
في هامة قد برزت وراه لو طلب الكوكب لانتهاه

ثم يصف الطيور التي صادها البازي إلى أن يقول :

وكل خسير عندنا نراه فبعض ما عاد به مسعاه
أعطى البراة الله من معناه ما لم يحز صقر ولا رآه
أبا ابن من زينت به علاه وابن الذي عم الوري نداء
وشيد الملك الذي حواه ذاك المعز الماجد الأواه
صلى عليه الله واصطفاه

وقال في سمك الرأى من الوافر (١) :

كأن الرأى حين أتى طربا بأذئاب كحمر العقيق
بلسقيات بلور لطاف بأسفاهها بقايا من رحيق

وقال من الخفيف (٢) :

اسقياني فليست أضفى لعدل ليس إلا تعة النفس شغلى
أطبيع العذول في ضد ما أهـ -وى كائن اتهمت رأى وعقلى
عللائي بها فقد أقبل الليل كاون الصدود من بعد وصل
وانجلى الغيم بعد ما أضحك الرو ض بكاء السحاب فيه بوبل
عن هلال كصولجان نضار في سماء كأنها جام ذبل

وقال (من الطويل) (٣) :

-
- (١) المرجع : ٤٤٤ : ١ : اليتيمة ، ٢٦٤ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .
(٢) المرجع : ٤٤١ : ١ : اليتيمة .
(٣) المراجع : ٤٤٠ : ١ : اليتيمة ، ١٧٢ : ١ : وفيات الأعيان ، ٤٢ : ٢ : المفصل ، ٢٧٥ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

وما أم خشف ظل يوما وليلة
تهم فلا تدرى إلى أين تهتدى (٢)
أضربها حر الهجير فلم تجد
إذا بعدت هن خشفها انعطفت له
بأوجع من يوم شدوا رحالهم (٤)

وقال (من الطويل) (٥) :

وصغراء لم تطبخ بنار شربتها
كان حباب الكأس من نظم نغره
على وجه معشوق السجيا مفرط
وأشراقها من خده المتألق

وقال (من السريع) (٦) :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى
فاشرب على غم كهصبغ الدجا
والبرق قد أومض فاستضحكا
وأشرب على غم كهصبغ الدجا
كانه صندل أو مسكا
وانظر لما النيل في مده

وقال (٧) :

انظر إلى النيل قد عبا عساكره
كان خلجانه والماء يأخذها
من المياه فجاءت وهي تستبق
مدائن فتحت فاخترها الفرق
فكر إثر الأعدى محنن ، نزن
كان تياره ملك رأى ظفرا

(١) الخشف : ولد الظبي ، وهي مثله . الباقعة : الأرض المقفرة .

(٢) رواية ابن خلكان : تنهى :

(٣) رواية ابن خلكان للبيت هي :

فلما دنت خشفها انعطفت له فألفته ملهوف الجوانح طاويا

(٤) رواية ابن خلكان : يوم شدت حولهم .

(٥) المرجع : ٤٣٩ : ١ اليتيمة .

(٦) المراجع : ٤٣٨ / ١ اليتيمة ، ٤١ / ٢ الفصل ، ٢٩١ في أدب مصر

الفاطمية :

(٧) في أدب الفاطمية .

(م — ١٢ ادب)

كأن ماء سواقيه لناظرها شهب الخيول إذا ماحها العنق
فاشرب بهنى فان اللهو منبسط وأطرب ولد فهذا منظر أنق

وقال تميم :

استماني فلست أصغى لعذل ليس إلا تعلة النفس شغلي
أطيع العذول في ترك ما أهد سوى كأنني اتهمت رأني وعقلي
علاني بها فقد أقبل الليـ بل كلون الصدود من بعد وصل
وانجلي الغيم بعد ما أضحك الرو ض بكاء السحاب جاد بوبل
عن هلال كهولجان نضار في سماء كأنها جام ذبل
وقال (١) :

ألا يا نسيم الريح عرج مسلماً على ذلك الشخص البعيد المودع
وهب على من شف جسمي بعاده سموما بما استمليت من نار أضلعي
فإن قال ما هذا الحرور ؟ فقل له تنفس مشتاق بحبك مودع
وقال (٢) :

انظر إلى النيل في مده بمسوح يزيد ولا ينقص
كأن معاطف أمواجه معاطف جارية ترقص
وقال (من البسيط) (٣)

ناولتها شبه خديها مشمعة صرفاً كأن سناها ضوء مقياس
فقبلتها وقالت وهي ضاحكة وكيف تسقى خدود الناس للناس
أليس خدای ذابا إذ لمستهما فاستنبطاً قهوة حمراء في الكاس
قلت : اشربي إنها دمي وحررتها دمي وطابخها في الكاس أنفاسي
قالت : إذا كنت من جبي بكيت دما فسقنيها على العينين والراس
يالدلة بات فيها البدر ممتنق وباتت الشمس فيها بعض جلاسي
وبت مستغنياً بالثغر عن قدحي وبالخدود عن التفاح والآس

(١) المرجع ١٩٠ / ٣ زهر

(٢) المرجع ١٩١ / ٢ حسن المحاضرة للسيوطي

(٣) المرجع : ٤٣٩ و ٤٤٠ : اليتيمة ، ٢٨٧ الأدب في عهد الفاطميين بمصر

وقال يصف ناعورة^(١) :

ناعورة أنت أنين الهوى	لما شكت حر وساويسها
أنينها صرة تدويرها	ودمعها ماء قوايسها
كأنما الكيزان في بئرها	هام ملوك في نوايسها
تغذف بالماء إلى روضة	كأنما ريش طواويسها
كأنما السروها نسوة	قامت إلى قرع نوايسها
ويحسب الخشخاش من حولها	أيد أشارت بدبايسها
مما افتتح الترجس عن أحين	معصرة الأحداق من بوسها
وأقحوان كشفور المها	مفطرة من بعد تعبيسها
وسوسن كالقرص لما بدت	آثاره في لين ملبوسها
نهبه القطر بأندائه	إذ نثرته السحب من كيسها
تلعب بالأبصار أنوارها	لعب الأمانى بمفاليصها

وقال من الطويل^(٢) :

أيادير مرحنا سقتك رعود	من الغيم تهمى مزينها
فكم واصلتنا من رباك أو انس	يطفن علينا بالمسدامة غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم	وناب عن الورد الجنى خدود
وما ست على الكشبان قضبان فضة	فأنقلها من حملين نهود
ليالى أغدو بين ثوبى صباية	وطهو ، وأيام الزمان هجود
وإذ لم يوقظ الشيب ليلها	وإذ أثرى في العانيات حميد

وقال^(٣)

يوم لنا بالليل مختصر	ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجري كالخيول بنا	صعدا وجيش الماء منحدر

(١) المرجع : ٢٨٩ الأدب في عهد الفاطميين بمصر

(٢) مراجع القصيدة :

٤٣٦ : ١ يتيمة الدهر للثعالبي تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ١٨٥ : ٣ زهر الآداب

(٣) ٢٩٠ في أدب مصر الفاطمية

وكأنما أمواجه عكن وكأنما داراته مرر

وقال :

وربيض السوالف حور العيون رياض من الحسن طافت على
سلبن شقائقها بالحدود وأعدن للأحوان الغضبيض
وأبكين أعين عشاقهن وأنشد في عين شمس (١)

أما كفى الحب شوق موجه وأسى حق رعى البين بالتفريق أفتنا
فأه من لوعة مشبوبة وجوى قالت وعبرتها مخلوطة بدم
لا تطلب النطق منى بالسلام فما فظلك ملتئما من صحن وجنتها
وطاوياف الحشامنها رسيس هوى

وقال في وصف روضة (٢) :

انظر لتفويف الرياض وحسنا بسط تخالف صبغها ونسجها
يجمعن حسن المنظر الزاهى الذى فكأن نرجسها عيون أبرزت
وشقائق كست الرياض نسجها منبرجات ناعمات أكلت
وغلائل زرق نشرن كأنها

قد نمتته يد السحاب الممطر ما بين أصفر كالعقيق وأخضر
راق العيون إلى كريم المخبر أجفائها لكننا لم تنظر
حللا كتضريح الحدود الأحمر خفر الذليل ونخوة المتكبر
آثار تجميش الصدور النضر

(١) ١٧٢ فى أدب مصر الفاطمية

(٢) المرجع ٢٩٣ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر

ما بين موز قد بدا كمراد من عسجد مملوءة من سكر
فاشرب على تلك الرياض ونشرها راحا تريخ فواد كل مفكر
وقال في وصف شجرة :

إذا ما توجت في دار فوم رأيت الليل منها في النهار
فتاة عمرها عمر قصير ولكن نفعها نفع الكبار

ويقول :

أمطن دمعى الملاعن روادف رواء ولكن الخصور صوادى
وقال في شجرة (١) :

ومشرقة وجنح الليل قار لها من كل ناحية منار
تضر بنفعها فلها دموع على الخدين مسيلة غزار
أعار الغصن قامتها استواء ووكلمها على الليل النهار
إذا ما رأسها قطف استفاقت وجانبها التخوف والحذار
أقول ونارها تسطو عليها كما بالليل يسطو الانفجار
بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها اتصاف

وقال عن لسان قصر من قصور الخلافة (٢) :

إن يحسد الصبح إشراقى فعذور فى تشرق الشمس والأفلاك والنور
أطاعنى الحسن وانحط الجمال على سمكى وأسعد بنيانى المقادير
فساحق بابتهاى هادى الخلق مشرقة ومنزلى بالعلا والمجد معمر
كأنتى برج سعد ما يفارقه قصف وعزف وتقديس وتطهير
يضاحك النيل أركانى مغازلة إذا بدت للضياء فيه قوارير
ولا تزال تلاقينى بنفحتها من كل وجه رياض أو أزهير
ولست بالقفر والبيداء محدة ولا على غبار التراب منشور

(٣) المرجع ٢٦٤ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر.

(١) المرجع: ٢٦٣ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر.

من حلى فهو صافى العيش مبهج ومن رأى قرير العين مسرور

وقال (١)

وضعية الألفاظ ساحرة	زادت لوحظها على السحر
صفراء يحسبها محدثها	ذهبا يكاد بضاعة يجرى
فكأنما خفر الحياء بها	سقم غدت منه على سكر
وكأن رقة لفظها جمعت	طيب الوصال ولذة البشر
لحديثها كالبرد أو كرضا	المحبوب بعد السخط والمهر
إن قل أدته بلا لبس	أوطال نصته بلا هذر
ترنج من ثقل روادفها	حتى تنوء بدقة الخصر
فكأنما قر على غصن	قد لاح في ليل من الشعر
في صفرة كالخمر شاهدة	أن الجمال المحض للصفر
وإذا مشت من لينها اضطربت	مثل اضطراب الموج في البحر
وكأنها تخطو إذا نهضت	فوق المناصل أو على البحر
لا تعلموا فيها المحب فقد	قامت له بجوامع العذر

وقال (٢) :

ونمت الأرض على الأمطار	بما اكتست من بدع النوار
من أحرقان على اخضرار	وأبيض قد لاح في اصفرار
كدرهم ركب في دينار	وقد بدا السوسن في البهار
كلازورد ذر في جلنار	كأن غدران الحباب الجارى
لاعبة بالتود في الأنهار	فانظر لحسن الروض في آذار
وما أتى فيه من الأنوار	وداو بالخمر أذى الخنار (٣)

(١) المرجع : ٢٧١ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٢) المرجع : ٢٦٥ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٣) الخمار بالغنى : صداع الخمر وأذاها .

قال تميم (١)

رب صفراء عللتني بصفراء ووجنح الظلام مرخي الإزار
بين ماء وروضة وكروم ورواب منيفة وصحارى
تدنتني به الغصون عليها وتجييب القيان فيها القمارى (٢)
وكان الدجى غدائر شعر وكان النجوم فيها مدارى
وانجلي الغيم عن هلال تبتدى في يد الأفق مثل نصف السوار (٣)

وقال تميم (٤)

وكانس يعيد العسر يسراً ويحتنى ثمار الغنى للشرب من شجر الفقر
يولد فيها المزج درأ منضداً كما فتنت فوق الثرى نقطة القطر
صفار وكبرى في الكؤوس كأنها على الراح واوات تجمعن في سطر
إذا حثها الساقى الأغر حسبتها نجوم الثريا لحن في راحة البدر
صبحت بها صبحي وقد رندج الدجى بفضة لآلاء الصباح من الفجر
وقد أزهرت بيض النجوم كأنها على الأفق الأعلى قلائد من در

(١) وهو معارضة لقول ابن المعتز :

استقى الراح في شبابب النهار وانف همى بالخندريس العقار
قد تولت زهر النجوم وقد بث ر بالصبح طائر الأسحار
ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار
وغناء الطيور كل صباح وانفتاق الأسحار بالأنوار
فكان الربيع يجلو عروسا وكاننا من قطره في نثار

(٢) جمع قرية وهي ضرب من الحمام

(٣) من قول ابن المعتز :

وكان الهلال نصف سوار والثريا كف يشير إليه

(٤) المرجع : ٢٤٢ و ٢٤٣ الأدب في عهد الفاطميين بمصر ١٨٥ : ٣ زهر ،

وقال :

لا شيء أحسن منظراً أبداً
تسعى بمحمر على غنم
من عادة في كفها قدح
أطرافه العناب والبلح

وقال في النيلوفر :

رأى الشمس فافتحت عينه
إذا ركض الليل لم يستهن
ولولا سنا الشمس لم تفتح
وإن طلع الصبح لم يبرح

وقال تميم :

فقوى فقد شاب رأس الدجى
قتيل الحوادث من خافها
بنور سنا فجره المصيح^(١)
فلا تخش حادثة تنجح
مسع العسر يسر يحلى الدجا
ألم تتذكر : (ألم نشرح)

وقال وينسب الأولان لابن المعتز^(٢) :

كان البركة الغناء لما
وقد لاح الضحى مرآة قين
غدت بالماء مفعمة تموج
قد انصقلت ومقبضها الخليج
يرى قر الدجى قرأ حذاه
فلا تعص الصبا في لبس هو
طلوعا ماله فيها بروج
فإن الدهر ذو شعب لجوج

وقال يصف فوارة^(٣) :

خليلي قدولى الظلام وهمليجا^(٤)
وقد كاد وجهه المصيح أن يتبلجا

(١) يوازن صاحب الأدب في عهد الفاطميين بمصر، بينه وبين قول ابن المعتز :

والصبح من تحت الظلام كأنه شيب بدا في لمعة سوداء
ويرى أن تيمياً أخذ المعنى من ابن المعتز ، إلا أن ابن المعتز عرض وصف الفجر
في مبدأ ظهوره ، وتيمم عرض له حين عظمت مخالطته للظلام (٢٣٤ المرجع)

(٢) المرجع : ٢٨٧ في أدب مصر الفاطمية .

(٣) ٢٦١ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٤) همليج : مثني مشية سهلة في سرعة .

فقوموا إلى ساقيكما واهتفا به
ودونكما ها قهوة بابلية
على ترجس غض بضاحك، وسنا
وقاذفة بالماء في وسط بركة
إذا قذفت بالماء سسلته منصلا
كان عيون العاشقين تعبرها
تحال بروز الماء من جفن عينها
تحاول إدراك النجوم بقذفة
لدى روضة جاد السحاب ربوعها
كان غصون الأفحوان زمرد
ونور النسرين كان نسيمه
قياسافي استعجلا لي وصرفا
ولا تحملهم الزمان فانه
سأطلب حتى إن قضى الله لي به
فلست وإن عاقرت كأسى بسالك
ولا مشتر بالمجد مستحسن الصبا
ولكنني موف لنفسى حقوقها
وقال (٣) :

نقبت وجهها بخز وجاءت
فأملت في النقابين منها
فاسقياني بلا مزاج فإني
وانظر إلى الأفق كيف بدله الإص

بمدام منقب بزجاج
قرأ طالعا وضوء سراج
في المعالي صرف بغير مزاج
بإح من بعد آبنوس بعاج

(١) وحف الشعر: كشف واسود، وفي رواية ورد الشطر الأخير هكذا :

وقد التحفت ظلا من الأيك سجسجا ، — ويعنى الماء المتدفق من البركة .

(٢) سجل الماء فانسجل : صبه فانصب ، وعين سجول : غزيرة .

(٣) ٢٩٨ الادب في عهد الفاطميين بمصر ، ٣/١٨٧ زهر الآداب .

وقال :

ألا سقياني قهوة ذهبية فقد ألبس الآفاق جنح الدجى دمع
 كأن الثريا والظلام يحفها فصور لجين قد أحاط بها سيج^(١)
 كأن نجوم الليل تحت سواده إذا جن زنجى تبسم عن فليج
 كأن رقيق الغيم والبدر تحفه زجاج على كف من الصبح منتسج
 فقم وأدر أقداح خمر كأنها إذا برزت تزكى أوائلها سرج
 كأن عليها من صفاء أديمها خلال العزيز الفرد أو نشرها الأرج

وقال، تميم من هذه القصيدة :

كأن عمود الصبح في غرر الدجى صحيفة سيف قد تصدى من المهبج^(٢)
 وقال (٣) :

دع مقال العاذلات واله عن سعى السعاة
 واشرب الراح وشيها بالثنايا العطبرات
 واتملى إن شئت نفا ح رياض الوجنات
 أنا ما بين نداما ي وراحي وسقاي
 ثم لا أعرف الصحو ولا وقت الصلاة
 فاذا قومنى السكر على تلك الهبات
 لم ينهني سوى حس ن مشاتي الغانيات
 وغناهن سحيرا وأسقنيها بحياتي ،

(١) أى سواد (خرز أسود) .

(٢) يرى صاحب الأدب في عهد الفاطميين بمصر ، أن تيميا أخذ المشبه به بعينه وخواصه وهو السيف الصدى ، ولكنه تصرف في التشبيه بعض التصرف لجعل لكل جزء من أجزاء وجه الشبه في المشبه لفظاً دالاً عليه ، فقال وعمود الصبح ، وهذا فيه ما يقابل الاستقامة التي في صحيفة السيف ، ولكن في كلمة ورق قيصه ، رقة وإطاقة أتى بها ابن المعتز (٢٣٤ المرجع) .

(٣) ٢٤٩ في أدب مصر الفاطمية .

وقال يصف عوداً :

فشميت ميل معاصيره	إذا ملن بعد استواء رطيبه
بوجه حبيب بدا ضاحكا	فمن له لحظ عين الرقيب
فلما استوى نطق أوتاره	حكى نقرها حسن لفظ الحبيب
تجس الأنامل وسنانة	كما جس عرق العليل الطيب

وقال (١) :

إذا حذرت زماناً لا تسر به	وكم أتى سهل دهر بعد أصعبه
فأقبل من الدهر ما أعطاك غنطاً	لعل مرك يحلو في قلبه
خذها إليك ودع لوى مشعشة	من كف ظبي أثيل الخند مذهبه
في كل معقد حسن منه معترض	عليه يحميه من أن يستبد به
فكحل عينيه بمنوع بخنجره	وورد خديه بحمي بعقره
لا تترك القدح المألآن في يده	إني أخاف عليه من تلبه
فصنه عن سقيننا إني أغار به	واسقه واسقني من فضل مشربه

قال تميم :

وانظر إلى الليل كالزنجي منهزماً والصبح في إثره يعدو بأشبهه (٢)

(١) المرجع ١٨٧/٣ زهر .

(٢) يعقد صاحب الأدب في عهد الفاطميين بمصر ، موازنة بينه وبين

قول ابن المعتز :

حتى إذا هزم الإصباح ليلهم بعسكر من جنود النور مبثوث
ويقول . إن الشاعرين اتفقا في تصوير المعنى بهيئة معركة ، وهزم النهار الليل ،
ونظر ابن المعتز إلى كثرة انتشار الليل وتحوله في كل مكان ، أما تميم فقد كان
مقصده سرعة انتشار النهار وعو الليل عنيد ظهور النهار (٢٣٢ الأدب في عهد
الفاطميين بمصر) .

وقال تميم :

والبدر منتصف ما بين أجمعه كأنه ملك في وسط موكبته (١)

وقال :

عتبت فالتقى عليها العتاب	ودعا دمع مقتلها انسكاب
وسعت نحو خسدها بيديها	فالتقى الياسمين والعناب
رب مبدى تعتب جعل العت	ب رياء وهمه الإعتاب
فاسقنيها مدامة تصبغ السكا	س كما يصبغ الحدود الشباب
ما ترى الليل كيف رق دجاء	وبدا طيلسانه ينجاب
وكان الصباح في الأفق باز	والدجى بين مخليه غراب
وكان السماء لجة بحر	وكان النجوم فيها حباب
وكان الجوزاء سيف صقيل	وكان الدجى عليها قراب

وقال :

وزنجية الآباء كرخية الجلب	عبيرية الأنفاس كرمية النسب
كيت بزلنا دنها فتفجرت	بأحر قان مثل ما قطر الذهب
فلما شربناها صبونا كأننا	شربنا السرور والخض واللهم والطرب
ولم نأت شيئاً يسخط المجدفعه	سوى أننا بعنا الوقار من اللعاب
كان كؤوس الشرب وهي دوائر	قطائع ماء جامد تحمل اللهب

(١) يوازن بينه صاحب الأدب في عهد الفاطميين بمصر، وبين قول ابن المعتز:

وكان الصبح لما لاح من تحت الثريا
ملك أقبل في تا ج يفدى ويحيى

ويقول : إن المشبه واحد وإن اختلف في التركيب فهو متحد في الهيئة ولا شك في أن تمثيلاً تأثر بقول ابن المعتز ، ولكنه سلك طريقاً لا يمتدح على أخذ لمصدره الخيالية ، فاستطاع أن يستر ما أخذ ، ففرق بين الصورتين ، وجعل النجوم حول البدر كالمملك بين موكبته ، وابن المعتز جعل الثريا تاجاً على رأس الملك ونص على التبعيات والحفاوات (ص ٢٣٣ الأدب في عهد الفاطميين بمصر) .

يهد بها كفها خضيباً مديرها وليس بشيء غيرها هو محتضب
قبتنا نسق الشمس والليل راكد ونقرب من بدر السماء وما قرب
وقد حجب الغيم الهلال كأنه ستارة سرب خلفها وجهه من أحب
كأن الثريا تحت حللكة لونها مداهن بلور على الأرض تضطرب^(١)
وهي من قصيدة يمدح العزيز ، وتروى برواية أخرى وهي :

وزنجية الآباء كرخية الجلب عبيرية الأنفاس كرمية النسب
فلما شربناها صبونا كأننا شربنا السرور المحض واللاه والطرب
ولم نأت شيئاً يسخط المجد فعله سوى أننا بعنا الوقار من اللعب
فبت أناجي البدر وهو منادى وأشرب باللثم العقار من الشذب
إلى أن رأيت الصبح يفتك بالدجى كفتك أبي المنصور بالروم والعرب
لإمام كأن الله وصاه بالعللا فليس له في غير معلومها أرب

وله يصف القرافة متضرعا إلى الله :

إذا كنت مصطفياً مربعا يخص القرافة بالاصطفاء
منازل معمورة بالعفاف ومخصوصة بالتقى والبهاء
فن ذا كر ربه خشية ومن مستهل بطول الدعاء
رجوتك يارب لا أنى أطلعتك طوع أولى الانتهاء
ولكنني مؤمن موقن بأنك رب الورى والسماء
وأنك أهل لحسن الظنون وأنتك أهل لحسن الرجاء
ومالى يارب من شافع إليك سوى خاتم الأنبياء

(١) قال صاحب الأدب في عهد الفاطميين بمصر : أخذته من ابن المعتز في قوله :
كأن الثريا هودج فرق ناقة بحث بها حاد إلى الغرب مزعج
وقد لمست حتى كأن بريقها قوارير فيها زئبق يترجرج
المشبه به مختلف في ألفاظ التركيب متحد في الهيئة . . انظر إلى د قوارير فيها
زئبق يترجرج ، و د مداهن بلور تضطرب ، (راجع ٢٣٥ المرجع)

وقال في وصف روضة على شاطئ النيل (١) :

ويوم خدعت الدهر عنه فلم أزل	أعلل نفسي فيه بالراح مع صهي
لدى روضة عالت رباها كرومها	وجاد عليها النيل من مائه العذب
كان يحيق المسك خائط أرضها	لجالت به فيها الرياح مع الترب
كان نبات النيل والريح ترتجى	بين طلي خيل مؤتلة شهب
وطوراً تحال الماء في رونق الضحى	متون سيوف لحن مصقولة الغضب
وتحسبه إن محضته يد الصبا	قوارير ما بفتن من قلق اللعب

وقال :

لا ومن صير الأئمة من نس	سل وصي النبي لى آباء
ما تحملت ذلة بل تجمل	ت إلى أن يتم ربي القضاء
فاصر فالجرب عن لثام الأعادى	ودعاني أنازل الصباء
فهو تهزم الهموم إذا ما	نازلتها وتطرب الندماء

وقال :

نحن من البستان في نزهة ولفظنا مثل حلاه سوا
وكتب إلى بعض البستانيين بالمنصورية ، فأرسل المعز في طلبه للخدمة التي كان
يتولاهما بين يديه ، وجاء مبادراً ، وتعذر لقاءه فكتب إليه :

مالى عجلت إلى دعائك	وحرمت حظى من لقائك
وتركتنى مستوحشا	لما عزمت على اصطفاك
حتى لقد أوهمتني	أنى أخونك في وفائك
صلى عليك الله من	ملك وزادك في حياتك

وقال تميم (٢) :

وشادن شرط الصبا مرهف	قرة عيني من تمناه
كأنما الحسن رأى وجهه	إليه محتاجاً فأغناه

(١) ٢٨٧ في أدب مصر الفاطمية

(٢) ٢٤٧ في أدب مصر الفاطمية

فانتثرت بالغنج ألقاظه وانكسرت باللحظ جفناه
ولاح برق الثغر من مبسم المسك والقهوة بجناه
وبتل الأرداف فاستثقلت وأرهف الخصر وأضناه
زرنا به منزل خمارة والليل في صبيغ برياه
وقد علا الأفق هلال بدا كمعطفة الحاجب بحناه
حتى إذا الخمار أصغت إلى صخب الغنا بالضرب أذناه
قام إلينا عجلا شاعلا بالراح يمتناه ويسراه
ما سل من إبريقه قهوة أشرق منها ليل مغناه
حتى إذا سمناه في ييمها قطب غيظاً حين سمناه
وقال ما استام بها ماجد قبلكم فيما علناه
دونكوها وزنوا مثلها درا وتبرا ، ووزناه
فغاب عن الحاظنا ساعة ثمت وافانا وذناه
فقام بالكأس هضم الحشا لولا قناه لشريناه
كأنها في كفه خده لكنها في السكر عيناه
إذا سقى ندمانه كأسه أثمه فاه وعيناه
ولم تنكه غير الحاظنا يا كاشحاً قد زاد معناه
فإن تداخلك بنا ظنة فقد على رغمك نكناه
ولم نزل في بيت خمارها نشرها شهرا ومثناه
إذا أشاب الصبح رأس الدجى وهزنا الساق أجبناه
نحبو إذا نادى إليه كما يحبو إلى الوالد أبناه
وإن بدا من صاحب بعض ما يأتي به السكر عذناه
سقى ورعيا لزمان مضى به معد (١) فعدمناه
ما كان أمهى حسن أيامه فبنا وأحلاه وأهناه
إذ لم يكن في عين شمس لنا نخيم نكره سكناه
ولم نكن نزل فيه على حكم من الأيام نشناه (٢)
لكننا نغدو على ماجد تمطرنا بالجوود يمتناه

(١) هو والده المعز لدين الله (٢) أى نبغضه

وقال (١) تميم بن معد (١) من السريع ويروى للوأواء :
لا تطلبوا الناس ولا تطلبوا بشأري اليوم أذى مسلم
ويا القوي دونكم شادنا معتدل القامة والمبسم
وإن أبي إلا جعوداً له واكتم الأمر فلم يعلم
قولوا له يكشف عن وجهه فإن فيه نقطة من دى

خمسة تميم المشهورة (٣) وهن من المزج: (٤)

دم العناق مطلول ودين الحب معطول
وسيف اللحظ مسلول ومبدي (هـ) الحب معزول
وإن لم يصغ للآثم
إذا لم يظهر الحب ولم ينهك الصب
ويفشى سره القلب فجمة ما ادعى كذب
فبيح يا أيها السكاتم
وأحور ساحر الطرف (٦) يفوق جوامع الوصف
مليح الدل والظرف جنت ألاحظه حتفي
فمن يعدى على الظالم
أطاع جفونه السحر وذل لوجهه البدر
وماد بردفه الخصر وأشبه ثغره الدر
فقلب محبه هائم

(١) المرجع: ٢٩٢ اليتيمة (٢) في اليتيمة: لمعد بن تميم - وهو تحريف

(٣) المراجع: ١٤١ - ١٤٤ : ١ اليتيمة ، وفي ٢٧٦ الأدب في عهد الفاطميين

بمصر بعضها .

(٤) هكذا يقول صاحب اليتيمة ، والصحيح أن الخمسة من الوافر

(٥) رواية اليتيمة : ومبدا

(٦) في اليتيمة ساهر

يعنفني على حبي ويهجرتي بلا ذنب
كأنني لست بالصعب لقموة ريقه العذب
أما في الحب من راحم

غزال : لحظه شره وبدر : ثوبه فلكه
لو اني كنت أمتلكه فأتهب ما حوت نكته
نهاب الظافر الغائم

خذوا بدي قنا القد وحسن تورد الخد
وليل الشعر الجمد وثقل الكفل النهد
وسقم الأعين الدائم

مق يظفر بالوصل وينقى الجور بالعدل
حج دائم الخبل سلب الصبر والعقل
كثيب مدنف هائم

بحسن الأعين النجل وعض الوقف والحجل
وذاك القصب الجدل وريق كجنا النحل
وثر بطمع الشائم

سلوا الشمس التي طلعت علينا ثم ما أفلت
عسى ترثي لمن قتلت بعينها وما علت
فقد يستعطف العالم

أما والخرد الصفر شيهات سنا البدر
وألوان صفا الخمر لقد أضرم في صدرى
غراما ليس بالنائم

وراح تبعث الطربا ونحيي الظرف والأدبا
يشير مزاجها حبا تخال به عيون ربى
ودرا صفه الناظم

أما والجرة الكبرى وزمزم والصفى ومنى
ومن لبي بها ودعا وطاف البيت ثم سعى
خيمصا مخبئا صائم

لقد أضى لنا خلفا نزار وابنتى شرفا
وأصبح خامس الخلفا وأحيا سعيه السلفا
وأضى بالهدى قائم
نمى فى المجد عنصره وطال النجم مفخره
وفاق البدر منظره فصرف الدهر يحذره
أبى لين صارم

وقال من المنسرح (١):

وجنة من شفى هواه ومن أفنيت فيه دموع آماق
كأنما الصير فى دزما يحمر منها ودرهم الباق

وقال من الكامل (٢):

ورد الحدود أرق من ورد الرياض وأنعم
هذا تنشققه الأنوف وذا يقبله الفم
فاذا عدلت فأفضل الوردين ورد يلثم
هذا يشم ولا يضم وذا يضم ويشم
لا ورد إلا ما تولى صيغ حمرة الدم
سبحان من خلق الحدود د شقائق تنسم
وأعارها الأصداغ فـ سى به شقيق يعلم
واستنطق الأجفان فـ سى بلحظها تتكلم
رتبين للمحجوب عن سر الحبيب فيفهم
وتشير إن رأت الرقيـ بـ باحظها فتسلم
وأعارها مرضا تصح به القلوب وتسقم
فتن العيون أجل من فتن الحدود وأعظم

(١) المرجع: ٤٤١ : ١ اليتيمة ، وفى ص ٢٩٢ : ١ اليتيمة البيان أيضا مع
إبدال « يحمر » بكلمة « نجم » .
(٢) المراجع: ٤٤١ : ١ اليتيمة ، ١٨٨ : ٣ زهر .

وقال وهو مما يتغنى به (من البسيط) (١) :

قالت وقد نالها البين أوجعه والبين صعب على الأحباب موقعه
اجعل يدك على قلبي فقد ضعفت قواه عن حمل ما فيه وأضلعه
واعطف على المطايا ساعة فمسي من شت شمل الهوى بالبين يجمعه

وقال (من الطويل) (٢) :

أما والذي لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لأعلانها عندي أشد وآلم
وبكل ما تشكو العيون أمله وإن كنت منه دائماً أتبسم

وقال :

ترى عذاريه قد قاما بمعدرتي عند العذول فيغدو وهو يعدرتي
ريم كأن له في كل جارحة عقداً من الحسن أو نوعاً من الفتن
كأن جوهره من لفظه عرض فليس تحويه إلا أعين الفطن
أخني من السر لكن حسن صورته إذا تأملته أبدى من العن
والله ما قتلت عيني محاسنه إلا وقد سحرت ألفاظه أذني
ما تصدر العين عنه لحظها ملالاً لأنه كل شخص مرتضى حسن
يامننهي أملى لاتدن لي أجلى ولا تعذب ظنوني فيك بالظن
إن كان وجهك وجهاً صيغ من قر فإن قدك قد قد من غصن (٣)

(١) المراجع: ٤٣٨ : ١ : اليتيمة ، وفي ص ٢١٣ : ٣ : ظهر الإسلام هذه الأبيات ما ١٠ - الثالث منها . . . وهي في ٢٩٦ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٢) المراجع: ٤٣٨ : ١ : اليتيمة ، وفي ص ٢١٣ : ٣ : ظهر الإسلام لأحمد أمين الأبيات مع تغيير كلمة " تشكو " في البيت الثالث بكلمة " يبكي " ، وهذه الرواية هي رواية ابن خلكان ، راجع ص ١٧٢ ج ١ : وفيات الأعيان (في ترجمة تميم ، ٤٠ : ٢ : الفصل ، ٢٣٠ المعز لدين الله .

(٣) راجع الأبيات : ٤٣٧ ج ١ : اليتيمة ، ١٩٠ : ٣ : زهر .

وقال (١) :

سألته قبله منه على عجل فاحمر من خجل واصفر من وجل
واعتل ما بين إسعاف يرققه وبين منع تمادى فيه بالعلل
وقال وجهى بدر لا خفاء به ومبصر البدر لا يدعوه للقبل

وقال (٢) :

مستقبل بالذى يهوى وإن كثرت منه الذنوب ومقبول بما صنعنا
في وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب وجهه أينما شفعا
كأنما الشمس من أثوابه برزت حسناً أو البدر من أزراره طلعا

وقال (٣) :

أرى الليل في دير القصير كأنما يطالنا من ساحتين شمس
يلذ التصابي في ذراه كأنما تجدد للزوار فيه نفوس
فن كان محبوساً على حب لذة فإني على دير القصير حبيس

(١) المرجع : ١٨٦ : ٣ زهر .

(٢) المرجع ٢٩٥ الأدب في عهد الفاطميين بمصر ، ١٨٧ : ٣ زهر

قال الحصري : في البيت الثالث : استعارة من قول ابن زريق :

أستودع الله في بغداد لي قرا بالسكرخ من فلك الأزرار مطلعه

أو من قول أحمد بن يحيى الفران :

بدا فكأنما قمر على أزراره طلعا

(٣) المرجع : ٢٦٧ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

وقال ومن المنسرح، (١):

لو صورت خلفها إرادتها ما قدرته كمثل ما قدرا
كالمسك نشرًا والبرق مبتسما والغصن قدا والحقف مؤتزرا

وقال ومن السريع، (٢):

شبهتها بالبدر فاستضحكت وسفحت قولي وقالت متى
وبالدرد لا يرنو بعين كما ولا يميظ المرط عن ناهد
من قاس بالبدر صفاتي فلا وأقابلت قولي بالنسكر (٣)
سمجت حتى صرت كالبيدر أرنو، ولا يدسم عن نعر
ولا يشهد العقد في نحر زال أسيراً في يدي هجري

وقال من الكامل وهي مشهورة: (٤):

ما بان عذري فيه حتى عذرا همت تقبله عقارب صدغه
والله لولا أن يقال تغيرا لأعدت تفاح الحدود بنفسجا
ومشى الدجى في خده فتحيرا فاستل ناظره عليها خنجرا
وصبا وإن كان التصابي أجدرًا لثما، وكافور الترائب عنبرا

وقال ومن الطويل، (٥):

وغضبي من الإدلال والتهيه والهوى بلاغضب، سكرى الجفون بلاسكر

(١) المرجع: ٤٣٩: ١: اليتيمة.

(٢) المرجع: ٤٣٩ - ١: اليتيمة، وتنسب الأبيات لعلی بن عبد الرحمن بن المنجم
د ٢٤٣ - الأدب العباسي لمحمود مصطفى، . . . والأبيات منسوبة لتيم في ص ٢٧٣
و ٢٧٤ الأدب في عهد الفاطميين بمصر.

(٣) النكر: استفظاع الأمر.

(٤) المرجع: ٢٩٢: ١: اليتيمة، و ١٧٢: ١: وفيات الأعيان.

(٥) ٤٣٨: ١: اليتيمة.

كان على لباتها رونق الضحى وفي حيث يهوى القرط منها سنا الفجر
تري البدر مثل البدر في سمح خدعا وتنتشر عن مثل الجمان من الثغر

وقال أبو علي تميم بن المعز في الغزل : (١)

فديت من ألقاظه جنوة تذكي ، ومن ملثمه بارد
لما شكوت إليه الهوى والشوق نام والجوى زائد
أرسل في تفاحة خده إلى كيلا يظن الحاسد
فلونه في لونها ظاهر وريقه في طعمها جامد

وقال على لسان جارية له (٢) :

طمع الورد أن ينافس خدى طمع الغصن أن يقاس بقدى
أنا إنسية ولكن حسنى حسن حورية بجنة خلد
لو تأملتني العيون لأجرى لحظها رقة مع الماء جلد
صاغى الله واصطفاني لما صاغى فردة الجمال لفرد

وأشدد وهو في الرملة (٣) :

أتم في المنام حللى وأنتم في انتباهي سولى وأنتم مرادى
كل عضو منى إليكم مشوق زائد شوقه على الأبعاد
لم أفارقكم ولكن جسمى بان عنكم وحل فيكم فؤادى
فهنيئاً لكم وفائى عليكم وهنيئاً للعين طول السهاد
كلنا حتى اشتياقنا إليكم قلت ليك أنت نعم المنادى

(١) ١٨٥ و ١٨٦ الأدب في عهد الفاطميين بمصر - الأستاذ عبد الحميد عبده خليل .

(٢) المرجع ٢٦٧ . الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٣) ١٧٣ في أدب مصر الفاطمية .

وقال أيضاً :

دعا دمعين فراق لجادا	وأعجلن التثنائي فزاد
فلم أر دمعاً كدماعهن	يميض الحشا ويذيب الفؤادا
ولما تيقن أن الفراق	يزود عشاقهن البعادا
تأولن أن لباس الحداد	أحق بمن صبر الحسن زادا
فنشرن ما قد طوت خمرهن	ليلبسن شعر النواصي حدادا
ولولا مراعاة عين الرقيب	لبسن الثياب جهاراً سوادا

وقال (١) :

قالوا الرحيل خمسة	تأتى سريعاً من جمادى
فأجبتهم إني اتخذ	ت له الأسى والزادا
سبحان من قسم الأسى	بين الأحبة والبعادا
وأعاد للأجفان حسنا	تسترق به للعبادا

وقال (٢) :

أباح الملقى السمرا	وجار على واقتدرا
غزال لو جرى نفسى	عليه لذاب وانفطرا
ولكن عينه حشدت	على الفنج والخورا
ومن أدرى به قر	فكيف يعاتب القمر (٣)

وقال (٤) :

عقرب الصدر فوق تفاحة	الخد نعيم مطرز بهذاب
وسيوف اللحاظ في كل حين	ما نعات جنى الثنايا العذاب

(١) المرجع ١٨٩ : ٣ زهر .

(٢) المرجع ٢٩٦ الأدب في عهد الفاطميين مصر ، ١٨٦ : ٣ زهر

(٣) قال الحمصى : كأنه ذهب إلى قول أبي نواس :

كأن ثيابه أطلعه	ن من أزراره قرا
يزيدك وجهه حسناً	إذا مازدته نظرا

(٤) المرجع ١٩٠ = ٣ زهر .

وعيون الوشاة يفسدن بالرة
فتى يشتقى الحب وتطفى
بنة والمنع رؤية الأحباب
بالتداني حرارة الإكثاب؟

وقال :

ظلموا البين والنوى والرقيبا
لا أذم الفراق فى بعد من قد
لا ولا أظلم الوشاة ولا
ماوشى بى سوى الدموع ولا
ولو أنى رعيت حق الهوى لم
قدرنت ظلية ولاحت صباها
حبذا لفظها وأنملها الخ
ليت شعرى أعارها البدر نوراً
أم رآها العزيز للحسن أهلاً
ملك لم يدع من العز والنج
وقال (١) :

إن كانت الألاحظرسل القلوب
قبلت من أهوى بعينى ولم
لكنه قد فطنت عينه
أن كان علم الغيب مستخفياً
وقال (٢) :

لا والمضرج ثوبه
لا والوصى وزوجه
أو لا فأنى للعصا
ماحلت يا ذات اللعى
فى كر بلاء من الدماء
وبنيه أصحاب الكساء
ة الغاصبين الأدياء
عما عهدت من الوفاء

(١) المرجع : ١٨٩ : ٣ زهر

(٢) ٢٧٤ و ٢٧٥ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

هيا انظريني ساجحاً في الدمع من طول البكاء
وضعى يديك على فؤاد قد تهيأ للفناء
قالت تلطف شاعر لسن وخدعة ذي ذكاء
أمسك عليك فقد تقه مع منك وجهي بالحياء
واعبت بما في العقد م في لا بما تحت الرداء
إن الرجال إذا شكوا لعبوا بأخلاق النساء

تميم في جده وطلوه

وإنما أثبتنا كثيراً من شهر تميم لأن ديوانه لا يزال مخطوطاً حتى اليوم، ولم يقسن
للكثير الاطلاع عليه، مما جعل الدراسات الأدبية عن تميم شبه معدومة .

وقد شهر تميم بالحذق والذكاء وخرج باقة في البلاغة والنظم، على أن هذا
الجد منه لم يمنعه في عنفوان شبابه أن يقبل على اللهو والقصف وينقاد لداعي الشهوات
وكان يرخص في ذلك لمن حوله من الرعية وينظر إلى مسراتهم بعين الرضى
والاستحسان ويشاركهم بما لديه من مقدرة وثراء وما امتاز به من بشاشة وسخاء .
وقد وصفه لنا ابن الأبار القضاعى الأندلسى ومن بعده المقرئى في أيام النبروز
والمهرجان وأعياد النصرى كالقطاس والميلاد والشعائين وغيرها من أيام الفرح
واللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة في القصف والعرف ويخرجون إلى بركة
الجيش متزهين فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادات والقباب، ومنهم من
يخرج بالقيان والمسمعات والتخدرات وخيل تميم في متقى فارس من عبيده تخرسهم
في كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم ويبصرفوا . فيسكرون وينامون
كما ينام الإنسان في بيته ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة، ويركب
إيهم في عشارى تتبعه أربعة زوارق وأكثر مملوءة فاكهة وطعاماً ومشروباً فإن كانت
الليالى مقمرة وإلا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً فإذا مر على طائفة
واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم بإعادته وسألهم عما نقصهم فيعطيم ، وربما
رغبوا إليه أن يسميهم من غنائه فيقف عليهم ويأمر من يغنى لهم وينتقل عنهم

إلى غيرهم ، يفعل هذا عامة ليلته ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنتفض هذه الأيام ويفترق الناس^(١) . ومن هذا الوصف يتضح كم كانت أيام العزيز بالله وابنه تميم في القاهرة أيام غبطة وهناء وأفراح شاملة ولا نعلم أن أحداً روى عن أبناء الملوك ما روى عن الأمير تميم من التسامح وخفض الجانب والجود والظرف ، وشتان بينه مثلاً وبين أبي على ابن الرشيد العباسي حين كان في بغداد يحمل جواربه وقيانه إلى حانات الدبارات ويقيم معهن الأيام والليالي عزفاً وقصفاً حتى ينقص على جيرانه نومهم وراحتهم بكثرة ما يقلقهم به من الصياح والضوضاء المتواصل دون أن يشركهم مرة في شيء من مسراته وأطراجه ، حتى ألجأهم إلى الشكوى إلى الأمير اسحق بن إبراهيم الطاهري وهو خليفة السلطان ببغداد ، فأمر بإزالة ليلته من الدير وهو سكران وبطحه على باب الدير وضربه عشرين درة^(٢) . وانتفى أن الخليفة العزيز بالله زار مرة بركة الجيش ، فلما قرب من قصور أخيه تميم سأل عنه فأسرع إليه من عرفة فخرج راجلاً حافياً حتى لقيه فسلم عليه بالخلافة وقال : يا أمير المؤمنين قد وجبت على عبدك الضيافة . قال نعم ، ودخل معه إلى بستانه وقد أمر بجنيبة من الجنائب التي كانت بين يديه وأقسم على تميم أن يركبها ويسايره . فلما توسط البستان نظر إلى ثمر بلوح الذهب عليه فتعجب منه واستظرفه ودنا على شجرة وأخذ منها ليمونة واحدة فقرأها وإذا مكتوب عليها بالذهب :

أنا الليمون قد غذيت عروقي ببرد الماء في حرز حرير
حسنت فليس يحسن أن يحيا بأمثالي سوى الملك العزيز
لجعلها في كفه وقال هذه ضيافتي عندك وانصرف إلى قصره فبعث إلى جعفر
ابن مقرب صاحب بيت المال فقال له : ما عندك من الدنانير ضرب هذه السنة ؟
- وكان ذلك في أوّلها - فقال له : مئة ألف وستون ألف . فأمره بمحملها من ساعته
إلى الأمير تميم مع راشد العززي وقال له : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول
لك استعن بهذه على مروه تلك . فقبل الأرض وبعث إليه من الغد قصيدة حسنة
يمدحه فيها ويشكره^(٣) .

(١) الحلة السيرة لابن الأبار خزائن مدير رقم ٨٩٧ ص ٢٥٢-٢٥٥ والخطوط
للمقرئ مطبعة النيل ٣ : ٢٥١ (٢) ديارات الشايشي الورقة ١٢-١٣ نسخة برلين
(٣) الحلة السيرة ص ٢٥٢-٢٥٥ .

وفي هذا دليل على طيب أخلاق الأمير تميم وصفاء طويته ، وكان حقيقاً بالحق على أخيه العزيز ، لأن والده المعز كان ولاه عهده لتقدمه بالسن على العزيز ورشحه لخلافته وبه كان يكفى . وقد أغفل المؤرخون السبب الذى بدا للعزيز حق حول الخلافة عن تميم إلى نزار وأحطه محله . وينظر أن القائد جوهر الصقل باني القاهرة هو الذى أشار بخلق تميم ، لأنه كان عتياً لا يولد له (١) ، وكان العزيز يوالى إكرامه علماً بصدق وده وإخلاصه فى مدحه (٢) :

ومن ديوان تميم نسخة فى دار الكتب المصرية وأخرى فى ليدن بهولاندة وفيها نقص ، وجاء فى مقدمة هذه النسخة :

والحمد لله الذى نضر لعيون الأعيان رياض البيان ، وفن الصلوب بأفنان فنونه . أما بعد فإن الأمير الكبير تميم بن المعز بن الله العبيدى تغمدته الله بالعفو والغفران وسقى ضريحه بديم الفضل والامتنان كان قد ولى إمارة ممالك الشعر وألقى إليه زمام التصرف فى أقطار النظم والنثر . . . وقد جمع فى هذا السفر ما وجد من فنون نظمه ليكون دليلاً على المفقود من أفانين حكمه . وسبيلاً إلى التنزه فى طرائف أدبه وعلمه

قصائد أخرى لتييم

كتب تميم لبعض إخوانه :

إذا هب سلطان المريسى ناخساً	سجيراً وحل القصر كل نقاب
وذر على الأفق الغمام بسانه	فقم فالقه فى عسدة وجراب
بمكن وكانون وكأس مدامة	وكيس وه كف ، ناعم وكباب
وكل نساء أدكن أو مضرج	كما ضرج الحسدين ماء شباب
كتبت لك الكافات سبعا ولم تسكن	بمجموعة قبلى لرب كتاب

(١) محاسن الشام للبدرى ٣٣٣ .

(٢) الحلة السيرة لابن الأبار - خزانة مدريد ص ٢٥٢ - ٢٥٥ .

وتميم هو السابق إلى هذه الكافات المجونية التي كثر من بعده المقلد لها . وأما ابن سكرة الذي استشهد به الحريري فلم يكن إلا مغيراً أو مستعيراً ، وإنما أحسن فقط بنسبها في بيت واحد . والأمير توفى بين سنتي ٣٧٤ و ٣٧٥ هـ (٩٨٤ - ٩٨٥) أما ابن سكرة فمات من بعده بعشر سنوات أي سنة ٣٨٥ ، ومن مدائمه التي اشتغل فيها ونفث ببعض ما في صدره وصدور قومه من حب تأليه أهل بيته قبل ادعاء الخاكهم منهم للربوبية - قوله من قصيدة :

جئت الخلافة لما أن دعيتك كما	وإني لميقاته موسى على قدر
كالأرض جاد عليها الغيث منملا	فزانها بضروب الروض والزهر
ما أنت دون ملوك العالمين سوى	روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تنأى منك جوهره	تناهياً جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت	خلق الهيول وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصل	وأنت لله فيهم غير مؤتمر
لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها	مئوى وكنت لمليك الأنجم الزهر
ولو تفاعلت الأبواب منك درت	بأنها عنك في عجز وفي حصر
إن جل شخصك عن حد العيان فقد	جلت مساعيك عن مثل وعن خطر

وقال تميم :

أنا المرتضى بالأفها	م ، والمعروف بالجبر
أنا المسموع بالأفضا	ل والمنعوت في الشعر
أنا المستحمد الأمر	أنا المستحسن الإثر
أنا المفشعر البال	سخ بالفخر مدى الفخر
أنا السيف الذي يفرى	أنا الغيث الذي يقرى
أنا الصبح ، أنا للشمس	أنا البدر الذي يسرى
أنا المرجو في العسر	أنا المرجو في اليسر
أنا ابن الألف الشم	أنا ابن الأنجم الزهر
أنا ابن الوحي والحكم	سنة والفرقان والذكر

أنا ابن الشرف الأهل	أنا ابن النائل الغمر
أنا المسيل للنعمى	أنا الكاشف للضر
أنا الراقى للفتق	أنا القاعم للظهر
أنا الهائض للعظم	أنا الجابر للكسر
أنا المبصر بالرأى	أنا المسمع ذا الوقر
أنا الضارب بالبيض	أنا الطاعن بالسمر
أنا الرائي جبال الأر	أنا العالم بالذر
أنا المتصل الحلم	أنا المجتمع المكر
أنا المرهب للجن	أنا القاطع للفقر
أنا المجتمع الجأش	أنا الرحب مدى الصدر
فسل عن شرفى نغرى	وسل عن كرمى بشرى

وللأمير تميم من قصيدة رثاء أهل البيت ومفاخرة الأمويين ، منها :

أليس هم الهادون والعثرة التي	بها انجباب شرك واضمحل فساد
تساق على الإرغام قسراً نسأؤهم	صبيا إلى أرض الشام تقساد
تساق إلى دار اللعين صواغراً	كما سيق في عصف الرياح جراد
كأنهم فيء النصارى ولأنهم	لأكرم من قد عز عنه قياد
تعز على الزهراء ذلة زينب	ويتم حسين والقلوب شداد
وقرع يزيد بالقضيب لسنه	لقد مجسوا أهل الشام وهادوا
قتلتم بنى الإيمان والوحى والهدى	متى صح منكم فى الإله مراد
ولم تقتلوه بل قتلتم هداكم	ونقصتموهم عند ذاك وزادوا
أمية ما زلتم لأبناء هاشم	عدى فاملشوا طرق النفاق وعادوا
إلى كم وقد لاحت براهين فضلهم	عليكم نفاى منكم وعناد
متى قط أضحى عبد شمس كهاشم	لقد قل لإنصاف وطال شراد
متى وزنت صم الحجار بجرهم	متى شارفت شم الجبال وهاد
متى بعث الرحمن منكم كجدهم	نينا علت للحق منه زناد

متى كان يوما صخركم كعليهم
متى أصبحت هند كفاطمة الرضى
آل رسول الله كدتم وسؤتم
أليس رسول الله فهم خصيمكم
بكم أم بهم جاء القرآن مبشراً
سأبكيكم يا سادتي بمدامع
ولن لم أعاد عبد شمس عليكم
وأطلبهم حتى يروحوا وما لهم
سقى حفراً وارثكم وحوثكم
إذا عد إيمان وعد جهاد
متى قيس بالصبح المثير سواد
ستجيا عليكم ذلة وكساد
إذا اشتد إبعاد وأرمل زاد
بكم أم بهم دين الإله يشاد
غزار وحزن ليس عنه رقاد
فلا اتسعت لى ماحيت بلاد
على الأرض من طول القرار مهاد
من المستملات العذاب عهد

وله من أبيات يصف فيها ناعورة وأدج فيها هجاء الامويين :

دع عبد شمس وأباطيلها
قبيلة ما طهر الله من
طافت بحرب وهو فرعونها
دم النبي المصطفى ظاهر
فقد بدا الله بتركيسها
شامها من لئيم تنجيسها
خوف النصارى حول قسيسها
يلوح فى بنيان تأسيسها ..

ومن غفره قوله يفاضل العباسيين :

أقروا لنا يا آل عباس بالعلى
سبقناكم للدين والهجرة التى
وكنتم بنى عم النبي محمد
وليس بنو أعمامهم فى دنوهم
ولولم يكن إلا بنوا العم مثلكم
ولا يستوى العمان هذا مقرب
نبا جدكم عن نصره يوم بعثه
فأستم لها يا آل عباس أكسبا
تأخر عنها جدكم وتحجبا
وكنا بذية وهو كان لنا أبا
كئيل أخيه خطه ونسبا
لكنتم لنا وهذا وكنا لكم ربا
محجب وهذا بعد بعد تقربا
وجد على جدنا عنه مانبا

وكان عبد الله بن المعتز قد نظم قصيدة فضلى فيها العباسيين على العلويين ، وألها
د أى ربع آل هند ودار ، فرد عليه الأمير تميم بقصيدة من الروى نفسه بلغت ٥٩
بيتاً واقتحها بقوله :

جاذك الغيث يا محلة دارى وثوى فيك كل غاد وسار
وللأمير تميم قصائد غزلية أحسن فيها لإحسانه المشهور، وله لهو كثير وأوصاف
لأديرة مصر، ومنها دير القصير ودير مار يوحنا من أنزه ديار المسلمين في مصر،
وكانت الأديار في عهده مألفاً للبتزهن والمتطربين ومقصداً لاشاق اللهو واللذة
وطلاب العبت والقصف، وكان دير مرحنا يشرف على بركة الجيش التي تغنى في وصفها
وطرائفها الشعراء... وللأمير في حانة هذا الدير :

أيا دير مرحنا سقتك رعود من الغيم يهيم مزنها ويجود
فسك واصلتنا في رباك أو انس يطفن علينا بالمباخر غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ونابت عن الورد الجنى خدود
وماست على الكشبان قضبان فضة وأثقلها من خملهن نهود
ليالى أغدو بين ثوبى صباية وهو وأيام الزمان هجود
وإذ لم يوقظ الشيب ليلها وإذ أترى في الغانيات حميد

وكان دير القصير في ظاهر القاهرة قريباً من حلوان، على رأس جبل مشرف
على النيل في غاية الزاهة والحسن. وفيه صورة مريم وفي حجرها المسيح في غاية
إتقان الصنعة. وكان خمارويه بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه وتعجبه تلك الصورة
ويشرب عليها، وبني لنفسه في أعلاه قبة ذات أربع طاقات هي مشهورة به. وأهل
مصر ينتابونه ويتزهون فيه لقربه من القسطنطين (١). وللأمير تميم يصف حانته
وإدما نه للشرب فيها :

أرى الليل من دير القصير كأنما تظالعتنا من سياحتيه شمس
يلد التصابي في ذراه كأنما تجدد للزوار فيه نفوس
فن كان محبوساً على حب لذة فإني على دير القصير حبس
وله في وصف بعض الغانيات الحسان الخارجات من الدير بعد تناولهن القربان :
ومظهرة عقد هيمانها تدين بطاعة رهبانها
ترامت لنا يوم دير القصير وقد فوقت سهم أجفانها

(١) معجم البلدان لياقوت طبعة أوربا ٢ : ٦٨٥ .

فلما قصت حق قربانها وأدت فريضة صلبانها
رمتنا بلحظ يقدر القلوب ويحرقها قبل أبدانها
فلم أر ذلاً كذلك لها ولم أر عزاً كسلطانها
عجبة أبدأ للنفس وإن قطعتها بهجرانها
ألا يابى جور إدلالها على ، وإفراط عدوانها

وقال أرجوزة في وصف ساقية غلامية في هيئة المرد :

طاهرة المندبل والحفتان^(١) في هيئة المرد من الغلمان
شاطرة ساحرة اللسان ترفعت عن شبه النسوان

وله في مثالها من أبيات يصف فيها الخمر :

وشاطرة الزى محفوظة إذا برزت بزنانيرها ..
ومودعة بطن مغبرة تحدث عن عهد سابورها
حججنا إلى بيت خمارها لنشربها في مقاصيرها
ومن مدائح لآخيه العزيز التي وصف فيها دير القصير ونزاهة موقعه ،
وإشرافه على الرياض والأزهار :
سقى السفح من دير القصير إلى النهر إلى الجيزة الغراء فالشط فالنهر
من الغاديات الفر كل نخيم
ضعيف الصبا عذب الحيا مسبل القطر
إذا جادها صوباً أجاد رياضها وألبسها وشيامن النور والزهر
فن بسط مسكية ونمارق خلوقية حفت بأقبية خضر
كان الذي فوق الشقائق جائلاً
دموع أريقت في الحدود على النحر
إذا الريح جالت بينهن تضيوع بريح فتيت المسك أو عنبر الشحر
خليل لا يعيش سوى اللهو والصبا ولا هو إلا في سماع وفي خمر

(١) الحفتان : ضرب من الثياب هو المعروف بالقفطان .

فأعط من العيش الشباب نصيبه أرى الدهر صعباً لا يدوم على أمر
إذا الدهر أعطاك القياد فلا تنق به فقصاراه التثقل للغدر
ولا تنتظر كرايباض على الشعر

وله قصيدة وصف فيها اجتماعه في ما زعم بإحدى الحسان الروميات وليكنه
شان بلاغتها بالتصريح بلذته بألفاظ نابية .

قال ناهجاً منهجاً أبي نواس في خمرياته :

ولى صاحب لا يمرض العقل جهله ولا يتأذى النفس منه ولا القلب
إذا قلت لا في قصة لم يقل بلى وإن قلت هاك الكأس قال مبادرا
سريع إذا لبي صبور إذا دعا
غدوت به يوما إلى بيت حانة
وقد نفحت ريح الصبا بمنافس
فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسف
منزرة أما أبوها فقيصر
قصيرية ديرية هرقليسة
فلبا قرعنا بابها ابتردت لنا
وقالت لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً
من اتم فقلنا عصبه من بنى الصبا
فقال على اسم الله خطوا رحا لكم
وراح نقي أقذاهما طول عمرها
أرق إذا رقرقتها من زجاجة
إلى آخر هذه القصيدة الطويلة .

مشاهد البيئة في الشعر المصري

تبدو في الشعر المصري القديم صور البيئة ومشاهد الطبيعة المصرية بوضوح وجلال .
ففيه أوصاف للنيل والجو والفصول والرياض والثمار والأشجار والزرع
والأديرة والقصور وسوى ذلك ، ولا يخلو ديوان شاعر مصري قديم من أوصاف
النيل .

والنيل — كما يقول عبد الوهاب عزام — : مذكور في الشعر ، موصوف
في كل العصور ، ولا يخلو ديوان شاعر مصري من قطع في النيل وفيضانه . والخليج
وفقحه . وقلبا ورد مصر شاعر عربي إلا ذكر النيل في شعره . وحسبي أمثله قليلة
تدل على ما وراءها .

قال الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي :

يا حبذا حلوان فالنيل	ربع بحسن اللهو مأهول .
رحت ومركوبي به أدم	على جناح الريح محمول ^(١)
كأنها في الماء زنجية	لها من الموج أكاليل
والنيل في روتق شمس الضحى	سيف صقيل المتن مسلول
حقى إذا ما درجته الصبا	وماج منه العرض والطول
فهو لمن أبصره جوشن	على مهاد الأرض مسدول
أه حبك ترصيعها جوهر	مبدد فيهن محلول

وله في فيضان النيل :

أنظر إلى النيل قد عسى كره	من المياه لجاءت وهي تستبق
كأن خلجانها والماء يأخذها	مدائن فتحت فاحتازها الفرق
كأن تبارده ملك رأى ظفراً	فكر إثر الأعادى محقق نزع

(١) يعني سفينة.

ويقول ابن نباتة المصري :

ياسارى البرق فى آفاق مصر لقد أذكرتنى من زمان النيل ما عذبا
حدث عن البحر أودمعى ولا حرج وانقل عن النار أوقلى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمراً فخبذا هرم فارقه وصبا

ولإى لمشتاق إلى ظل روضة

على النيل أروى العيش مهن النضر
للى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى فيغنى الورى فى الحالين عن القطر

ويقول علم الدين أيدمر وهو من شعراء مصر :

كمياه النيل خالصة قد أتتنا منه بالعجب
كان من ذوب اللجين فقد عاد بالتدبير من ذهب
راقص بالحسن متهيج فموفى عجب وفى طرب
ومغاني مصر تسمعه نغمة الشادى بلا صخب
ونسيم الريح لآعبة فى خلال الروض بالقضب

ولابراهيم بن عبدون الكاتب :

والنيل بين الجانبين كأنما صبت بصفحته صفحة صيقل
يأتيك من كدر الزواجر مده بمسك من مائه ومصنل
فكان ضوء البدر فى تمويجه برق يموج فى سحاب مسبل
وكان نور السرج فى جنباته زهر الكواكب تحت ليل ليل
مثل الرياض مصنفاً نوارها بيد لعين مشبه ومثل

وللقاضى الفاضل رسائل عدة فى وصف النيل .

وكذلك أكثر الشعراء فى وصف جزيرة الروضة والخليج وبركة الجيش، كقول

ابن عماتى :

جزيرة مصر لاعدتك مسرة ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن بانه يبيت ويحي هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت موادجا
وعتلفات الموج فيها جمالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة ترف على أهل الضلال ظلالها

ويقول ابن الساعاتي في يوم كسر الخليج :

إن يوم الخليج يوم من الحسنة بديع المرنى والمسموع
كم لديه من ليل غاب صثول ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السدة عزة قبل أن تملكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسرهم هناك خفاكى كسر قلب يتلوه فيض الدموع

لأمية بن عبد العزيز الأندلسي في البركة :

لله يوم ببركة الجيش والافق بين الضياء والغيش
والنيل بين الضياء مضطرب كصارم في يمين مرتعش
ونحن في روضة مؤنقة ديج بالنور عطفها ووشى
قد نسجت يد الغمام لنا فنحن من نسجها على فرش

وأولع الشعراء بوصف نواخير مصر (السواقي) كقول الأمير تميم :

ناعورة أنت أنين الهوى لما شكيت حر وساويسها
أنينها صرة تدويرها ودمعها ماء قواديسها
كأنما الكيزان في برها هام ملوك في نواويسها
تقذف بالماء إلى روضة كأنها ريش طواويسها

وكذلك أكثر شعراء مصر من وصف المروج والرباض والحدائق ، ونظموا
كثيراً من العرديات التي توصف فيها البرية ونباتها وأنواع الطير والوحش ونصروا
فنّاً من المعيشة ممتعاً .

وأما الأبنية فما قصر الشعراء في وصفها . فالأهرام كانت حيرة الشعراء ، ومبعث كثير من أشعارهم .

يقول عمارة النقي شاعر الفاطميين :

خليلي ما تحت السماء بنية تماثل في إتقانها هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
نزه طرفي في بديع بنائها ولم ينزه في المراد بها فكري

وقال ابن الساعاتي :

ومن العجائب . والعجائب جملة دقت عن الإكثار والإسهاب
هرمان قد هرم الزمان وأدبرت أيامه ويزيد حسن شباب
لله أي بنية أزليسة تبغى السماء بأطول الأسباب
وكأنما وقفت وقوف تبدل أسفاً على الأيام والأحقاب
كتمت عن الأسماع فصل خطابها وغدت تشير به إلى الأبواب

ومثل هذا كثير يضيق المجال عن إثباته .

ووصف الشعراء كثيراً من أبنية مصر . وحسبك ما قالوا في أديار مصر ،
فقلبا حرم دير من ذكرهم إياه وحنينهم إليه .

يقول ابن عاصم في دير طمويه (طموه) :

واشرب بطمويه من صهباء صافية تزرى بخمر قرى هيت وعجانات
على رياض من النوار زاهرة تجرى الجداول منها بين جنات
كأن نبت الشقيق العصفري بها كاسات خمر بدت في إثر كاسات
كأن ترجسها من حسنه حلق في خفية تتناجى بالإشارات
كأنما النيل في مر النسيم به مستلثم في دروع سابريات
ولا بن الزنبق المهرى في دير القصير ، وكثيراً ما نظم فيه الشعراء :
يا حسرة في القلب ما أقتلها كأنها في القلب أطراف الأسل
كم وكمن ليلة أحببتا يا صاحبي بالدير في خير محل
دير القصير الفرد في صفاته يا من رأى الجنة في رأس جبل

ولعمارة البني قصيدة يصف فيها دار بدر بن رزيك ، منها :
وسقيت من ذوب النضار سقوفها حتى لكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض إلا مزهراً والنخل والرمان إلا مشعراً
وبها من الحيوان كل مشهر ابس الوشيج العبقري مشهراً
وكان صولتك المخوفة أمنت أسرابها ألا تراع وتذعراً
أنشأت فيها للعيون بدائعا رقت فأذهل حسنها من أبهرا
فن الرخام مسيراً ومسهما ومثمتما ومدرها ومدنرا
والعاج بين الآبنوس كأنه أرض من الكافور تثبت عنبرا
وهي قصيدة طويلة جيدة . وكذلك افتن شعراء مصر في وصف رياضها
ورياحيتها وثمارها وتفكهوا بذكر أطعمتها ، ولا سيما الكنافة والقطائف .
أهدى ابن نباتة المصري كنافه مخنقة (محشوة) وكتب :

ياسيدي جاءك في صدرها كأنها روجي في صدري
كنافة بالحلل موعودة كما تقول : العسل المصري
قد خفقتي عبرتي كاسمها وبادرت من خلفها تجرى
ما خرج الفستق من قشره فيها وقد أخرجت من قشري
ونشرها من طيها لم يفح فاعجب لسوء الطي والنشر

وأما الأحداث السياسية والاجتماعية فقد كانت كما هي اليوم ، مستيق الشعراء ،
حتى ضمنت كتب التاريخ فضلا عن كتب الأدب كثيراً منها ، فأحداث الدول
الطولونية والإخشيدية والفاطمية ودولة المماليك والحروب الصليبية ، قد سجل
الشعراء كثيراً منها ، حتى الشعراء الطارئون على مصر كأبي نواس وأبي الطيب .
ذكر أبو نواس ثورة أهل الحوف وما فعله الخصب لإخضاعهم ، وذكر أبو
الطيب ثورة شبيب الخارجي وأبدع في وصفها ، ونظم قصيدة رائعة حينما اصطلح
كافور وأنوجور بن الأخشيد بعد تنافر . ومن يتصفح دواوين شعراء مصر ، وهي
لم تنل حظها من العناية حتى اليوم ، ويطلع على كتب التاريخ المصري ، يعرف كيف
تغلغل الشعر في معاش الناس . مسراتها وأحزانها وجددها وهزلها .

مؤرخو مصر الإسلامية ... ٢

وهم كثيرون منهم :

١ - تقي الدين أحمد المقرئ ١٣٦٠ - ١٤٤١ م وكان فيها محتسباً وله مصنفات عديدة ، أشهرها كتاب د المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، يختص بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبأقليمها وتاريخها وديانة أهلها وأدبهم وتجارتهم . ثم كتاب د اتعاظ الحكماء بأخبار الخلفاء ، محتوي على تاريخ مصر من أيام فتحها إلى آخر أيام الدولة الفاطمية . وله أيضاً د كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو ذيل لكتاب اتعاظ الخلفاء ، يأتي به على تاريخ مصر من سنة ١١٨١ إلى سنة ١٤٤٠ م في أيام الدولة الأيوبية والمماليك . وكان في قصد المقرئ أن يؤلف كتاباً يجمع فيه سير كل الملوك وأعظم الرجال الذين نبغوا في مصر وسير الرجال العظام الذين زاروها ويجعله ثمانين مجلداً ، فابتدأ بتصنيفه وسماه كتاب د المقفي ، ولكنه مات قبل أن يتممه . ونذكر من تصانيف المقرئ أيضاً كتاب د الإلمام في أخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، وكتاب الأوزان والأكيال الشرعية ثم كتاب د البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب .

٢ - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٥٩١١ هـ ١٥٠٥ م ولد في أسيوط من أعمال الصعيد ، كان من أشهر علماء زمانه وله عدة مصنفات في كل العلوم العربية والدينية والتاريخ . قيل إنه صنف نحو خمسمائة مجلد ، منها كتاب د حسن المحاضرة وأخبار مصر والقاهرة ، وتاريخ الخلفاء من أبي بكر الصديق إلى سنة ٩٠٠ هجرية وكتاب الأوائل .

٣ - ابن مرعي المتوفى سنة ١٦٢٣ م ، وله كتاب د نزهة الناظرين في من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين .

٤ - أبو الحسن بن تغري بردي .

ولد جمال الدين أبو الحسن يوسف بالقاهرة عام ٨١٢ هـ - ١٤٠٨ م في عهد الملك الظاهر برفوق ، كان أبوه مملوكاً روى الجنس ، اشتراه الظاهر وأعتقه ورفعه لذكائه حتى صار أميراً للسلاح (أتابكا) ، واختاره مع من اختاره للصداية علي العرش بعد وفاته . وفي أول عهد الملك الناصر بن الظاهر بار نائب الشمام ،

وحالفه على الثورة جماعة من قواد الجيش منهم تغرى بردى فزهم الناصر ، وفر تغرى بردى ، وفي أثناء غيبته تزوج الناصر من ابنته أخت المؤرخ وعفائه واستقدمه عام ٨٠٨ هـ ، وعينه قائداً للبصرة حتى توفي عام ٨١٥ هـ ، وورثه ابنه أبا المحاسن زوج أخته الثانية قاضى القضاة ناصر الدين ، فلما توفي رباها زوج أخته الأخرى قاضى القضاة جلال الدين ، لحفظ القرآن ، ودرس الفقه والكلام والنحو والبيان على عدة من العلماء ، وكان له فى الأدب جولات لا سيما الغزل ، كما كان بارعا فى الفروسية ، وموسيقياً بارعا ، وابن تغرى بردى مؤرخ مصر والنيل بكتابه الضخم « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » .

ومن الآثار التاريخية النفيسة لابن تغرى بردى « كتاب المنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى » ، تأليف أبى المحاسن بن تغرى بردى المؤرخ المصرى الكبير المتوفى سنة ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م وهو معجم ضخيم للتراجم يقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة ، وتوجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية ، وفيه يترجم المؤلف أعلام الإسلام منذ أوائل الدولة التركية ويبدأ بالمعز أيلك التركمانى زوج شجرة الدر وملك مصر (٦٤٨ - ٦٥٠ هـ) أى منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى منتصف القرن الخامس عشر ، ويفيض بوجه خاص فى سير أعلام مصر والشام من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء ، ويترجم أيضاً بعض ملوك النصرانية وأمرائها فى هذه العصور ، مرتباً ذلك كله على حروف المعجم ، وقد جعل أبو المحاسن مؤلفه تكملة أو ذيلاً لمعجم الصفدى الشهير « الوافى » ، ولهذا الكتاب قيمة تاريخية خاصة ، لأن مؤلفه وهو من أمراء البلاط القاهرى فى القرن التاسع الهجرى لم يتأثر فى وضعه بمؤثرات أو أهواء خاصة ، ولا سيما فيما يتعلق بترجمة معاصريه ، حسبما يشير إليه هو فى مقدمته ، إذ يقول إنه وضع كتابه « غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان ، ولا مطالب به من الأصدقاء والإخوان . ولا لتأليفه وترصيعه من أمير ولا سلطان » . والمعنى الذى يقصده المؤلف بهذه الإشارة ظاهر ، فقد كانت معظم التراجم فى عصره توضع بوحى معين أو تحقيقاً لشهوات الخصومات السياسية والأدبية ، التى جعلت من كتاب القرن التاسع ومؤرخيه أحزاباً أدبية متنافرة متخاصمة . ولكن أبا المحاسن يقدم لقارئه سير معاصريه والقريبين من عصره فى صور أكثر استقلالاً وحرية فى التقدير والحكم كما يقول عبد الله عنان .

وقد تلخص هذا الكتاب الذى لا يزال مخطوطاً حتى اليوم المستشرق (فيتيت) مدير دار الآثار العربية سابقاً فأخرج بالفرنسية مجلداً ضخماً عن محتوياته المجلد الصافى ، ، وسماه بنفس الاسم ، ونشر ضمن مجموعة المجمع العلمى المصرى ، ويقع فى ٨٠ صفحة كبيرة ، ويمهد له مسيو فيتيت بمقدمة ضمنها تراجم الكتاب (وعدها ٢٨٢٢ ترجمة) بحسب صفات أصحابها من أمراء وقادة وساسة وتجار وأدباء وعلماء ... الخ ، ثم يكتفى فى كل ترجمة بذكر اسم صاحبها وتاريخ مولده ووفاته ورقم الورقة التى يشغلها من المخطوط الأصيل ، ويذكر المراجع الأخرى التى تشير إلى هذه الترجمة ، وأخصها كتاب النجوم الزاهرة لنفس المؤلف (أنى المحاسن) وخطط المقريزى ، وابن حجر ، والسخاوى ... الخ ، ثم يذيل ذلك بفهرس أبجدي عام .

٥ - ومن مؤرخى مصر الجبرقى ، وقد دون الجبرقى حوادث مصر منذ سنة ١٦٨٩ وكان شاهد عيان لها من سنة ١٧٥٧ إلى سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٢١ ، وقد احتوى كتابه على تراجم شخصيات مصر فى ذلك العهد . وليس هناك مؤرخ استقرى الحوادث بمثل إسبابه وتحقيقه ، ولا بذل ما بذله من الجهد والجلد والصبر والمعاناة فى البحث والاستقراء . ولم يبلغ أحد من مؤرخى المائة سنة الأخيرة ما بلغ الجبرقى فى التخصص للتاريخ .

٦ - ومن المؤرخين : دافعة رافع الطهطاوى ، وعلى باشا مبارك ، و د اللواء محمد مختار باشا المصرى ، .

رفاعه رافع الكبير هو بلا مراى زعيم نهضة العلم والأدب فى عصر محمد هلى ، والتاريخ متفرع عن العلم والأدب - وتجده ميوله التاريخية فى كتابه وتخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، الذى تضمن مشاهداته وتأملاته فى رحلته وإقامته بفرنسا ، و د مناهج الآلآباب المصرية ، و د أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل ، ، وفى بحوثه بمجلة د روضة المدارس ، وبخاصة رسالته التى نشرها فيها تباعاً د نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، فى تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعلى باشا مبارك قد أسدى إلى تاريخ مصر أعظم خدمة بكتابه الخالد الذى أخرجه فى عشرين مجلداً وأسماء د الخطط التوفيقية ، ، وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وتاريخها وجغرافيتها فى عصورها القديمة والحديثة ، ويمد تكملة

وتجديداً لخطط المقرئ ولكتاب تحطيط مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية، وفيه وصف شامل لمصر ومدنها وقراها في أطوارها التاريخية ونيلها وترعها وسواحلها، وتحطيط كامل لأحياء القاهرة والإسكندرية ومعالمها القديمة والحديثة وقد تضمن فيما تضمن تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وأمرائها وأعيانها. وهو من هذه الناحية يعد مكملاً لكتاب الجبرتي. فهو غرة في تاريخ مصر العلمي، وحسبك أنه مرجع كل باحث في شؤون مصر التاريخية والعلمية والهندسية.

وثالث الثلاثة هو اللواء محمد مختار باشا المصري صاحب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ المصرية بالسنين الإفرنجية والقطعية، من السنة الأولى للهجرة إلى عام ١٥٠٠ هجرية. وهو كتاب ضخم يمتاز بالدقة والتحصيل في رصد التواريخ على صفحاتها وتدوين أهم الحوادث المصرية مرتبة بتسلسل السنين والشهور والأيام التي أرخها لغاية سنة ١٣١٠ هجرية (١٨٩٢ ميلادية) وهو من أعظم المراجع في تاريخ مصر طول العصور.

تم الجزء الأول
ويليه
الجزء الثاني

بمحمد الله ورعايته

فهرس

الجزء الاول من الكتاب

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
الفتح العربى لمصر	٥
الفكر المصرى بين عهدين	١٦
اللغة العربية وآدابها فى مصر بعد الفتح الإسلامى	٢٩
النثر الأدبى فى ظل الولاية المسلمين	٣٤
صور أدبية	٣٥
الشعر فى عصر الولاية	٣٩
الأدب فى عصر الطولونيين والأشيديين	٥٢
الشعر فى عهد الدولتين	٦٥
المتنبى وكافور	٦٦
ابن طباطبا المصرى	٧٣
ابراهيم الجيزى	٧٣
ابن جدار المصرى	٧٣
منصور الفقيه	٧٤
شعراء وفدوا على مصر	٧٤
الأدب فى ظلال الدولة الفاطمية	٧٦
تشيد الأزهر	٨١
إنشاء المكتبات	٨٧
إنشاء دار الحكمة	٨٨
أعلام الثقافة فى هذا العصر	٨٩
جوانب من الحياة الفكرية فى هذا العصر	٩٢

الموضوع	الصفحة
ابن الهيثم	٩٣
علماء وأدباء	٩٥
النثر الأدبي في العصر الفاطمي	٩٧
الشعر في عهد الدولة الفاطمية	١١٨
نماذج من الشعر الفاطمي	١٢٧
تيم بن المعز الفاطمي	١٤٠
صور من شعر تيم	١٤٦
تيم في جده ولطوه	٢٠١
قصائد أخرى لتيم	٢٠٣